توتو كافي

الناشر

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذي

سماح الجمال

إشراف فني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلي

محمد عبدالفتاح

دار النخبة

33 شارع السنترال - الحي الأول -

مدينة الشيخ زيد - الجيزة - مصر

تليفون: 38511969 - 00202

002 - 01288688875

E-mail: alnokhoba@gmail.com

توتو كافي

المؤلف : حسين آدم

عدد الصفحات: 216

الطبعة الأولى

1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: 16407 / 2017

ISBN: 978-977-838-005-7

رواية

توتو كافي

حسين آدم

النخبة للطباعة والنشر والتوزيع

٢٠١٧

‘‘‘

طلب مني المدعوون بالأمراء عصم عيني لكي لا أرى ما يفعلونه بغيري. سألتهم: «ماذا أفعل بأذني اللتين تغتصبهما أصوات بكاء وصراخ أمة لا تستحق مثل هذا المقدار من الاضطهاد والتعذيب، والتشريد والتفريق والقتل المتعمد؟»؛ فقالوا لي: «أغلقها هي الأخرى أو ادع الصمم»...

سألتهم: «ماذا عن قلبي الذي يكفر بالظلم ويؤمن بالعدالة والمساواة؟»... ابتسموا بطريقة أكثر خبثًا، وقالوا لي: «دعك من هذه الخرافات الرجعية والأحاسيس الإنسانية التي لا تجزيك نفعًا. نريدك أن تصير أميرًا مثلنا»...

سألتهم: «من أنتم بالتحديد؟»... قالوا لي: «إننا كنا رعاة أغنام وصرنا من بعد أمراء وحكامًا. مهاجرون لا أوطان لنا. أنانيون بالفطرة. نحب أنفسنا أكثر مما ينبغي. لا نؤمن بغيرنا. أصحاب مذهب مبادئه الخبث والنفاق. لا يوجد في صفحاتها ما يُسَمى بمكارم الأخلاق. أرواحنا سكنها الغدر، وقلوبنا هي الأخرى أصبحت متعطشةً لسفك الدماء. نقتل غيرنا من أجل بقائنا ومستقبل أبنائنا»...

قلت لهم: «إذًا أنتم قتلة وسفاحون»... قالوا: «بلى»... قلت لهم: «لا أريد عن أكون أميرًا وقاتلًا مثلكم. أريد أن أحافظ على آدميتي وإنسانيتي، وأرفض أن أكون دميةً قاتلةً من أجل نجاح مشروعكم»...

اقتربوا مني ووضعوا في يدي السلاح وقالوا لي: «هيا اذهب واقتل أباك وأخاك وأبناء جلدتك، وكل من هم أقرب إليك؛ لكي تتحرر من آدميتك وتصبح أميرًا قاتلًا مثلنا»...

صرخت فيهم بصوت عالٍ وقلت لهم: «تبًّا لكم ولأمرائكم. اغربوا عن وجهي أيها القتلة. إنكم آل الظلمة، وإنكم محرومون من الجنة وموعودون بجهنم لا محالة»...

إهـــداء

إلى جميع الشباب الذين سقطوا في حرب باطلة لا شأن لهم فيها...

وإلى جميع النساء اللائي ترملن جراء حرب لا نهاية لها...

وإلى جميع الأطفال اليتامى الذين حُرِموا من آبائهم؛ الذين اقتادتهم الأنظمة إلى ساحات الحرب كرهًا دون رغبتهم...

وإلى جميع الأطفال المشردين، ونزلاء السجون، والنساء الكادحات...

وإلى جميع الأهل والأصدقاء والفاضلين والفاضلات من أبناء بلدي...

1

توتو كافي ابن العاشرة ربيعًا، وُلِد وترعرع في منطقة جبال (النوبة) المعروفة حاليًّا بولاية (جنوب كردفان). نعم؛ هذا هو الاسم الذي أطلقه عليها السادة الأخيار، أو كما يدعون أنهم خلفاء هذه الأرض من بعد خالقه...

وُلِد توتو كافي بقرية (كيقا جرو) تلك القرية الصغيرة النائية الواقعة بين منطقتي (كادُقْلي) و(الدلنج)... قرية مثلها مثل بقية القرى الأخرى، رغم صغر حجمها لم تختلف شكلًا ونموذجًا عن بقية القرى العملاقة بمنازلها المتناثرة هنا وهناك...

تلك القطاطي الجميلة التي تحتضن على جدرانها ألوانًا شتى ورموزًا جميلةً... تلك الرموز التي تجسد روح ثقافة وحضارة متوارثة جيلًا بعد جيل... تلك الحضارة الكوشية العريقة والعميقة بجذورها المتأصلة رغم ضبابية التاريخ، وما حصل من تجريف الثقافات...

تلك الاستراتيجية التي خُلِقت خصيصًا لتبديد هوية الآخر، والتي حاولت بشتى السبل ذبح حقوق الآخرين، إلا أنها ظلت متماسكةً بإيمانها وعنادها؛ وهي تعلن بفخر وكبرياء هزيمةً شنعاء لتلك الاستراتيجية؛ التي خُلِقَت من قبل الآخر لدثرهم من أجل أن يصيروا هم خلفاء وورثة تلك البقعة من الأرض؛ ليحكموا ويتحكموا بمصائر الآخرين مثلما قال توتو كافي:

«إننا نعيش في غيبوبة مستدامة، أسئلة كثيرة تزاحم وتداهم عقولنا باستمرار، أعظمها أسئلة تتعلق بالهوية. لدينا رغبة عارمة لاستخلاص الحقيقة من جذورها...

لكن تلك الحقيقة التي نبحث عنها ضمرت وقُتِلت وذبلت منذ زمان بعيد، وتلاشت من صفحات التاريخ بفعل الفاعل وخبث الخابثين؛ لنجد أن الواقع الذي نعيشه ما هو إلا لوحة تشكيلية كاذبة وتافهة وأكثر خداعًا، رُسِمت على يد فنان ماهر وأكثر مكرًا...

قد أفرغ فيها الساحر جل إمكانياته؛ لكي تعكس تلك اللوحة جماليةً جاذبةً للضحايا. بالحق إنه صاحب موهبة خبيثة وعقلية قد أصابها المس الشيطاني حقًّا. إننا نعيش في واقع مزيف تملأه الأكاذيب الكبرى»...

❁❁❁

2

نهض توتو كافي من نومه عند الساعة التاسعة صباحًا. ليس من عادته النهوض في تلك الساعة المبكرة. كان بالنسبة له صباحًا طبيعيًّا مثله مثل بقية الأيام المعهودة، إلا أنه كان في غفلة عن مصيره الذي كان يتربص به.

لم يكن يعلم أن ذاك اليوم بالتحديد سيكون نقطةً فاصلةً في حياته، ماضيه الذي أصبح روتينًا مملًّا يخلو من اللذة، وحاضره الآخر مثل ماضيه؛ لم يختلف عنه في شيء، أما مستقبله المجهول كان له بالمرصاد، وهو يقوده وقدماه الأخرى تجرفه بعنوه إلى حيث قمة الجبل الذي اعتاد الذهاب عندها لقضاء بعض الأوقات الممتعة.

تابع خطواته بيسر وبطء حتى وصل فوق قمة الجبل، جلس في ذاك المكان وبدأت عيناه تراقب القرية وما حولها، الجبال التي بدأت تخضر وتنمو عليها الحشائش كالعباءة التي تكسو الجسد رويدًا رويدًا؛ سيتغير شكلها وملامحها التي اعتاد عليها سكان تلك البقعة من الأرض...

حان الآن موعد مغادرة الصيف ومجيء الخريف بخيراته إنها أصبحت في طور التغير؛ تلك الأرض الغبشاء بدأت تخضر يومًا تلوى الآخر، والعصافير بدأت أصواتها تعلو في الفضاء تعبيرًا عن فرحتها بقدوم فصل الخريف بخيراته الوفيرة وبأمطاره الغزيرة، لم تكن الفرحة من نصيب العصافير فحسب؛ وإنما الجميع كانوا على فرح وسعادة بمجيء هذا الضيف القادم بخيراته...

3

كان توتو كافي جالسًا على صخرة ضخمة فوق قمة الجبل؛ يداعبه النسيم والرياح تتناثر هنا وهناك في الفضاء الطلق بطريقة فوضوية، وأنفه الآخر كان مشغولًا بشم رائحة التراب الطمييّة؛ التي امتزجت مع ماء نقي تساقط من السماء العلوية في ساعات الليلة الماضية.

نعم؛ إنها بداية موسم الخريف أو الثورة الموسمية، لأن الأمطار تهطل حينها بغزارة. في أغلب الأوقات تتساقط الأمطار لساعات عديدة دون توقف، ومن حين آخر تجيء في فترات متقطعة من ساعات النهار أو الليل دون إخطار الخلق، أيهما أفضل هل مجيئه في ساعات النهار أم الليل الاكهل؟

هذا هو الأمر الذي شغل عقل توتو كافي في تلك اللحظة بالتحديد. كان يفكر في الأضرار الفادحة التي وقعت في ساعات الليلة الماضية جراء المطر الذي استغرق ما يقارب الستة ساعات، إلا أن الطبيعة لم تمنحه الفترة الكافية لكي يصل إلى مبتغاه.

بدأت السحب المتباعدة تجتمع ببعضها البعض بسرعة، وأصوات الرعد تخترق أذنيه بقسوة، لم يمر الوقت كثيرًا حتى بدأ ضوء الشمس يغيب من الوجود ببطء حتى اختفى تمامًا: «يا إلهي إنها على وشك التساقط، وإن مجيئه أصبح أمرًا حتميًّا لا مفر منه»...

وقف توتو كافي على قدميه وأطلق ساقيه بحذر خوفًا من سقوط إحديهما بين شقوق الصخور المتباعدة، يقفز هنا وهناك كالغزال؛ وهو يخطو خطواته

برشاقة على سطح الصخور. بدأت قطرات الماء تتساقط على جسمه بحنية، وكأنها أنامل تدغدغ جلده التي تكسو عظامه.

لم يتجاوز خطواته المئتى وثلاثة حتى شعر بضربات قوية على جسده. تمهل قليلًا، ورفع بصره إلى السماء. سقطت على وجهه كتل ثلجية بيضاء مدورة كحبات العنب. أقسم بالله إنها كانت مكعبات من الثلج البارد كالثلج القطبي!

والصخور هي الأخرى بدأت تصرخ وهي تصدر أصواتًا أكثر قوةً من الأصوات التي تصدرها حين تهطل الأمطار الطبيعية المعتادة، إنها صادرة جراء سقوط واصطدام مكعبات الثلج وهي تتلاطم على الصخور، وتنفجر إلى أشلاء متناثرة هنا وهناك.

كان صوتها أشبه بسقوط الزجاج على الرخام حينها، قد أدرك توتو كافي بأن الطبيعة أصبحت أكثر قسوةً لأنها تجاوزت الوضعية التي اعتاد عليها من قبل، وسماؤها هي الأخرى صارت ثائرةً وهي تقذف الأرض ثلجًا بدلًا من الماء.

قرر بعدها أن يخبئ جسده داخل أحد الكهوف إلى حين توقف تساقط المطر. أطلق قدميه بسرعة في اتجاه كان يعلمه منذ بادئ الأمر. هناك كهفًا ما في تلك البقعة.

نعم؛ إنه كان يعرف المنطقة جيدًا. إذا سألته عن أنواع الأشجار الموجودة يستطيع أن يخبرك بدقة، لدرجة أنه يمكن أن يحصي لك كم يبلغ عدد أشجارها وجبالها وأحجارها وآبارها... عمومًا كل شيء ثابت، وأيضًا له بعض المعرفة في الأشياء المتحركة الغير ثابتة، مثل عصافيرها المهاجرة والمستوطنة في المنطقة، وكلابها الضالة والمتوحشة التي تعيش داخل أوكار الجبال، والأليفة التي تعيش داخل المنازل...

وأخطر ما في الأمر أنه يعلم طبائع الخلق: أفعال وصفات جميع سكان منطقة (كيقا جرو) من الجنسين رجالًا ونساءً. إنه يدرك تفاصيل حياتهم، صفاتهم، طبائعهم، أفعالهم... يعرف الرجل الزاني الذي يخون زوجته، وأيًّا من النساء تخون زوجها، وأيضًا إنه يعلم بالعلاقات الجسدية التي تحدث بين الشباب وفتيات القرية الذين لم يتزوجوا بعد...

كان كالقمر الصناعي فوق سماء القرية والمنطقة كافةً، كان يسمع جميع الأصوات التي يصدرها بعض القوم الذين يجيدون الهمس؛ رغبةً في الحفاظ على نشاطاتهم تحت غطاء السرية التامة، وصوت أقدام الذين يتسللون في ساعات الظلام الدامس؛ لكي تطوي أيديهم جسد آخر لينالوا من خلالها نشوة الجسد، أو يتحصلون على شيء نفيس ذا قيمة ينتفعون من ورائه...

لم تكن رغبته الوصول لتلك الدرجة العالية من الاحترافية لرصد نشاطات الجميع؛ حتى أصبح شخصًا ملمًّا بكل شيء: الأحياء منها والأموات...

وحين نطرق باب التساؤلات لكي نأتي بالأسباب التي أدت إلى تراكم تلك المعرفة الدقيقة داخل عقل توتو كافي يمكن أن نقول: ربما لعنة الفراغ هي التي أصابته لكي تملأ عليه ما هو فارغ بمثلها؟ أم أنه فعلها هربًا من العطالة والفراغ؛ لكي يبرهن لعقله وروحه بأنه ليس من البؤساء؟ أم آلهة الطبيعة هي التي اختارته وعينته شاهدًا لرصد ما يحدث في القرية؛ ليكون شاهدًا من أهلها...

بالحق إنه كان طفلًا بريئًا مثله مثل بقية أطفال القرية، فقط كانت في نفسه أمنية وحيدة يحلم بها منذ صباه، وهو السفر إلى الخرطوم لكي يعمل ويجني أموالًا كثيرةً؛ حتى يصير من أغنيائها وسادتها.

كان يقضي جل أوقاته يخطط للسفر إلى البندر... إلى عاصمة الأحلام... إلى بلد الرفاهية... كان يسمع قصصًا بين الحين والآخر من عابري الطريق عن العاصمة، عن أبنيتها العملاقة وشوارعها المسفلتة، وفتياتها الجميلات الأشبه بالحوريات... كل تلك القصص ملأت رغبته وكبرت عزيمته...

خمسة أعوام قد مضت على رغبته في الهروب إلى عاصمة البندر، كان يراقب الطريق السيارات القادمة من العاصمة باستمرار. دائمًا ما تجده أول الحاضرين حين يسمع بوصول إحدى الشاحنات إلى محطة قرية (كيقا جرو)...

لا بد من وجود سبب وراء حضوره المبكر بتلك الطريقة دون الآخرين حين يسمع صوت بوق شاحنات يطلقها سائقوها تنبيهًا لسكان القرية بوصولهم من جهة، ومن جهة أخرى هي طريقة يعبرون بها عن التحية أينما حطوا بشاحناتهم...

❁❁❁

4

عمومًا سنعود بكم مرةً أخرى إلى حيث الكهف الذي اختبأ فيه توتو كافي هربًا من مكعبات الثلج؛ التي كانت تتساقط من السماء... تساقط المطر لم يستمر لوقت طويل، لم تكن له الخبرة الكافية لمعرفة ذلك، لم يمر عليه مطر كهذا طيلة حياته، لكن إيمانه بما سمعه من قبل أجداده كان برهانًا لقناعته الراسخة بعدم استمرارية المطر...

عادت الطبيعة مثلما كانت من قبل، أصبحت الطبيعة أكثر نقاءً وصفاءً، وحين تبصر بعينيك السماء ترى ألوان الطيف قادمةً من المجهول، وتتجه إلى المجهول، تارةً من المشرق إلى المغرب، وتارةً أخرى من الشمال إلى أقصى الجنوب...

عمومًا أصبح كل شيء واضحًا للبصر، تستطيع العيون التقاط كل الأشياء بوضوح، من ضمنها قرية (حلة موسى) الواقعة على بعد عشرين كيلو متر من قرية (كيقا جرو)، تلك القرية التي تحمل قصةً غريبةً في نشأتها وتكوينها.

بالحق كل من سمعوا قصتها أصابهم الذهول والدهشة معًا، قرية وُجِدت من صلب رجل واحد اسمه الحاج موسى، إنه الرجل الذي استطاع تكوين قرية كاملة بمائه الذي خرج من ترائبه، رجل له قصة طريفة مع زوجاته المتعددات...

قد حدثت تلك القصة في أواسط عمره أي في شبابه حين تزوج زوجته الثالثة، تلك الصبية الصغيرة الجميلة كانت على عكس زوجاته الأخريات...

يُقَال إنه ظهرت بعض الخلافات بين زوجاته -مثلما يحدث بين الضرات- تذمرت الاثنتان الكبيرتان وبدأتا تتآمران ضد الثالثة ضرتهما الصغيرة، وصارت الاثنتان تنتقدان زوجهما المدعو حاج موسى، وصارت كل منهما تشكو على أنها مظلومة، ولم تنل حقوقها الزوجية كما ينبغي، وسرعان ما اتهموه على أنه يقضي كل لياليه مع زوجته الصغيرة التي تزوج بها مؤخرًا...

تذمر هو الآخر، وقال لهما إنه مشغول، ولا وقت لديه حتى يحفظ جدولهن ونصحهن قائلًا: «اسمعوني جيدًا سوف أعتمد على تلك الشجرة القائمة في باحة المنزل؛ أتفقدها بعد مجيئي إلى المنزل وإذا وجدت عليها الملابس الداخلية الخاصة بإحداكن أعرف أنها ترغب في المعاشرة؛ فأدخل عليها وأقضي لها حاجتها، لذلك أنصحكن جميعًا باستخدام هذه الإشارة، لكي تنالوا رغباتكن بالتساوي»...

احتجت الكبيرتان وقالتا: «هذا الشيء مخزٍ وفاضح أيضًا لا نستطيع فعل ذلك»... رفضتا بكبرياء، إلا أن تلك الفتاة الصغيرة لم تحتج على فعل ذلك، وإنما فرحت وتحمست كثيرًا، وبدأت تعلق ملابسها الداخلية فوق تلك الشجرة التي تتوسط حرم المنزل قبيل صلاة العصر بكثير، وحين تراها ضرتاها تمصان الشفاه وتقولان: «ما هذا السخط؟ ألا تستحي تلك الفتاة من فعل هذا الشيء»...

وحين يجيئ الظلام ويعود الزوج إلى المنزل من عمله يتفقد تلك الشجرة وإذا به يجد الملابس الداخلية الخاصة بزوجته الصغيرة، فيذهب إليها دون تردد، ويقضي معها الليلة بكاملها. وحين تكرر الأمر عدة مرات، ومرت ثلاثة أسابيع وهو غائب عن زوجتيه الكبيرتين دون معاشرة...

وفي صباح الخامس والعشرين اجتمعت زوجتاه المحرومتان في اجتماع مغلق، وقالت إحداهما لضرتها الأخرى: «أقسم بالله ما يحدث لنا ظلم ليس

بعده ظلم. ما تفعله بنا تلك الساقطة والعاهرة الصغيرة قد أضر بنا كثيرًا. تلك العفريتة الصغيرة ستضيع مستقبلنا، يجب عن نتحرك ونتصرف بسرعة، ونصدها عن عملها إنها تتغول على حقوقنا جميعًا»...

ومنذ تلك اللحظة قررتا الالتزام بتلك النصيحة التي أخبرهما بها زوجهما، وهي القيام بتعليق ملابسهما الداخلية فوق الشجرة دون خجل إعلانًا على رغبة ماسة في المعاشرة...

وحين عاد الزوج من عمله وإذا بعينيه وقعت على ثلاثة ملابس داخلية معلقة على إحدى فروع الشجرة: «يا إلهي؛ ثلاثتهن يرغبن في الجماع»... توكل ودخل على زوجاته الثلاثة وقضى لهن حاجاتهن، وتكرر هذا الأمر في اليوم الثاني والثالث تباعًا؛ حتى بلغ اليوم العاشر...

شعر الرجل بالهلاك جراء ما يتعرض له من عصر وحلب طاقته التي يحتاجها في عمله الشاق والدؤوب، وفي مساء اليوم الحادي عشر عاد إلى المنزل مرهقًا، وجد ثلاثتهن قد قمن بوضع ملابسهن الداخلية تعبيرًا عن رغبتهن في المعاشرة، وإذا به أحنى بجسمه قليلًا وخلع سرواله الداخلي وعلقه فوق الشجرة بجوار ملابس زوجاته الثلاثة، واستلقى فوق عنقريبه وغرق في نوم عميق...

يُقَال إنه كان رجلًا كالماكينة الجنسية التي تعمل بالوقود، كل ليلة يفعل فعلته مع إحدى زوجاته اللائي بلغ عددهن إحدى وعشرين زوجةً. رغم كثرتهن لم تكتفي رغبته في ممارسة الجنس مع نساء أخريات.

دائمًا ما تجده على أهبة الاستعداد لفعل ذلك حين تلتقط عيناه صبيةً حديثةً عليه، وعلى بصره يبدأ في ملاحقتها؛ يسأل عنها الجميع، وعن وضعها إن كانت متزوجةً أم ما زالت وحيدةً تنتظر نصيبها، وإذا وجدها متاحةً له يقوم بالزواج منها...

أبناؤه صاروا كثرًا؛ قد بلغ عددهم أكثر من السبعين منهم الشباب والشابات، وأعمارهم هي الأخرى مختلفة فيهم من بلغ أشده وصار في مقتبل الزواج، وآخرون ما زالوا أشبالًا صغارًا لم يتجاوزوا العام بعد، يحمل الجميع اسمه...

وأغرب ما في الأمر تلك الشهرة التي نالتها قريته بمحطته الرئيسية التي تُعْتَبر استراحةً دائمةً لسائقي الشاحنات السفرية، وسوقه الكبير... تلك القرية يديرها ملكًا واحدًا دون منازع، وهو المدعو حاج موسى؛ تتوفر فيها جميع المحلات التجارية بمختلف الأشكال: المطاعم البلدية والتقليدية معًا، الكافيتريات الحديثة والمقاهي التقليدية، وورش الحدادة، وأيضًا ورش خاصة لصيانة السيارات، وغيرها من المشاريع...

أغلب تلك المحلات يديرها أبناؤه الذكور، جميعهم حرفيون، أما الإناث والأطفال وزوجاته فيخرجن صباح كل يوم من القرية على ظهر ثلاثة شاحنات إلى البراري أو الغابات؛ يقضون فيها النهار بطوله ويعودون إلى القرية قبيل غروب الشمس بقليل، وفي معيتهم كل شيء يمكن الاستفادة منه، مثل أوراق شجر الدوم والحطب والعشب الفارع...

يفرغون ما جاءوا به في حرم السوق حيث يوجد مكتب حاج موسى، إنه مكتب تقليدي تم تشييده من خيرات الطبيعة: الحطب وعشب البراري الفارع، لم يكلف نفسه توفير كراسي الجلوس للضيوف أو الطاولة مثل ما نراه في الأماكن الأخرى، إنه رجل تقليدي لا يؤمن بالتعاملات الورقية كالأفنديين...

فقط جاء بعنقريب مصنوع من الحطب ومنسوج بشرائح جلد البقر، لم يجلس عليها أحد غيره طيلة الأعوام التي مضت، لا أحد من أبنائه أو أحفاده تجرأ على فعل ذلك سواء كان والدهم غائبًا أو حاضرًا، لم يتجنب أبناؤه وأحفاده الجلوس على عنقريب والدهم خوفًا منه، وإنما احترامًا له ولرغبته، يعتبرونه آلهةً بعد الله...

وحين قاربت ساعة العصر وحان موعد العودة إلى القرية ولم يبق على غروب الشمس إلا القليل من الوقت حتى يغيب ضوء النهار ويجيء الظلام الهالك؛ أخذوا كل ما استطاعوا جمعه من خيرات تلك الطبيعة الحنونة، وهي الأخرى لم تبخل عليهم في يوم قط؛ قد أعطتهم ما يحتاجونه لتحسين حياتهم ورفع سبل معيشتهم.

إن الرياح قد أسقطت لهم بعض الأشجار المرهقة التي لم تستطع الاستمرار في البقاء بعد الآن، قد جمعوا قدرًا وافرًا من أوراق أشجار الدوم...

في ساعات النهار كانوا يعملون على مجموعتين أو فريقين، كل منهم عليه القيام بعمله الخاص، على الصبيان التسلق فوق قمم أشجار الدوم العملاقة، وبتر أوراقها، والقيام بقطع بعض الأشجار الحية المستطيلة... بالحق إنه الجزء الأكثر صعوبةً، أما المجموعة الثانية المكونة من النساء والفتيات والأطفال فمهمتهم التقاط الحطب اليابس المتساقط على سطح الأرض وبعضًا من الحشائش ذات الطول الفارع...

عمل الجميع بقدر أكبر للوصول إلى الغاية المطلوبة وضعوها داخل صناديق الشاحنات، إحداها ماركة المرسيدس الألمانية والأخريان من فصيلة البيد فورد الإنجليزية. ركبوا جميعًا دون أن يخلفوا أحدًا وراءهم.

بدأت الشاحنات تتحرك ببطء وهي تجاري تلك الطرقات الوعرة، والأكثر سوءًا، تارةً تعلو فوق قمم التلال الصخرية وتارةً أخرى تنخفض نزولًا داخل المجاري المائية العميقة أو ما يُسَمى بالخيران في تلك البقاع، ومنحدرات أكثر خطورةً قد استفرغت رحلة العودة إلى حيث قريتهم مائة وعشرين دقيقة؛ أي ساعتين متواصلتين على عكس رحلة الذهاب، إنها لم تستفرغ ما يزيد عن ستين دقيقةً...

وحين وصلت الشاحنات على ضفاف القرية بدأت تطلق أصوات البوق أو كما يُسَمى البوري، ذاك الصوت الحاد لآذان البشر والمفزع للأغنام، خرج الجميع من منازلهم واتجهوا إلى حيث الساحة العامة، تلك الساحة الواقعة في حرم القرية.

كانت الساحة مكتظةً ومليئةً بالمصنوعات والمشغولات اليدوية: المقاشيش الخاصة بتنظيف الأرض، والبروش الأرضية كالسجاد والأطباق... هناك نوعان أو شكلان من كل منتج...

بالنسبة للبروش يُنْتَج منها نوعان، أحدهما عبارة عن برش شاسع يفترشها الخلق في ساعة حزن أو المناسبات الجامعة للبشر.

أما الأخرى صغيرة الحجم وهي مستديرة الشكل وعليها فتحة صغيرة أشبه بفتحة المرحاض في وسطها، تُصْنَع خصيصًا للنساء المتزوجات يستخدمنه في حفرة الدخان تلك الحفرة السحرية العجيبة والرهيبة التي يتحدث عنها البعض همسًا وجهرًا بقدرتها القوية على امتصاص بعض السوائل التي تظهر في لحظة جماع، تلك اللحظة التي يلتقي فيها الجسدان معًا لحظة الاحتكاك التي تتم بين عضو الرجل مع عضو المرأة...

والمقاشيش هي الأخرى تنتج منها نوعان أحدهما صغير ومستدير الشكل أشبه بحزمة من أوراق الدوم، وأخرى من العشب الفارع، لم يتجاوز حجمها قبضة اليد أو راحة اليد، أما الثانية شكلها كالمثلث كالهرم الفرعوني تمامًا، تضع على رأسها عصيًّا يُطْلَق عليها القناية، وهي أشبه بسيقان قصب السكر؛ تنمو بكثرة في المناطق الاستوائية...

أما الحشائش التي تنمو في البراري والوديان الساحرة يتم استغلالها في صناعة الحواجز التي يُطْلَق عليها الصريف، إنها أحد أهم الأشياء لدى سكان

تلك المناطق، لأنها تستر عوراتهم، تدعم مشروع محافظة جميع المنازل على أسرارها الخاصة... لا بد من وجود سبب خفي في التشابه التي تجده في جميع القرى في تلك الأرجاء...

وحين تجرفك الأقدار وتحط بقدميك على أي قرية تكتشف التشابه المشترك بينها وبين القرى الأخرى، الأسوار الشوكية تحيط بالمنازل بمساحات شاسعة، يتوسطها عدد من القطاطي المستديرة، أسفلها مبني ومشيد بحجارة الصخور الجبلية الطبيعية؛ يبلغ ارتفاعها مائة وستين سنتمترًا من الأرض...

ومن ثم يأتون بمجموعة من الحطب القوي والمستطيل يبلغ طوله متران ونصف متر؛ يغرزونها فوق الحائط الصخري على مسافات متقاربة، لم تستطع البلوغ لمعرفة كمية الحطب التي تم استخدامه للجزء الأعلى...

إنها تختلف من قطية إلى أخرى بسبب اختلاف أحجامها، بعضها كبير وآخر متوسط، وصغير الحجم كالمطبخ؛ يتم ربط الحطب بعد جمعه مع بعضه البعض يستخدمون من بعدها الفروع الهزيلة والطرية التي جاءوا بها من الغابات، وينسجونه على الهيكل المشيد من الحطب حتى يصير كالشبكة العنكبوتية...

ومن ثم يستخدمون العشب الفارع ويقومون بتغليفه من الخارج، حتى تُغَطى تمامًا، وحين ينتهون من لمساتهم الأخيرة يصبح شكلها أكثر جمالًا وتناسقًا، وهي تشير برأسها السهم إلى السماء أشبه بالصاروخ...

إنها تُعَد قصرًا وحصنًا آمنًا للغلابة. نعم؛ إنها تحميهم من قسوة الطبيعة مثل الأمطار الاستوائية الغزيرة، وعواصف الرياح القوية، وتلك العواصف الترابية العابرة في فصل الصيف، أما في فصول الشتاء تقيهم من البرد القارص... كل القرى يتم إنشاؤها بدقة ومهارة فائقة، دائمًا ما يختارون السكن على مقربة من المرتفعات الجبلية وحين تقف أمام كل القرى تجدها أشبه بالحية التي تحاول التسلق إلى حيث قمة الجبل...

5

ما زال توتو كافي في طريقه نحو أسفل الجبل. كان جسمه الثقيل يدفعه بسرعة من فوق الجبل إلى حيث القرية. شق طرقاتها؛ منها المنحدرة ومنها الملتوية، تحيط على طرفيها الأسوار الشوكية الشرسة والمؤذية حين يقترب منها المرء دون استثناء بالغًا كان أم لم يبلغ أشده.

بعد أن وصل توتو كافي إلى منزلهم الواقع في الجانب الشرقي الجنوبي من القرية حينها كانت الشوارع مظلمةً والأضواء بدأت تخرج من داخل المنازل ببطء.

إن الاضواء تُعَد من الأشياء الضرورية لدى سكان تلك المناطق. لا بد من إيقاد النار من أجل إبعاد القناصين والهوام مثل الثعابين الزاحفة والعقارب السامة وغيرها، وبعض الحيوانات المفترسة، وفي فصل الشتاء البارد يستخدمون النار كالمدفأة لتمد أجسامهم بالحرارة...

مضى توتو كافي وهو يشق شوارع القرية حتى وصل إلى منزلهم. دخل إلى قطيته، وتخلص من ملابسه البالية والرطبة بسبب المطر التي تساقط على جسمه في الساعات القليلة الماضية، واستبدلها بملابس مصنوعة من الدمورية، وهي عبارة عن سروالين أحدهما قصير داخلي وآخر طويل يُلْبَس في الخارج، وعراقي قصير...

وبعد تفرغه التقطت أذناه الواسعتان أصوات بوق السيارات الواصلة توًّا إلى محطة القرية. هذا ما يفعلونه باستمرار، وسوف يتحركون بعد

ساعات بعدما ينالون قسطًا من الراحة. سرعان ما قرر توتو كافي اغتنام الفرصة دون تركها...

بسرعة وضع ملابسه داخل شنطة حديدية مرسوم عليها ورود جميلة، كانت تخص والده، لم يخلف وراءه شيئًا حتى ملابسه المبتلة التي ما زال يخر منها الماء أخذها، ووضعها داخل الشنطة، حملها فوق كتفه بسرعة دون إغلاقها جيدًا، وفي لمح البصر وصل إلى المحطة الواقعة في الجنوب الغربي من القرية...

المحطة عبارة عن طريق الشاحنات السفرية تحيط على جانبيها محلات تجارية؛ عبارة عن رواكيب صغيرة وأخرى كبيرة أشبه بأعشاش العصافير. بالحق إنها كأعشاش مليئة بعصافير متنوعة لا تسمع غير أصوات متمازجة تصدر من داخلها حين تقترب منها...

مقاهي تديرها نساء في أواسط أعمارهن وأخريات في مقتبل شبابهن، منهن المتزوجات ومنهن من ما زالت وحيدةً تنتظر رفيق حياتها، أما المطاعم بعضها يشغلها رجال ذكور وأخرى تخص نساءً ساحرات وجميلات؛ دائمًا ما تجدهن متفوقات بعملهن على الرجال، تارةً بخبرتهن في الطبخ وتارةً أخرى بجمالهن وثالثًا برائحتهن الطيبة التي تنبعث من أجسامهن بقوة...

رائحة تحملها الرياح وتنشرها في الهواء بفوضوية؛ فتشب على أنوف الرجال الذين يحبونها حبًّا جمًّا، وحين يشمون تلك الرائحة تغيب عقولهم وتزداد ضربات قلوبهم، وتندفع دمائهم إلى أسفل أجسامهم إلى مكان معلوم...

❁❁❁

6

لمح توتو كافي شاحنتين تحملان على متنها العديد من المشغولات المصنوعة يدويًّا، إحداهما تحمل على متنها المقاشيش بمختلف أنواعها، وأخرى البروش بأشكالها المختلفة...

إنهما كالعادة دائمًا ما تمر تلك الشاحنات بين الحين والآخر على قريتهم، وهي في طريقها إلى الخرطوم، أما اليوم شاحنتان فقط وصلت دون ثالثتها؛ لن يستفرغوا الكثير من الوقت حتى يشدوا رحالهم إنها فقط ساعة قيلولة...

ومنذ الوهلة الأولى عرف توتو كافي تلك الشاحنتين. إنها شاحنات حاج موسى. كان يبدو على وجهه الخوف؛ يراقب بين الحين والآخر الطريق الرئيسي المؤدي إلى قرية حاج موسى، كان قلقًا بسبب تخلف الشاحنة الثالثة التي تحمل على متنها الفحم وحطب الطلح...

وبدأت تجول في رأسه الكثير من الأفكار والتساؤلات: هل سقطت الشاحنة الثالثة داخل وحل ولم تستطع التحرر منه؟ وإذا كانت هذه هي الحقيقة ستكون بالنسبة له كارثةً فظيعةً لا يحتمل نتائجها، يفشل عندها مخطط هروبه، لأن الشاحنات الأخرى لن تغادر دون ثالثتها...

كان متواريًا عن الأنظار خوفًا من أن يراه أحد الموجودين في المحطة أغلبهم من سكان قريته يعرفونه جيدًا. لا يريد أن يعلم أحد بأمر هروبه. إنها مجازفة عظيمة من أجل تحقيق حلمه الذي طال انتظاره...

رغم تلك الاحتياطات التي اتخذها للنجاح إلا أن القدر أراد الإيقاع به حين وجده أحد فتيان حارته يُدْعَى كاكا متلبسًا بالجرم المشهود، وهو يحمل تلك الحقيبة الحديدية فوق كتفه ويمضي بقدميه نحو الشاحنات، كان يكبره سنًّا، ربما بست سنوات أو تزيد، بدأ الشك يسيطر على كاكا، فقرر ألا يتركه يمضي دون معرفة ما يريد القيام به. جرى نحوه واستوقفه وبدأ يسأله قائلًا:

- إلى أين ذاهب أيها الشقي؟

في بادئ الأمر ارتبك توتو كافي، لكنه استرجل، ورد قائلًا:

- إلى أين تحسبني ذاهبًا؟

- حسبتك هاربًا!

ابتسم توتو كافي وهو يهز رأسه تعبيرًا ينفي ما قاله كاكا دون أن ينطق بلسانه، كان همه الأكبر أن يتركه الشاب في حال سبيله والذهاب إلى حيث مشواره الذي كان ذاهبًا من أجله، لكن كاكا كان عنيدًا، وبدأ يوجه إليه العديد من الأسئلة لدرجة أن جسد توتو كافي بدأ يرتعش خوفًا، وبدأ العرق ينساب من جسمه بغزارة، ليس بسبب سخونة الجو أو كتمة الرياح، بالعكس كان الجو لطيفًا وباردًا، رغم ذلك لم يرحمه الشاب كاكا وبدأ يقول له:

- أقسم بالله إنك هارب... لكني لن أتركك تهرب. سأردك إلى والديك.

وحين سمع توتو كافي ما قاله ابن حارته كاكا تذمر، وبدأ يقول لكاكا:

- لست ولي أمري، وليس لك الحق في فعل ذلك، وإنني لست لعبةً بين يديك.

تحرك كاكا نحوه حتى صار على مقربة من توتو كافي، وأمسك يده، وبدأ يستخدم مع توتو كافي القوة محاولًا سحبه إلى المنزل كرهًا دون رضاه، وبدأ توتو كافي هو الآخر يشد يده بقوة محاولًا تحريرها من قبضة الشاب كاكا، وبعد جهد مضنٍ استطاع تحرير يده، وبدأ يهدده ويقول له:

- سوف أفشي سرك وأخبر الجميع بعلاقتك مع أحد زوجات الماك.

وهذه الجملة كانت كفيلةً وكافيةً لزرع الخوف في قلب المدعو كاكا، لأنه لم يكن ولن يكون على استعداد لخوض تلك المعركة الطاحنة مع الماك زعيم وكبير العشيرة صاحب السلطة الأعلى والأقوى في القرية، ومن جهة أخرى مع سكان القرية أيضًا، فتركه بسرعة وهرب موليًا أدباره...

ههه... وأخيرًا قد استطاع توتو كافي التخلص من ذلك المتطفل الذي أراد إعادته إلى والده الذي لن يرحمه حتمًا، سيضربه ضربًا مبرحًا؛ لن يسقط من ذاكرته طيلة حياته. حمل حقيبته الحديدية وتوجه صوب الشاحنات التي كانت تقف صفًا بجوار بعضها في الجانب الآخر من الطريق، وحين وصل وجد ثلاثة شبان جالسين بين الشاحنتين...

اقترب منهم وألقى عليهم التحية. ردوا عليه وطلبوا منه الانضمام إليهم لمشاركتهم وجبة الطعام؛ التي كانت أمامهم. لم يمضي على تجهيزها الكثير من الوقت اعتذر منهم قائلًا: «لا؛ شكرًا جزيلًا»... لكنهم لم يتقبلوا رفضه واعتذاره ذاك، وأصروا عليه حتى جلس وتناول معهم الطعام، ثم وقف على قدميه وخطا خطوتين أحنى جسمه قليلًا وقام بغسل يديه، وعاد مرةً أخرى وجلس في أطراف العنقريب...

العنقريب عبارة عن سرير وله اسم آخر وهو الحبابة لأنها باردة، وبإمكان الرياح المرور عبر فتحاتها بحرية، يتم صناعتها من الحطب المنحوت بمهارة عالية؛ حتى تصير ملساء، يتكون هيكلها من عودين يبلغ طولهما مائةً وتسعين سنتمترًا، مسنوني الأطراف، وعودين آخرين بطول مائة سنتمتر وأربعة أقدام على ارتفاع خمسين سنتمترًا، وعلى رأس كل واحد منهما ثقبان مخلوفان...

يدخلون الأطراف المسنونة داخل الثقوب حتى تصير هيكلًا مربعًا ذا أربعة أرجل، وينسجون عليها حبالًا وهي عبارة عن شرائح من جلد البقر،

وفي بعض الأحيان يستخدمون حبالًا مصنوعةً من أوراق شجر الدوم المتوفرة في البراري...

أغلب سكان تلك المناطق يفضلون استخدام الحباب لدرجة أن كل واحد منهم يمتلك واحدًا خاصًّا به، وحين يجيء وقت الظهيرة تجد كلًّا منهم مستلقيًا فوق عنقريبه الخاص تحت ظل أشجار الهجليج العملاقة. إنهم يحتمون تحت ظلها هربًا من حرارة الشمس الثائرة...

❁❁❁

7

كان توتو كافي يعرفهم جميعًا وهم أيضًا يعرفونه، لكنهم يجهلون أسماء بعضهم البعض. طلب منهم أن يأخذوه معهم إلى الخرطوم، فأخبروه أنهم لن يستطيعوا اتخاذ مثل ذلك القرار، فليس لهم الحق في ذلك. إنهم مساعدون فقط...

مثل تلك القرارات هي من نصيب السائقين، وطلبوا منه أن ينتظر برفقتهم إلى حين مجيء السائقين الذين انتشروا داخل المقاهي بحثًا عن الفتيات الجميلات...

بالحق؛ جميع سائقي الشاحنات السفرية عُرِفوا بإدمانهم العلاقات العابرة، وباتوا مشهورين بذلك... حين يصلون إلى إحدى المحطات في طرقات سفرهم ينتشرون داخل تلك الأوكار التجارية القائمة في المحطة؛ يركنون شاحناتهم ويغيبون عن الأنظار لساعات طويلة، بعضهم يغيب طيلة الليل... بالحق؛ إنهم سفراء الفساد والأمراض المتنقلة جنسيًّا...

❁❁❁

8

عمومًا؛ سنعود بكم مرةً أخرى لكي نقص ما حدث بعدها...

ظل توتو كافي ومعه المساعدون متربصين؛ ينتظرون قدوم السائقين، لكي يشدوا رحالهم إلى الخرطوم. كان الجميع على حالتهم الطبيعية دون تذمر، إلا أن توتو كافي كان في قمة القلق والخوف يتسلل إلى قلبه...

كان يلتفت يمينًا ويسارًا خوفًا أن يأتي إليهم أحد المتطفلين أمثال كاكا؛ الذي حاول رده إلى المنزل حيث والده، ما كان يستطيع النجاة والإفلات منه لو لم يهدده بنشر علاقته الجسدية مع أحد زوجات رجل يهابه الجميع...

قد مر الوقت بسرعة، وصارت الساعة الثانية عشر منتصف الليل. قد عم الهدوء القرية. لا توجد حركة في شوارعها، والمحطة أصبحت فارغةً لا أصوات فيها غير أصوات الكلاب المتوحشة الضالة؛ التي خرجت من مخابئها بحثًا عن بقايا فضلات الطعام التي ألقاها أصحاب المطاعم والكافيتريات في ساعات النهار، وعقب منتصف الليل بقليل وصل سائقو الشاحنات...

جاء كل منهم على حدة. حتمًا إنهم كانوا في أماكن مختلفة؛ وقد قضى كل منهم تلك الفترة برفقة امرأة. بالحق؛ إنهم قد استمتعوا بوقتهم لا شيء ينقصهم غير الواجب. حانت الآن ساعة التحرك. طلبوا من المساعدين تدوير الماكينات لتسخينها. اقترب توتو كافي من أحد السائقين، وهو يقول له:

- لو سمحت؛ هل بإمكاني مرافقتكم إلى الخرطوم؟

– ولم لا؟ إذا كنت ترغب في مرافقتنا... ربما سنحتاج لخدماتك في هذه الطريق الوعرة...

ركبوا جميعًا وتحركت الشاحنتان، إحداهما في الأمام وأخرى تتبعها من الخلف على خط مستقيم، كان توتو كافي جالسًا فوق الحمولة. كانت الشاحنتان تسيران ببطء بسبب سوء الطريق. قضوا الليل بطوله يجارون تلك الطبيعة القاسية. سقطت الشاحنتان العديد من المرات داخل الوحل، وقد كلفهم إخراجها الكثير من الجهد، وفي صباح اليوم الثاني وصلوا إلى منطقة (الدلنج).

أوقفوا الشاحنتين على ضفاف وادٍ ضخم أشبه بالمجرى النيلي، تحيط على جانبيه أشجار النيم العملاقة، وبعض الأشجار الاستوائية الأخرى، وعلى بعد مائة متر من الجانب الشمالي توجد حشود من البشر، وأصوات الكرنج تعلو في الفضاء بألحانه الجميلة...

كان الجو غابرًا جراء الرقص الدؤوب والهجيج المرافق لصوت آلات الكرنج، وعلى بعد بضعة أمتار من الناحية الجنوبية توجد شجرة ضخمة تحتضن تحت ظلها زمرةً من شيوخ المنطقة... إنه المكان الذي يجتمع فيه الجميع ساعة النهار. كانوا يناقشون زراعة الأرض التي لم يبق على قدومها إلا القليل من الأيام. قد حان موعد وضع البذور أو التيراب داخل تلك الأرض الحنونة...

وبدأ الرجال يتناقشون في التشابه المشترك بين القرد والإنسان. اتفق الجميع على أن القرد لا يختلف عن الإنسان، وأن التشابه الذي يربطهم كثير لذلك لا يحق أكله أو تناوله بالمعنى الصحيح، لكن ثمة شخص آخر كان له رأي مغاير، ولم يكن على اتفاق مع البقية، كان قلبه مليئًا بالحقد والكراهية لذلك الحيوان الذي شبهه إخوانه بالإنسان...

كان صامتًا منذ بادئ الأمر، ولم يشاركهم الحديث منذ أن بدأوا يخوضون في تشخيص ذلك الحيوان الذي يُطْلَق عليه القرد بل كان أكثر انزعاجًا حين سمعهم يذكرون اسمه، وبدأ الغضب يظهر على وجهه: يا إلهي؛ ما السبب الذي دعا ذاك الرجل إلى أن يكره ذلك المخلوق بتلك الدرجة المفزعة؟ يبدو أن هناك تجربةً شخصيةً قد عاشها الرجل مع ذلك الحيوان...

قطع حديث الآخرين بسرعة وبدأ يقول لهم:

- أقسم بالله؛ لو وجدته صنع عنقريبه الخاص ونسجه بالحبال وافترشه لكي ينام عليه أو يعقد قرانه على أنثى ليتزوجها لأكلته بعد ذبحه وشوي لحمه...

ضحك زملاؤه وسألوه:

- ما السبب الذي جعلك تكره القرد بتلك الدرجة؟

أجابهم قائلًا:

- لأنه في كل عام أزرع فيه البطيخ والخضر تحت الجبل يقوم بأكلها، وإتلاف ما تبقى منها. قد استمرت قصتنا معًا لمدة خمس سنوات حتى هجرت تلك الأرض نهائيًّا دون زراعتها والانتفاع منها.

وبعد مرور وقت قليل تحركت الشاحنتان واتجهتا نحو مدينة الأبيض مرورًا بمنطقة الدبيبات كانت الرحلة شاقةً على الجميع دون استثناء...

قد قضى السائقان يومين متتاليين ليلًا ونهارًا دون مغادرة مقاعد القيادة. ظلت مؤخراتهم ملتصقةً بكرسي القيادة، ولم تتوقف ماكينات الشاحنتين هي الأخرى؛ ظلت تعمل باستمرار دون راحة...

أما المساعدان ومعهما توتو كافي كانت ملابسهم متسخةً وملوثةً بالوحل الطمي، وأجسامهم الأخرى قد أصابها الإرهاق والتمزق بسبب

ما قاموا به من حفر ودفع لتحرير الشاحنتين اللتين سقطتا داخل الوحل، واحدةً تلوى الأخرى...

وفي صباح اليوم الثالث دخلوا إلى مدينة الأبيض؛ قضوا فيها ما تبقى من النهار في نوم عميق. ناموا مثلما نام أهل الكهف دون الإحساس بالوقت، أو ما يحدث من حولهم، وحين قارب غروب الشمس بقليل استيقظوا من نومهم مذعورين، وأعدوا وجبةً سريعةً، تلك الوجبة التي تُسَمى الكوجة، والتي تُصْنَع من الماء ودقيق الذرة السوداني...

في البادئ يُوضَع الماء على النار حتى الغليان، ويُضَاف إليه الدقيق وتُخْلَط بعصا غليظة بقوة حتى تطيب، وإذا لم تضربها بقوة تخرج نيةً، وتسبب لك إسهالًا ليس من بعده إسهال. عمومًا قاموا بتناولها بعد إعدادها جيدًا، ثم شدوا رحالهم وتحركوا بشاحناتهم نحو الخرطوم...

يبدو أن رحلتهم ستوفر لهم بعض الراحة والأمان للشاحنتين ومن فيها معًا لأن الطريق من مدينة الأبيض إلى العاصمة نظيفة وسليمة؛ تخلو من الشوائب، ليس فيها حفر أو ترس أو وحل طمي...

حتى الشاحنتان شعرت بذلك وارتفعت سرعتها، وبدأت نغمات صوتها تعلو إلى الفضاء، خصوصًا شاحنة البيت فورد بكوزها الجميل، وهي تغني وتزغرد كما يُقَال على لسان سائقيها والعاملين معهم، إنها إحدى القطع التي تُضَاف على الماكينة من أجل الحصول على تلك الأصوات الموسيقية الجميلة، يغيب عندها صوت الماكينة المزعج والكئيب، والذي يجعل رحلتك أكثر قسوةً، ويجعلك كالدرويش...

يقول البعض أن تلك الأصوات تلطف مزاج السائقين، وهي قادرة على إزالة الفتور والهم والغم التي يتعرض لها سائقو الشاحنات السفرية...

بدأ الطريق يبتسم لهم ببراءته وخلوه من المطبات، أملس وناعم على إطارات الشاحنتين، وبدأت الشاحنتان تشق طريقها إلى البندر؛ تلك العاصمة التي حلم بها توتو كافي وبالمجيء إليها منذ نعومة أظافره...

ظل يترقب عامًا بعد عام لكي تتحقق تلك الأمنية، ها هو الآن وصل إلى ضفاف العاصمة التي كان يعتبرها جناحًا في الفردوس الأعلى أو ركنًا من أركانه، وبدأ يتخيل مبانيها الشامخة والشوارع البراقة اللامعة تسير عليها سيارات كثيرة كالنمل، أما نسائها فهن أكثر جمالا... أما بخصوص رغباته الشخصية التي يريد تحقيقها فهي عظيمة. يريد العمل بسرعة لكي يصير من أغنى أغنياء العاصمة...

أيقظه من حلمه أحد المساعدين وأخبره بوصولهم للعاصمة القومية الخرطوم. بدأت نظراته تتجول هنا وهناك يسلط بصره على جميع الأشياء التي يمرون بجوارها: الأبنية الجميلة العملاقة، والشوارع المنتظمة رغم كثرتها، والنساء الكاسيات العاريات؛ بإمكانك أن ترى ما يحلو لك من المناطق المحظورة التي لا يحق للبصر التقاطها...

يا إلهي؛ إنه رأى ما لم يره من قبل في قريته (كيقا جرو) كل ما رآه في الماضي أعضاء سطحية لا تثير الإنسان، ما هو مثير يظل مخفيًّا تحت غطاء القماش الواسع والفضفاض. ها هو الآن كل شيء متاح لبصره...

كانت الشاحنتان تسيران في طرقات مسفلتة تبدو عليها أنها كانت جميلةً وسليمةً من ذي قبل، لكن أصابها التلف والشقوق والكسور من الأطراف، لأنها لم تجد العناية المطلوبة، أُهْمِلت بقصد ممنهج من قبل القائمين بأمر الاهتمام بها...

سارت الشاحنتان وهي تسابق سيارات الملاكي الكثيفة التي استوردها كبار لصوص الدولة، وقفت الشاحنتان في أطراف السوق الشعبي تجاورها منطقة العشش العشوائية التي أُزِيلت مؤخرًا، وتم إقصاء سكانها الأصليين إلى أطراف بقاع العاصمة وجاءوا بسكان آخرين، وصارت مستوطنةً الآن ذات العمارات والفلل...

والله هذا ظلم إنكم فضلتم جنسًا على آخر، شردتم من ليس منكم وجلبتم في بيته كل عشيرتكم، وهناك أمثال كثيرة... طُبِّقت تلك الإستراتيجية في مناطق عديدة في العاصمة منها ديوم بحري والتي تم نقل سكانها إلى العزبة وأطراف الحاج يوسف، وأيضًا ما حدث في أم درمان بالقمايز وأبروف، ومؤخرًا بمنطقة أمبدات. ما يغيظ المرء إنكم استبدلتم ملاكها بملاك آخرين...

❁❁❁

9

عمومًا قد قضى توتو كافي تلك الليلة مع أحفاد وأبناء حاج موسى، وفي صباح اليوم الثاني عقب شروق الشمس بقليل ودعهم جميعًا. حمل حقيبته على يده، ورافقه أحد المساعدين لغرض توصيله، وإرشاده إلى حيث المحطة التي يستقل منها توتو كافي الباص الذي سيأخذه إلى السوق العربي...

وحين وصلوا لم ينتظروا الكثير من الوقت، وجدوا أمامهم باصات مصطفة على خط واحد كانت تلك الباصات قديمةً قد خدمت الكثير والكثير من الوقت، رغم ذلك ما زالت تؤدي الخدمة دون تقصير، وهي تعرج ببطء في الشارع الذي يربط بين السوق الشعبي وضاحية جبرة...

كانت نوافذها تخلو من الزجاج، ومقاعدها هي الأخرى ممزقة وأصوات الماكينات كانت حادةً وأكثر إزعاجًا وهي تدفع عبر عوادمها الدخان الكثيف. جميع سائقي تلك الباصات قد أصابتهم الشيخوخة المبكرة بسبب سوء حالة الباصات بأعطالها المتكررة، كانت حالتهم مزريةً...

ركب توتو كافي في أحد الباصات، ووقف على قدميه بجوار سائق الباص كان رجلًا في الأربعينات من عمره، لكن ملامحه تبديه كأنه في السبعين... كانت ملابسه متسخةً وملوثةً بشحوم وزيوت المحركات، وتنبعث منه رائحة الجازلين المزعجة؛ وهي تخترق حاسة توتو كافي؛ الذي لم يعتد عليها... كان تحت تأثير الدهشة وهو يشاهد الصراع الذي كان يعيشه السائق مع ذلك الباص المرتحل...

وقف الباص في المحطة الأخيرة تقع بين أبراج منتصبة إلى الأعلى وكأنها تحاول التسلق إلى قمة السماء أو المساس به. نزل توتو كافي من الباص بعد نزول جميع الركاب. وضع قدمه اليمني على الأرض، وتبعها باليسرى وفي يده شنطة الحديد الخاصة بوالده، أخذها دون علم صاحبها...

افتقدته أسرته وأهل بيته في صباح اليوم الثاني من هروبه. كانت والدته قلقةً على مصير ابنها الذي اختفى عن الأنظار، وبدأت والدته تتجول في القرية؛ تسأل الجميع عن ابنها توتو كافي. كان رد الجميع بالنفي، لا أحد منهم رأى ابنها توتو كافي، أو التقى به في الأربعة والعشرين ساعة الماضية...

ظلت تجوب شوارع القرية وتتنقل من دار إلى أخرى؛ تسأل عن ابنها المختفي، خصوصًا المنازل التي تخص أنداده أو زملاءه في ساعة اللهو؛ الذين يقضي معهم ساعات الفراغ لكنها لم تجد من يخفف عليها القلق ولم تجد منهم الإجابة الشافية أو من يرفع عنها الضغوطات... الجميع أكدوا لها أنهم لم يروه منذ وقت منذ الليلة الماضية، إلا أن الشوق قد دفع بها للاستمرار في البحث حتى التقت بالصدفة الشاب كاكا...

كاكا الذي قابله في محطة السيارات، وحاول إعادته إلى المنزل، لكنه تعرض لتهديد جبار من قبل توتو، ولم يستطع تحمل آثارها المترتبة وعواقبها الوخيمة التي ستواجهه إذا أفشى سره، تركه كرهًا دون رغبته، وخوفًا على مصيره...

وحين بدأت تسأله كان ينظر إلى عينيها بدقة؛ رأى الدموع تسيل من عينيها إلى خديها بغزارة، وعلى وجهها الكثير من القلق بسبب شوقها لابنها، فأراد أن يخفف عنها، وقال لها:

- رأيته الليلة الماضية في محطة السيارات وهو يحاول الهروب وفي معيته شنطة حديدية...

- لماذا لم تأت إلينا لكي تخبرنا في تلك الساعة، أو كان بإمكانك الإمساك به ورده إلى المنزل...

لقد كذب عليها كاكا وقال لها أن الوقت كان متأخرًا بعد منتصف الليل...

عادت والدته إلى المنزل لكي تخبر زوجها الحاج كافي بهروب ابنهما، لكن زوجها قد علم بهروب ابنه بعدما فقد حقيبته الحديدية، بحث من بعدها على ملابسه، ولم يجدها وحين دخلت عليه وهي تبكي بشدة لدرجة أنها لم تستطع إخباره، فاستوعب ما تريد قوله، لكنها كانت عاجزةً. تقدم نحوها وأخذها في حضنه وهو يقول لها:

- هوني على نفسك إنني علمت بهروبه...

ظلت تردد:

- ابني الوحيد؛ لا أعرف أين هو الآن؟ هل هو ميت؟ أم على قيد الحياة؟

رد عليها زوجها قائلًا:

- استهدي بالله يا امرأة، إنه هرب إلى الخرطوم...

لا أحد أخبره بذلك، لكنه كان يسمع ابنه يتحدث عن الخرطوم بين الحين والآخر؛ يعبر عن رغبته الشديدة في السفر إلى الخرطوم... كان يتجاهله صمتًا لأنه ما كان يرغب في التفريط في ابنه الوحيد، وإن الخالق لم يرزقهم بطفل غيره. إنه ابنهم الوحيد، وها هو قد تركهم، وهرب إلى الخرطوم وتركهم على جمر من الشوق تهبه الرياح...

أخيرًا قد تحققت أمنيته وصل إلى البندر ،وهو الآن في قلبها يشق الزحام المفزع. ازدحام بشري لم يره من قبل. كان غريبًا عليه وهو غريب عليه، وكل شيء أصبح جديدًا بالنسبة لحياته؛ يسير البشر راجلين أفواجًا أفواجًا

والسيارات هي الأخرى؛ يقارب عددها البشر، والأبنية بعضها ممتد إلى السماء بطولها الشامخ، وأخرى لم يتجاوز طولها تلك القطاطي الموجودة في قريته (كيقا جرو)...

كانت الأجواء ساخنةً وملهبةً. إنها شمس الصيف الحارة، لأن الخريف لم يأتي إلى سماء العاصمة بعد، وربما لن يأتي طيلة العام. ما زالت هائمةً سحبه بين البوادي والسهول والوديان والغابات الاستوائية بجبالها العملاقة، وهي تقذفها بالماء الغزير بين الحين والآخر. كان جسمه يصب عرقًا...

خرج من وسط الزحام، وجلس تحت بناية تتكون من طابقين فقط وتحتها بدرون أرضي. كانت البناية مهجورةً، ومهملةً يطلق عليها الجميع عمارة الشماسة، وهي تعني أطفال السوق المشردين، منهم من خرج هاربًا بسبب سوء تعامل والديه، وآخرون يتامى لم يجدوا من يعولهم، وآخرون لديهم أسباب حزينة دفعتهم إلى التشرد، والقائمة طويلة في هذا الشأن...

❁❁❁

10

عذرًا أيها القارئ العزيز؛ أقدم لكم توتو كافي الشخصية الرئيسية في هذه الرواية، إنني أمثل دور الراوي امتثالًا لرغبته التي تنص على أن محور شخصيتي في أن أكون كاتبًا وهو الذي يقص عليكم قصته، وجعلني أقسم له أن أنقل لكم كل ما يذكره دون مرواغة أو تفريط مبالغ فيه...

وأقسم هو الآخر أن يكون سيفًا حادًّا قاطعًا للتاريخ المزيف، وذاكرًا الخلل الاجتماعي دون تستر نابش قبر الحقيقة؛ التي دُفِنت منذ عهد الأسلاف كاشفًا الأفعال المزرية الخفية التي ارتكبها البعض، واستنكرتها الآن...

عذرًا إنني أقسمت وأعطيت ولائي للحقيقة، لا للخلق...

بدأ توتو كافي يسرد لنا قصته الفاجعة المليئة بالمآسي؛ التي عاشها في حياته، لم يطرق أحداث طفولته التي قضاها في قريته (كيقا جرو)؛ التي هرب منها منذ خمسة وعشرين عامًا تقريبًا، قد مضى عليه الكثير من الوقت، لم يكن على ذكرى بتلك الأحداث بدقة، غابت عن ذاكرته التي امتلأت فيما بعد بكم هائل من الأحداث المتنوعة ذات الغرابة المذهلة...

أصبح كالصقر الثامل، وتجول في البراري والسهول والصحراء وغيرها من المناطق المختلفة مناخيًّا. ها هو الآن يقطن في مكب النفايات الواقعة على ضفاف مدينة أم درمان... بدأ يحكي لي قصته مستعينًا بذاكرته، واختار أن تكون بداية حكايته من اليوم الأول الذي وصل فيه إلى الخرطوم، لكني كنت متفائلًا لذلك ترجيته كي لا ينسى أي مرحلة من مراحل قصته...

ابتسم ووضع السيجارة في فمه، وقام بإشعالها بعود كبريت، سحب منها أنفاسًا بشغف بطريقة متكررة، وبدأ الدخان ينبعث إلى الخارج عبر فتحات أنفه المعقوصة، وأخرى عبر فمه وهو يدفعها إلى الخارج من خلال دفع شفتيه المكتظتين إلى الأمام...

تحدث بصوته ذا الخشونة، وبدأ يسرد تجربته المريرة قائلًا:

جلست حائرًا تحت ظل عمارة الشماسة لا أعرف إلى أين أتجه... ليس لي أقرباء في العاصمة، لم أبرح مكاني، وقضيت ما تبقى من ساعات النهار وأنا أشاهد الجميع بدهشة واستغراب. كنت أسمع بين الحين والآخر صوت صراخ معدتي بسبب الجوع، كانت خاويةً، وفي حاجة ماسة للطعام، إلا أنني لم أكن أملك بحوزتي المال لأشتري به الطعام لسد رمقي، وجعل معدتي تصمد. لم يكن بيدي الحيلة لتوفير بعض الطعام.

مكثت في ذلك المكان إلى حين غروب الشمس، وأنا جالس بمؤخرتي على الحقيبة الحديدية. كنت اتخذتها كرسيًّا، ومن جهة أخرى حجرتها تحتي خوفًا من اللصوص والشفوت ، وبعد مرور وقت قليل بدأ الهدوء يسود الشوارع. أغلق التجار محلاتهم، وعادوا إلى منازلهم حيث أبناؤهم وزوجاتهم؛ ليرتاحوا من العمل الشاق الذي قاموا به في ساعات النهار ما بين بيع وشراء، وإقناع الزبائن العنيدة بالقسم...

يعتمد أغلبهم على الحلف الكاذب حتى يبيع حاجته. قلة منهم المستقيمون، وأكثرهم قاموا بتشييد إمبراطوريتهم التجارية عبر الكذب والغش والنفاق، وملأوا خزائنهم بأموال طائلة لا يرضاها الله؛ حاسبين أنهم على حق، لكنهم يعيشون على باطل مستبان...

عمومًا دعونا نستمع إلى ما يقوله توتو كافي...

كان الموقع يفوح برائحة نتنة. جبال من النفايات تحوم داخلها زمرة من الشباب بحثًا عن مخلفات، ربما ينتفعون من ورائها لم تكن رغبتهم في الحصول على أشياء نفيسة ذات قيمة، في أغلب الأحوال يحصلون على بقايا من الأطعمة داخل الأكياس البلاستيكية مخلوطة بإهمال وإسراف؛ تنبعث منها رائحة الصنان الكريهة التي لا تُطَاق...

لكن توتو كافي وبعض رفقائه يحصلون على بعض الأشياء القيمة بين الحين والآخر، تحديدًا الذين يعملون في السيارات التي تعمل في شوارع الحارات وتأتي بالنفايات إلى حيث مكب الأوساخ الواقعة على بعد مسافة من الحارات السكنية، مثل الخواتم والسلاسل؛ بعضها من الذهب، وأخرى من الفضة، حتى بقايا الأطعمة التي يحصلون عليها تكون حديثة الطهي؛ لم يتجاوز على إنتاجها الكثير من الوقت...

على عكس المجموعة الأخرى التي تعمل في قلعة النفايات ليل نهار، وهي تفرز جميع النفايات؛ ينبشونها بأظافرهم شبرًا شبرًا حتى يستخرجوا منها بضعة أشياء مثل زجاجات ماء الصحة البلاستيكية الفارغة، وبقايا من الحديد والأسلاك الكهربائية التي تحوي بباطنها خطوطًا من أسلاك النحاس...

إضافة إلى ذلك يجدون الكثير من الأواني المنزلية؛ ولا فرق بينها سواء كانت مصنوعةً من الألمونيوم أو البلاستيك أو الأستيرلس، جميعها تُبَاع في سوق الخردة أو ما يُعْرَف بسوق الرابش. يجنون منها بعض الدراهم التي توفر لهم حاجتهم الخاصة...

وأيضًا هناك بعض الأشياء التي يعثرون عليها بكثرة، إلا أنهم يحتفظون بها دون بيعها مثل الأحذية القديمة والملابس البالية المستعملة بجميع أنواعها؛ يحتفظون بها من أجل ارتدائها، يكسون بها أجسامهم العارية، ولا

يبالون بارتداء أي كساء يعثرون عليه؛ حتى لو كانت ملابس داخليةً متسخةً، يرتدونها هي الأخرى دون أن ترتعش أجسامهم...

وقتها كان توتو كافي يخبرني عن قصته الغامضة التي لا يعلمها غيره إلا خالقه الذي أوجده في الدنيا...

كنت معه في مسكنه الذي وصفه بالفيلة، كان حجمه صغيرًا أشبه بعش العصفور بعشبه القليل وهيكله الحطبي، كان مشيدًا فوق جبل من النفايات بطريقة عشوائية دون ترتيب، كانت تنام تحت ظله زمرة من الكلاب الضالة التي اعتادت عليه مؤخرًا... كنا نسمع نهماتها ونحن داخل العش...

كان توتو كافي يطل بنظراته إلى المجموعة التي كانت تعمل تحت الأنقاض من أجل إيجاد رزقها. كانت أوضاعهم مزريةً، ووجوههم مغبرةً ومحبطةً من الحياة؛ تنبعث من أجسامهم روائح غريبة لا يستطيع المرء تحديد مصدرها، وهذا هو الأمر الذي دفعني إلى سؤاله لمعرفة مصدر تلك الروائح...

ابتسم ورد علي قائلًا:

- إنها من مصادر البترول البشري...

رغم قوة رده الغامض سألته مرةً أخرى:

- ماذا تقصد؟

- إنها رائحة السيلسيون؛ تلك المادة السائلة واللاصقة تُسْتَخدم لرقع ثقوب أنابيب الإطارات، وحين تقسوا علينا الظروف ولا يتوفر لدينا المال لشرائه نقوم بتناول البنزين كبديل، نغطي بها حاجتنا في السيلسيون...

- هل تشربونه كالخمر مثلًا؟

- لا؛ لا، نقوم بوضعه على قطعة قماش قطني، ونقوم بجمعها حتى تصير صغيرةً لا يتجاوز حجمها سعة الفم، ثم نقوم بوضعها داخل الفم، ونسحب

منها الأنفاس بتكرار حتى نشعر بانتعاش، وتصير أجسامنا أكثر استرخاءً... الخ. كم هي ضرورية في حياتنا!

– هل أنت من الذين يتناولون تلك المادة؟

ابتسم وهو ينظر إلي ببصره، تمايل بجسمه وبدأ يتحسس جيوبه بحثًا عن شيء. كنت أتابعه بدقة. فجأةً؛ أخرج صباعًا صغيرًا ومعها قطعة من قماش الدبلان، كانت باليةً ورطبةً، يبدو عليها أنها قد اسْتُخْدِمت قبل قليل، لم يمضي عليها وقت من الزمان...

وضعها على راحة يده اليسرى، وأخذ الصباع بيمناه بعدما قام بفتح غطائه الصغير، وجعله على مقربة من ذاك القماش الصغير الأشبه بالمنديل. ضغط على الصباع بقوة بأصابعه الخمسة، وإذا بالسائل خرج من داخل الصباع كالدودة الحية، واستراحت فوق القماش...

أعاد الصباع إلى جيبه بعد إغلاقها ببطء، وحذر بقوله إنها من أهم الأشياء التي يجب الحفاظ عليها... هذا ما قاله توتو كافي... إن حياته تتوقف إذا لم يجدها...

جمع أطراف القماش مع بعضها البعض حتى أصبحت مستديرةً كالبيضة، حملها بيده اليمنى إلى حيث فمه الذي كان مستعدًا من قبل... منذ أن بدأ إعدادها وهو متربص ومترقب بلهفة شديدة...

يا إلهي كم يلزمه من الوقت حتى يتم تجهيزها؟ ومتى سيحين وقت الانتعاش؟ لكن لسبب ما لم ينتظر كثيرًا. تباعدت الشفتان عن بعضهما البعض مخلفةً وراءهما فوهةً واسعةً. استمرت يده في المضي قدمًا وهي تحمل قطعة القماش بأطراف أصابعه حتى سكنت داخل الفوهة. ثم عادت شفتاه الاثنتان مرةً أخرى إلى حيث موضعها السابق بسرعة.

بدأت رئتاه تسحب أنفاسًا بشغف من تلك القماشة وإذا بتلك المادة تمر عبر رئتيه وتجد طريقها إلى حيث تهوى... إلى حيث المخيخ. وهذا ما حصل لصديقي توتو كافي بعد تناوله ذاك السائل الكيماوي، وفي لمح البصر تغيرت ملامحه...

أصبحت عيناه جميلتين ناعستين، واسترخت جفونه، وشفتاه صارتا تضيء لمعانًا أشبه بشفتي امرأة أعدت عدتها لكي تمارس الجنس الجامح، وحين دققت ببصري رأيت شفتيه متباعدتين ونافرتين عن بعضهما البعض، صار كل منهما على حدة: الجانب الأعلى أصبح لصيقًا بأنفه، أما الآخر كان مرخيًّا ومتدليًّا تمامًا وكأنه تعرض لقبل عبثية من شخص شقي، لكن في حقيقة الأمر لم يحدث شيء من هذا القبيل...

كل ما حصل أنه أراد التلاعب بتلك المادة الكيماوية، لكنها هي التي تلاعبت به وحبسته تحت سيطرتها. ها هو الآن في حالة لا يُحْسَد عليها. مد قدميه وجسده المخدر، وعقله قد سطل تمامًا. حينها قد أصابني الحزن بسبب حظي العاثر، وأنني لن أتمكن من الحصول على بقية القصة...

وبدأت أهب نفسي استعدادًا للمغادرة. إن الحظ لم يكن حليفي اليوم أملًا في العودة مرةً أخرى، ربما غدًا أو بعد غد أو في الأيام التي تليها، رفعت مؤخرتي من فوق الجردل، وبدأت أنفض بيدي الغبار وبقايا من الأوساخ التي وجدت طريقها إلى ملابسي، طلبت منه إذنًا للمغادرة، فرفض وطلب مني البقاء.

أخبرني بأنه يريد الذهاب إلى البار ليأتي بالخمر، وقال لي أنه في أمس الحاجة لشرب قليل منه... في الحقيقة اعترتني الحيرة وبت أسأل نفسي: كيف يمكنه شرب الخمر وهو في هذه الحالة؟ وثانيًا أين البار الذي يريد الذهاب إليه لجلب بعض الخمر منها؟

لم أتحمل كثيرًا حتى سألته:

- هل يوجد بار هنا؟

- نعم؛ يا صديقي، يوجد هنا بار أبو نجمة تمتلكه إحدى الفداديات تُدْعَى حنان عفش تعني ابصلب بلغة الشباب، ومعناه المعروف امرأة ذات خصر واسع ومؤخرة ضخمة.

- أين يقع هذا البار في هذه المستوطنة؟ هل هو بعيد من هذه القلعة؟

- (ضحك)... لا؛ لا، إنه قريب من هنا...

رفع يده وبدأ يشير إلى الضفة الأخرى؛ الجانب الجنوبي من مكب النفايات.

- هل ترى تلك العشتين أي الراكوبتين القائمتين فوق ذاك التل الرملي؟

- نعم.

- ذاك هو البار.

خرج مسرعًا واتجه إلى حيث خمارة حنان. سوف نحكي لكم قصته مع الملقبة بعفش في الصفحات القادمة. تركني وحيدًا داخل عشته، وأنا أصارع رغبتي التي بدأت تجول في خاطري في التجوال في المستوطنة، لكني اكتشفت أن الأمر ليس بالضرورة، لن أحتاج فعل ذلك، قد توفر أمامي كل ما أحتاجه من خلال اللوحات والرسومات اليدوية التي قام بها توتو كافي...

كانت معلقةً داخل عشته، فقد استطاع رسم كل شيء موجود في تلك المستوطنة: جبال من النفايات تشقها شوارع ضيقة بطريقة عشوائية، والسكنات القائمة على أطراف المكب، دون نسيان عشته؛ فقد رسمها، ورسم نفسه جالسًا أمام المدخل كما فعل مثلها مع بقية الرواكيب وأصحابها،

والكلاب أيضًا رسمها بألوانها المختلفة. رسمها صورةً طبق الأصل، وأيضًا العربات المحلية التي تجلب النفايات إلى المستوطنة...

لكن كانت هناك لوحتان قد علقهما بعيدًا عن بقية اللوحات تجعلك تحس بأن تلك اللوحتين يفضلهما عن الأخريات... إنهما ذاتا قيمة خاصة، كما أنهما كانتا مختلفتين عن اللوحات الأخرى. كان الرسمان عبارةً عن صورتين لامرأتين...

إحداهن صبية لم تتجاوز سن الخامسة عشرة عامًا، أما الأخرى يبدو عليها أنها قد بلغت ما فوق الثلاثين عامًا، كان جسمها مليئًا ومكتظًّا ومؤخرتها كبيرةً تقف على جنبها الأيسر، أما الصبية كان لها جمال براق وقوامها إنجليزي...

وحين تأملت في الرسمين بدأت أشك، بل أصبحت متأكدًا باليقين بأن المرأة صاحبة المؤخرة هي حنان عقش، أما الصبية فلم أعرفها... دعوني أسأله عن تلك الصبية بعد مجيئه...

عمومًا لم تمض على مغادرته ساعتان من الزمن حتى سمعت الكلاب بدأت تتحرك، وهي تصدر أصواتًا ليست بنباح، وبدأت تجري مسرعةً نحو صاحبها توتو كافي وهي تهز ذيولها وتبصبص بصوتها، التفوا حوله بطريقة دائرية وبدؤوا يحرجلون معه، منها من كانت تتقافز، وأخرى تشمشم أرجله...

دخل إلي وفي معيته زجاجتان من الخمر من البلاستيك بحجم نصف لتر. جلس على الأرض بمؤخرته. فتح إحدى الزجاجتين، وأخذ يشرب منها على مهل. لم أتركه على حاله، ولم أمهله الفرصة حتى يستمتع بلحظة شربه، وسألته:

- من هما صاحبتا الرسمين؟

- (وكما توقعت) هذه حنان عفش، (وأشار إلى الأخرى) هذه خطيبتي السابقة والساحرة ليزا؛ البنت التي أحببتها دون سواها.

- أين هي الآن؟

أخذ رشفةً من الزجاجة وأغمض عينيه برهةً من الوقت وفتحهما مرةً أخرى. أطلق آهات، وبدأ يخبرني أنها ما عادت موجودةً في حياته.

- لقد أخذها مني صاحب النصيب إلى مدينة نيالا. لا أعلم إن كانت ميتةً أم حيةً.

وضع يده على صدره تحديدًا في موضع قلبه، وصرخ بصوت عالٍ:

- إنني أشتاق إليك يا روحي...

من الواضح أن الموضوع بدأ يسلك منعطفًا آخر. ربما سوف تكون شائقًا... إنها فرصة متاحة لا بد من استقلالها، وبعد صمت أكمل حديثه...

- إن قدري المشؤوم هو الذي جاء بي إلى الخرطوم... ذهبت إلى ركن ظليل. وضعت حقيبتي الحديدية تحت حجري، وبدأت أتابع بنظراتي الازدحام. كان الجميع يسير بسرعة، بعضهم يسير وحيدًا وآخرون أزواجًا أزواجًا.

تذكرت حينها مسير النمل وهو يسير أفواجًا أفواجًا، فقط الخلاف بين سكان المدن وكائنات النمل أن النمل يعمل عملًا جماعيًّا على عكس سكان العواصم يعملون بطريقة فردية. كل على حدة.

عمومًا؛ لقد قضيت النهار وأنا جالس في ذاك المكان، وعيوني قد أصابها التعب بسبب كثرة النظر للمارين: اللصوص وضاربي الجيوب، والسفاحين والمحتالين والقتلة المأجورين، والمخبرين وقطاع الطرق، وغيرهم... والأماكن التجارية والمباني العملاقة، والسيارات الكثيرة التي كانت تسير في الطرقات دون توقف...

وبعد غروب الشمس بدأ الظلام يأخذ موقعه تدريجيًّا، وبدأت الحركة تقل رويدًا رويدًا. فجأةً؛ رأيت مجموعةً من الشباب وفي رفقتهم فتيات

قادمين من الجانب الشمالي في ممر البرندات، تلك المساحة الأمامية التابعة للمحلات التجارية...

كانت أصواتهم عاليةً وصاخبةً، وحين أصبحوا على مقربة رأيت في يدي بعض منهم أكياسًا سوداء مليئة بشيء، ما أما الآخرون كانوا حاملين فوق أكتافهم قطعًا كبيرةً من الكراتين؛ افترشوها على الأرض بترتيب... جلسوا جميعًا بشكل دائري، وقاموا بفتح تلك الأكياس، وبدأوا يلتهمون الطعام بطريقة فوضوية...

تلك الأكياس كانت تحوي داخلها خلطةً من الأطعمة المتنوعة؛ يُطْلق عليها الكرتا، وهي عبارة عن بقايا وفضلات من المأكولات جاؤوا بها من المطاعم والكافيتريات؛ يحصلون على بعضها بعد دفع ثمنها...

وهذا الدفع يمكن أن يتم بطريقتين: الأولى عبر المال، والثانية عبر تقديم خدمة معينة كإخراج جميع الأوساخ أو كما يُطْلَق عليها النفايات من داخل المطعم إلى حيث البرميل الرئيسي الخاص بالنفايات...

من النادر جدًّا الحصول على تلك المخلفات المكونة من بقايا الأطعمة دون دفع ثمنها، بالحق إنها طيبة وأكثر دسامةً، وبدأت رائحته تمارس سحرها وهي تنتشر هنا وهناك في دنيا الرياح، تلك الرائحة الجميلة والزكية تفتح شهية الإنسان...

وقتها كنت تحت سطوة الجوع، وبدأ جسمي يرتعش، ومعدتي هي الأخرى كانت تصدر ذاك الصوت الكئيب، وصار جسمي يخر عرقًا بغزارة. فجأةً؛ رأيت إحدى الفتيات تمضي نحوي حاملةً بيدها كيسًا، وبدأ أصحابها يطلبون منها العودة، تجاهلتهم واستمرت في مسيرتها حتى وقفت على مقربة مني، وقالت: «مرحبًا»...

وجلست بجواري، وفتحت ذاك الكيس الزاخر بخيراته. رمقتني بنظرة وعلى شفتيها ابتسامة؛ ما زلت أذكرها جيدًا، وقالت لي من بعدها: «مد يدك، وكل معي هذا الطعام، يبدو عليك أنك لم تتناول شيئًا منذ الصباح»...

لم أتردد في تلك اللحظة، وبدأت آكل معها الطعام بطريقة جنونية إنها كانت مزيجًا من الأطعمة: العظام والعدس وأحشاء الضأن؛ التي يُطْلَق عليها الكمونية والخطارات والأرز وما إلى ذلك...

بالحق؛ كان طعمها شهيًّا، وحين فرغنا من تناول الطعام سألتني: «ما اسمك؟ ومن أي بلد جئت؟»... أخبرتها عن اسمي وموطني كما أنني بالغت قليلًا، وأخبرتها بصراحة بأني جئت إلى الخرطوم هاربًا من أسرتي، ضحكت وقالت لي من بعدها:

- هل ترى أصدقائي؟

- نعم.

- جميعهم هاربون من ذويهم، حتى أنا التي تراني أمامك؛ غادرت المنزل دون عودة...

وحين سمعت ما قالته تلك الفتاة اطمأن قلبي وعقلي معًا، قبل قليل كنت أحسب نفسي أنني الوحيد الهارب من أهله وذويه، وأكثر ما كان يقلقني أني غريب ووحيد في هذه المدينة الغريبة؛ ليس لي فيها أهل أو أقرباء، كما أنني لا أعلم شيئًا عنها؛ كيف يعيش الناس؟ وأين يقطنون؟

ولكن بعدما أخبرتني تلك الفتاة قصتها تلاشى الخوف والقلق اللذين كانا يسيطران على قلبي وعقلي، وأيضًا أخبرتني بأنها تُدْعَى ليزا؛ وُلِدَت بولاية الجزيرة بودمدني، كما أخبرتني من بعدها قصتها الكاملة، وسبب هروبها قائلةً:

- لقد تُوُفِّيت والدتي وأنا في السادسة من عمري؛ كنت وحيدةً لدى والدي، ليس لي أخ أو أخت، كان والدي يعمل في تجارة الخضروات تحديدًا بالسوق المركزي للخضر، وحين بلغت العام السابع أخذني والدي إلى المدرسة، وقام بتسجيلي وبعد عدة أيام أحضر لي الزي المدرسي الموحد...

فرحت كثيرًا وبدأت أتابع دراستي دون نشاز أو تذمر على عكس ما كان يفعله زملائي؛ الذين كانوا يتهربون من المدرسة باستمرار، حتى قامت إدارة المدرسة بإخطار ذويهم بغيابهم الدائم...

بدأت الأسر تراقب أبناءها عن كثب... رغم التمرد الذي كان قائمًا من قبل زملائي وزميلاتي كنت أحضر إلى المدرسة مبكرًا طيلة أيام الدراسة، ولم أغب يومًا واحدًا، وكانت إدارة المدرسة على سعادة بذلك، وصار بعض الأساتذة يضربون بي المثل حين يغيب أحد التلاميذ دون سبب، أو حين يتخلف أحدهم في إنجاز فروضه المنزلية...

قضيت العام الأول دون عائق، وحين جاءت فترة الامتحانات درست بنشاط وحيوية... كنت أقضي ثلث الليل في مراجعة دروسي حتى حانت اللحظة الأخيرة لحصد ثمار الجهود. عملت في الامتحانات بتركيز، وعقب فترة جاءت النتائج الأخيرة معلنةً نجاحي وتفوقي على جميع زملائي. كنت الأولى في الصف، وفرح بذلك والدي كثيرًا، وأقام فرحًا ضخمًا بمناسبة نجاحي...

يومها التقى والدي بأرملة تُدْعَى زنوبة. امرأة جميلة الوجه وقبيحة القلب والعقل والروح معًا. امرأة ذات وجهين؛ تُوُفِّي زوجها في الحرب، وقد مضى على رحيله خمسة أعوام، وظلت هي وحيدةً؛ لم يتقدم أحد لطلب يدها للزواج رغم أنها تمتلك جمالًا جاذبًا للجنس الآخر.

كانت امرأةً ذات جمال وحين رآها أبي في ساحة الفرح فرح كثيرًا، وجُنَّ جنونه، وأقسم على نفسه أن يتزوج الست زنوبة، وظل يحوم من حولها دون

الابتعاد عنها إلى حين انتهاء الفرح. لم يكن يعلم بأني كنت له بالمرصاد؛ أراقبه باستمرار من الوهلة الأولى حين رأيته يتجول ويراقبها باهتمام...

عرفت أنه وقع في حبها إلا أنني قررت تركه بحرية دون مضايقته...

وفي صباح اليوم الثاني كنا معًا كالعادة نشرب شاي الصباح بدأ يخبرني بأنه يرغب في الزواج مرةً أخرى، ورغم أن الأمر كان طبيعيًّا بالنسبة لي كان وجهه يحمر خجلًا حين بدأ يصارحني برغبته في الزواج...

ضحكت وقلت له:

- ما بك يا أبي؟ أراك خجولًا وأنت تخبرني بهذا الخبر السعيد... كم أنني سعيدة ومحظوظة، أخيرًا ستكون لي أم، وصدر دافئ يعوضني حرماني من حنان الأم...

فرح كثيرًا بعد سماعه قراري، ورأيته في قمة السعادة منذ زمن بعيد لم أره بتلك السعادة. دائمًا ما كنت أراه حزينًا رغم أنني كنت على علم ومعرفة مسبقة بالمرأة التي اختارها للزواج، إلا أنني رحت أسأله:

- من هي تلك المرأة المحظوظة التي اخترتها؟

تهرب من سؤالي وبدأ يقول لي:

- إنها امرأة طيبة ذات حسن وجمال، وأخلاقها جميلة، سوف تتعرفين عليها في القريب العاجل...

ويومها تغيب عن العمل تمامًا. خرج من المنزل بعد تناوله وجبة الفطار، واتجه إلى منزل أحد أصدقائه؛ يُدْعَى علي. كانا صديقين منذ طفولتهما، وأيضًا زملاء في العمل...

لا أحد يغادر إلى العمل دون الآخر، ومحليهما هما الآخرين بجوار بعض، يسامران بعضهما البعض طيلة ساعات النهار، يتشاركان المأكل

والمشرب معًا، وحين يقارب غروب الشمس يركبان دراجتيهما الهوائية ويعودان إلى منزليهما... لم يفرقهما شيء إلا ساعات النوم...

عمومًا؛ أخبر صديقه علي برغبته في الزواج من زنوبة، وسرعان ما شجعه رفيقه علي على أمر زواجه قائلًا:

- إذًا؛ ماذا ننتظر دعنا نذهب إلى والدها، ونطلب منه يد ابنته زنوبة...

انتفضا وخرجا بسرعة دون إضاعة الوقت، وتوجها إلى منزل عائلة زنوبة. استقبلتهما الأسرة بحفاوة، أجلسوهما وأكرموهما بعصير الليمون، ومن بعدها بالشاي؛ قد أحضرته زنوبة بنفسها، وبعد مضي وقت من التسامر والتآنس قرر علي طرق الموضوع الذي جاؤوا من أجله، وبدأ يقول لوالد زنوبة:

- عمي؛ لقد جئنا لأمر هام وضروري.

- امض يا ولدي علي، واطلب ما جئت من أجله...

ألقى علي نظرةً عابرةً على صديقه، واستقرت عيناه على والد زنوبة وهو يقول له:

- جئنا نطلب يد ابنتك زنوبة للزواج من صديقي فرح...

بالحق كان اسمه يعني الكثير مثلما قال البعض؛ اسم على مسمى. كان والدي دائم الابتسامة، أينما وجدته تجده مبتسمًا حتى في أشد الكروب وفي أحلك الظروف، دائمًا يخفي حزنه بداخله، ويظهر على وجهه السعادة والفرح بطريقة مستدامة. الجميع كانوا على جهل بتلك الصفة الجميلة النادرة، أنا الوحيدة التي أعلم ميزاته تلك...

لم يستطع والد زنوبة رفضه، تركهما داخل غرفة الضيوف، وطلب منهما أن يمهلاه خمسة دقائق حتى يأخذ رأي ابنته زنوبة صاحبة الشأن، وبالفعل

ذهب إليها، وأخذ مشورتها، في آخر الأمر أخبرته بقرارها وهي لا تمانع في الزواج بوالدي...

جاء والد زنوبة عائدًا إلى غرفة الضيوف حيث والدي وصديقه علي اللذين كانا ينتظران القرار الأخير، والتي اتخذته زنوبة. دخل عليهما وأخبرهما بقرارها قائلًا:

- ألف ألف مبروك يا ابني؛ قد وافقت ست الشأن، وهي لا تمانع في الزواج بك...

وفي تلك اللحظة السعيدة التي عمتها أجواء الفرح اتفقوا جميعًا على أن يتم العرس في وقت قريب. كانت رغبة والد العروسة أن يُقَام الزواج بالإمكانيات المتاحة دون المبالغة فيه، واتفقوا بعد ستة ليالٍ ليُقَام العرس، قرؤوا الفاتحة، وزغردت الوالدة، وعلم الجميع بالخبر السعيد وهو زواج فرح بزنوبة...

خرج والدي ومعه صديقه من منزل حماه وجاءَا إلى المنزل، استقلا دراجتيهما الهوائية، وغادرا بسرعة إلى السوق. كان والدي في قمة السعادة رغم السعادة التي تكسو على وجهه باستمرار كما أسلفت سابقًا، إلا أن سعادته هذه المرة نابعة من جمرة فؤاده...

وبعد مضي ساعات على مغادرتهما، وقبيل غروب الشمس بقليل كنت أهم بنظافة باحة المنزل؛ أكنس الأوساخ والأوراق، ثم سمعت أصواتًا خلف باب المنزل، بسرعة ألقيت المكنسة على الأرض، واتجهت نحو الباب، فرأيت والدي قد فتح الباب، ومر من خلاله إلى الداخل وهو يلقي علي التحية...

كان الباب ما زال مفتوحًا، تركه أبي دون إغلاق، رفعت بصري قليلًا حتى وقعت عيني على سيارة نقل صغيرة، وبجوارها صديق والدي علي،

ومعه رجل آخر وهو صاحب السيارة، طلب مني أبي إحضار الماء لهما، فذهبت إلى الصالون بسرعة، وعدت مرةً أخرى وفي معيتي جك زجاجي مليء بالماء، وفي يدي الأخرى كوبان صغيران من الزجاج أيضًا، وصببت لهما الماء واحدًا تلوى الآخر حتى أرويا عطشهما...

وحين فرغا من شرب الماء ذهبا إلى حيث السيارة وبدءَا يفرغان من على متنها بعض الأشياء، كانت مزيجًا من الأصناف التي تُسْتَخدم لإقامة الأعراس والأفراح؛ منها الدقيق والزيت والبصل وأشياء أخرى كثيرة...

غادر صاحب السيارة بعد وداع أبي وصديقه علي. أغلق والدي الباب، واتجه مع صديقه إلى غرفة الضيوف. كان يبدو على ملامحهما التعب والإرهاق. طلب مني والدي إحضار الشاي، ففعلت ذلك وأحضرت الشاي على لهيب من نار، وحملته إليهم وقمت بوضعه فوق التربيزة، وعدت أدراجي لتكملة أعمالي التي لم تنتهِ بعد، منذ شروق الشمس وأنا أقوم بتلك الأعمال، والآن لقد حان غروب الشمس، وإنها لم تكتمل بعد، ما زال أمامي الكثير من الأعمال التي سأنجزها فيما تبقى من الليل إلى حين قدوم ساعة النوم...

وبعد ساعة من الوقت قمت بتجهيز وجبة العشاء لهما. جاء أبي وحملها إلى غرفة الضيافة. تناول العشاء مع صديقه علي وخرجا معًا إلى مكان غير معلوم قضوا فيه ثلث الليل. عاد أبي إلى المنزل بعد منتصف الليل، وطرح جسمه فوق السرير وراح في نوم عميق...

في صباح اليوم الثاني استيقظ من نومه مبكرًا وذهب إلى العمل بسرعة دون تناول شاي الصباح. ليس من عادته فعل ذلك وحتى ساعات عودته تغيرت، وأصبح يعود من العمل في ساعات متأخرة من الليل. كان مشغولًا بتجهيزات العرس لدرجة أنه أصبح لا يملك الوقت الكافي لقضائه معي مثلما كان يحدث في الأيام الخوالي...

كان بالنسبة لي صديقًا وشقيقًا وزميلًا وأبًا عظيمًا، نتشاطر الأسرار، وفي أوقات أخرى يحكي لي الحكايات. لقد اشتقت لتلك اللحظات التي كنا نقضيها معًا، إلا أنني كنت أعذره لأنه يكد ويعمل باجتهاد من أجل تجهيزات عرسه...

تسارعت الأيام وهي تمضي حتى اقترب موعد زفافه. لم يبق عليه أكثر من ليلتين بنهارهما. جموع من سكان الحي بدأت تعمل بهمة، والحركة أصبحت تنشط. بعض النساء قد كلفهن والدي من قبل بصنع المريسة: المشروب التقليدي الذي يُطْلَق عليه الدندريس أو البوظة. أعددن منها براميل...

وفي صباح العرس أحضر أبي ومعه صديقه ثورًا وخروفين وقاما بنحرها وتقطيع لحمها. غادر علي إلى السوق لجلب بعض الأشياء مثل الخضر، وبعد مرور وقت جاء علي من السوق ومعه الخضر، وفي رفقته مجموعة من الرجال؛ بعضهم في عمر أبي وآخرون شباب يافع...

جاؤوا لكي يشاركوا صديقهم ورفيق عملهم تلك اللحظة التي لا تُنْسَى وهي ليلة عرسه. قسمت النساء الخضر إلى أجزاء وبدأن ينظفنها عبر مجموعات، وبقية النساء أوقدن النيران، وقمن بالطبخ...

لم يمر الكثير من الوقت. طلبت النساء من الشباب المجيء، وتقديم الإفطار... جاءت مجموعة كبيرة من الشباب وبدؤوا يحملون الصواني الضخمة محملةً بأصناف مختلفة من الأطعمة واحدًا تلوى الآخر حتى تناول الجميع وجبة الإفطار...

حمل الشباب سرامس الشاي ذات الأحجام الكبيرة إلى صوان الرجال. صبوا منه الشاي، وقدموه لكل الحاضرين، ووافوهم بأكواب من القهوة لشاربيها... شرب الحاضرون على ذوقهم ورغبتهم.

بعض الرجال طرحوا أجسامهم ونالوا قسطًا من الراحة العابرة من النوم التي تأتي في ساعة الظهيرة، وآخرون قضوا وقتهم وهم يتسامرون فيما بينهم. كانوا منقسمين إلى مجموعات؛ كل فئة عمرية لوحدها حتمًا...

تلك الجموع كان محور حديثهم واحد ليس له ثانٍ، وهو ما يجمع بين الرجل والمرأة، أو بما يُعْرَف بدبلوماسية الجسد التي تتمحور قصتها بين الأخذ والعطاء، حتى تنتهي بالراحة والاسترخاء لكل الطرفين...

والنساء كن يهممن في تجهيز وجبة الغداء... وبالفعل بعد مرور عدة ساعات طلبت النساء من الشباب القدوم، وتقديم الغداء للضيوف سرعان ما مر الوقت بسرعة كالبرق وغربت الشمس وعم الظلام. بدأت الطبول تصدر صوتها من جهة ومن جهة أخرى صوت الموسيقى، وزغاريد النساء تملأ الفضاء بصوتها القوي، واستمر هذا الوضع الفوضوي لساعات...

وعند منتصف الليل أخذن العروس إلى معقل العريس الذي كان متربصًا ينتظر مجيئها. دفعن العروس إلى داخل الغرفة؛ حيث يوجد فيها العريس، وقمن بإغلاق الباب وابتعدن مهرولات إلى حيث مكان الموسيقى...

عمومًا لا أحد يعلم ماذا حدث بين العروسين، هل فعلا تلك الفعلة وتواصلا جسديًّا؟ أم أجلوها لوقت آخر وقضوا تلك الليلة يتآنسون ويتغازلون فيما بينهما؟

عمومًا انتهى العرس وعاد الجميع إلى بيوتهم، لم يبق أحد غير ثلاثتنا: أنا وأبي وعروسته زنوبة. كانت الأيام تمر بسرعة وأحوالنا مستقرة تخلو منها الشوائب. أحبتني زنوبة مثلما أحببتها، وشعرت بأنها قد ملأت الفراغ الذي خلفه رحيل أمي، أحببتها بمثابة أمي...

واستمر هذا الحال والشهور تمضي على عجل حتى حبلت وأنجبت بنتًا، اخترنا لها اسم سعاد وبعد عامين حبلت مرةً أخرى وكان مولودها الثاني أيضًا بنتًا، وتم تسميتها عزيزة تيمنًا بشقيقتها الصغيرة...

وبعد مرور عام من إنجابها عزيزة كنت بلغت من العمر إحدى عشرة عامًا وشقيقتي سعاد بلغت عامها الثالث، وأصبحت طفلةً مشاغبةً، وبدأت تتلف كل شيء، وصرت أزجرها لغرض التخويف لكي لا تكرر الأخطاء، وحين سمعتني والدتها انقضت علي وضربتني بالخرطوم ضربًا مبرحًا...

ومنذ تلك اللحظة بدأت مأساتي، واعتادت ضربي دون سبب، وكأنها مدمنة. صار لا يستريح بالها إلا بعد ضربي، ومع مرور الوقت بدأت تخترع أساليب أخرى لتزيد عقوبتي، تارةً تكويني بالنار وتارةً أخرى تشدني من شعري...

قد تغيرت تمامًا وأصبحت امرأةً أخرى، وامتلأ قلبها بالحقد والكراهية تجاهي. رغم العذاب والتعذيب الذي كنت أتعرض له من قبل تلك المرأة لم أخبر والدي بما كانت تفعله بي زوجته... كنت أعلم تمامًا ما سيفعله والدي إذا شكوت له لأنه يحبني بجنون منذ طفولتي، لا يحتمل إصابتي بمكروه...

لقد أصابتني الحيرة، وصرت عاجزةً عن التفكير. كان أمامي خياران ليس لهما ثالث إما أختار راحتي وأبي يتخلى عن سعادته وعن زوجته زنوبة وبنتيه شقيقتي الصغيرتين، أو أتحمل ذلك الوضع السيئ الذي يزداد سوءًا يومًا تلوى الآخر...

لم أختر هذا أو ذاك، بل اخترت التضحية من أجل سعادة الجميع على حساب تعاستي بالفرار والهروب بعيدًا إلى مكان غير معلوم، وبالفعل ها أنا الآن وقد مرت ثلاثة أعوام على هروبي...

وقتها تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. حان وقت النوم وشوارع الخرطوم أصبحت خاليةً من البشر، وبدأت سيارات الشرطة التي تُعْرَف بالدورية تجوب الشوارع من أجل تأمينها...

فجأةً سمعنا صوت منادٍ يطلب من ليزا الانضمام إلى المجموعة، ذهبت إليهم وجاءت بفرشتين عبارة عن كرتونتين كبيرتين؛ فرشتهما على الأرض في مسافة قريبة من بعضها البعض أشبه بالالتصاق، ألقت بجسدها على إحداهما وطلبت مني النوم على الأخرى...

فجأةً بدأت السماء تمطر، لكن لم يتساقط المطر بغزارة مثلما يتساقط في موطني، وإنما كان رذاذًا يمكنه أن يغير الجو الكئيب إلى رطب ذا نسمة باردة...

قامت ليزا من فراشها وخرجت إلى حيث الشارع، وبدأت تستقبل قطرات الماء بجسدها المحروم من الأمطار الطبيعية، كانت لديها رغبة شديدة في استقبال وابل من المطر، لكن لسوء حظها لم يستمر تساقط المطر الكثير من الوقت. كانت موجةً عابرةً في سماء الخرطوم التي لا يحتاج قاطنوها الأمطار مثلما يحتاجه المهمشون المنتشرون في أرياف البلاد...

عمومًا رغم قلتها قد ابتلت ملابس ليزا. سألتها:

- لماذا فعلت ذلك؟ هل تعلمين بأن التعرض للمطر المباشر يسبب أمراضًا مثل البرد وغيره؟

- نعم؛ أعلم ذلك، لكني لم أستطع التحكم بنفسي، قد مضت ثلاثة أعوام لم أشهد تساقط المطر.

- (باستغراب) ما السبب؟ هل كنت خارج السودان؟

- لا؛ كنت في الخرطوم.

– ألم تتعرض الخرطوم للأمطار طيلة الثلاثة أعوام الماضية؟

أجابتني بنعم وهي تهز رأسها. أخبرتها بأن الأمطار تتساقط بغزارة في مواسم الخريف قبيل أيام. بدأت الأمطار تهطل في جبال النوبة. كانت تتساقط باستمرار يومًا تلوى الآخر إلى حين هروبي من القرية...

حينها تخلصت ليزا من ملابسها المبتلة، وارتدت الجلابية التي أعطيتها من داخل الحقيبة، واستلقت فوق الفرشة بجواري، وبعد ساعتين أُصِيب جسمها برعشة، وبطريقة إنسانية جعلتها شريكة الغطاء، ونمنا معًا تحت غطاء واحد طيلة الليل...

وقبيل شروق الشمس تهجم علي شاب وانهال علي ضربًا، إلا أنني لم أظل ساكنًا. قاومته وضربته، وتفوقت عليه بفضل حجمي...

❁❁❁

11

ولم لا إنه فتى كوشي الأصل... كان جسمه فارعًا ومليئًا وصدره شاسع وبارز إلى الأمام، وكتفاه واسعة وصلبه، رفيع وضامر ويداه معضلتان... لقد طرح ذاك الشاب أرضًا وضربه ضربًا مميتًا حتى تدخل بقية الشباب، وتمكنوا من تحرير صديقهم من تحت قبضة توتو كافي الحديدية الجبارة...

حاول الشاب من بعدها دفع مجموعته لكي ينقضوا جميعًا على توتو كافي ويضربوه، إلا أن الشباب رفضوا تلك الفكرة لأن جميعهم أهابوا هذا الشاب الغريب صاحب البنية الجسدية العملاقة... بالحق حتى ذاك الشاب ارتجف قلبه من توتو كافي...

ولولا تدخل الآخرين ما خرج من تلك القبضة الصلبة سالمًا، وقد أُصِيب بكل تأكيد... وجب عليه التشكر للخالق على نجاته دون أذية...

وقتها كان توتو كافي واقفًا على بعد مسافة وفي رفقته ليزا وهي تحاول تهدئته، وأكثر ما كان يشغل بال توتو كافي هو السبب الذي دعا ذلك الشاب إلى الغدر به، وهو في غفلة من أمره، وراح يسأل ليزا:

– لماذا انهال علي ضربًا؟ إنني لا أعرفه، ولم أفعل له شيئًا يدعوه لضربي...

– لأني نمت معك ليلة البارحة.

– ومن هو حتى يمنعك من ذلك؟

– يُدْعَى أحمد وهو من ولاية القضارف، جاء إلى الخرطوم هاربًا من أسرته منذ عشرة أعوام تقريبًا، منذ طفولته. إنه الآن زعيم المجموعة.

الشيء الذي دفع توتو كافي للاستغراب أن ذاك الشاب ليس فيه ما يميزه عن الآخرين حتى يتوجوه زعيمًا عليهم، بل لاحظ أن الآخرين كانت أجسامهم قويةً عملاقةً بمعنى الكلمة...

بالحق؛ كان أحمد أصغرهم حجمًا، وأضعفهم جسمًا لكنه كان أكثرهم ذكاءً وبعقليته الذكية، وبأفكاره الإجرامية تلك صار زعيمًا على تلك المجموعة من الشماسة...

أخبرته ليزا بأن الزعيم أحمد يحبها بجنون، ويتودد لها باستمرار لكي يحصل عليها، وينال أجمل ما عندها، لكنها عادت مرةً أخرى في الحديث وهي تقول لتوتو إنها تكرهه ولا تطيقه، وإنما كانت مجبرةً على مجاراته لكي يحميها من الذئاب الضالة الذين ينقضون على الفتيات ويقومون باغتصابهن جماعةً...

ورمقته بنظرة وقالت:

- لقد كنت أحس بالضعف طيلة الوقت، ولا بد لشخص ما أن يحميني... الآن وداعًا للخوف من الذئاب...

والتصقت به وطوته بيديها الاثنتين وسألته:

- ألن تحميني من تلك الوحوش؟

تجنب توتو كافي نظراتها خجلًا، وهز لها رأسه موافقًا لتلبية رغبتها، ومنذ تلك اللحظة تعاهدا أن يكونا معًا؛ لا شيء يفرقهما غير الموت...

طلب منها أن تأخذه في جولة حول الخرطوم، فأخذته وبدأت تجوب به شوارع الخرطوم. أخذته إلى حديقة الحيوانات، وكرنيش النيل، وغابة جانغل الواقعة في الناحية الجنوبية الغربية من الخرطوم؛ المطلة على النيل الأبيض...

الآن قد عرف توتو كافي الخرطوم شوارعها وأبنيتها والمعالم الرئيسية الأخرى. صار لديه القدرة الكافية للتجول فيها باطمئنان، لكن ما زالت تنقصه الخبرة في إدراك سبل الحياة، لكن ليزا كانت ترافقه باستمرار...

عادا إلى حيث مكان إقامتهم الواقعة شرق موقف باصات جبرة، تحديدًا عمارة الشماسة، وبعد وصولهم استأذنته ليزا وغابت عن بصره بعض الوقت، وعادت وفي معيتها كيس مليء بالكرتا؛ بقايا من الأطعمة، وضعته في الوسط وتناولا معًا تلك الوجبة التي وفرتها ليزا بسحرها الأنثوي الجذاب، لأن الفتى الذي كان يعمل في مطعم البوستة الواقعة شرق عمارة الشماسة مغرم بها...

ومع مرور الأيام بدأ التجار وأصحاب المحلات يكلفون الفتى الكوشي ببعض الأعمال مقابل أجر قليل، مثل المراسيل وتحميل البضائع...

أخبرني توتو كافي أن التجار استبدلوا اسمه من توتو كافي باسم آخر اختاروه بأنفسهم وهو جمعة... «بالله عليكم؛ إنهم استعربوني وأنا في غفلة من أمري» هذا ما قاله توتو كافي...

– وبعد أيام قليلة اشتريت معدات ورنيش تلك المعدات الخاصة بتنظيف الأحذية، وجئت بفرشاة صغيرة، وبدأت أمسح الأحذية وأصبحت محبوبًا لدى التجار لأنهم كانوا يكرهون الشاب المدعو أحمد زعيم المجموعة... قالوا إنه قد أذاهم الكثير والكثير من المرات حتى لقبوه تش تش، ومعناها الجمرة التي تحرق...

لقد أخبرتني ليزا بعضًا من تلك الأفعال الشنيعة التي كان يفعلها تش تش مع التجار. إنه لص بالفطرة؛ يعيش حياته على خفة يده، وبدأ أصحاب المحلات يضربونه حين يقترب من بضائعهم، وإذا فعل معه أحد التجار ذلك ينتقم منه في ساعات الليل...

يقوم بجمع حاشيته ويأتي بهم أمام محل الشخص الذي ضربه في ساعات النهار، ويطلب من حاشيته قائلًا: «دعونا نجعله يدفع ثمن غلطته»،

ويطلب من الجميع قضاء حاجتهم أمام المحل طيلة فترة الليل يملؤونه بالبراز والبول...

وحتى الذي كان ينام بعيدًا يأتي لكي يقضي حاجته أمام المحل الذي أرادوا تلويثه انتقامًا لما فعله صاحبه بزعيمهم. أغلبهم قد تعرض لذلك وصاروا يتجنبون شره، ولقبوه بتش تش...

وفي يوم من الأيام كان أحمد قادمًا من غابة جانغل وهو في طريق عودته سلك الشارع المجوار لرئاسة شرطة الجمارك، وحين وصل أمام مدخل الجمارك لمح سيارةً صغيرةً توقفت أمام موقع الجمارك نزل منها ضابط، ومضى مسرعًا إلى داخل البناية. كان برتبة عقيد...

وحين اقترب أحمد من السيارة وقعت عينيه على جهاز تلفاز أربعة وعشرين بوصة ماركة شارب. بسرعة حملها فوق كتفه وغادر المكان مسرعًا حتى توارى عن الأنظار مثل الشبح تمامًا، وسلك طرقات عديدة ما بين أزقة مهجورة وشوارع رئيسية مكتظة بالبشر حتى وصل إلى عمق السوق العربي...

دخل على أحد المحلات لبيع الهواتف وبعض الأجهزة الالكترونية. كان صاحب المحل على معرفة سابقة بتش تش؛ الذي عرض عليه التلفاز؛ فلم يرفض شراءه. قد دفع به الجشع وقام بشراء التلفاز بأرخص الأثمان. يا إلهي ما هذا إنه قد استغل تش تش، ودفع له ثمانمائة جنيه فقط مقابل تلفاز أربعة وعشرين بوصة؛ الذي كان يُبَاع في السوق بألفي جنيه...

وبعد ساعة من مغادرة تش تش استطاع صاحب المحل بيع التلفاز إلى أحد معارفه؛ كان يعمل في مجال العقارات والعملة وغيرها، وقد اشتراه الرجل بألف وثمانمائة جنيه، وبعد مرور عدة أيام صرف تش تش مبلغ التلفاز مع مجموعته ما بين خمر وسيلسيون، وبدأت الظروف تحيط به من كل الجوانب...

لقد مضت عليه أيام دون العثور على شيء يسرقه أو يخطفه. عاد إلى حيث معقلهم بعد بحث جليل، وجلس في ذاك المكان، وبدأ يفكر في إيجاد طريقة للحصول على بعض المال، وعلى بعد بضعة أمتار كان توتو كافي يمسح أحذية المارة، وكانت مقاعده مكتظةً بالزبائن وبجواره ليزا، وحين وقعت عيناه على ليزا برفقة توتو كافي امتلأ قلبه بالحقد والكراهية...

وقف على قدميه ومضى مسرعًا نحو المحل الذي باع فيه التلفاز. دخل إلى المحل عبر مدخله الزجاجي. دون مزاح طلب من صاحب المحل أن يدفع له ألفي جنيه، اعتذر منه صاحب المحل وطلب منه الخروج من محله، وأضاف قائلًا:

- وإذا لم تفعل ذلك سوف أستدعي الشرطة.

- (ابتسم تش تش) سوف تعطيني هذا المبلغ رغم أنفك شئت أم أبيت.

انتهره صاحب المحل ودفعه للخروج لكن المدعو تش تش هدده وقال له:

- سوف أخرج من هنا، وأذهب إلى الضابط صاحب التلفاز، وأخبره بأني قد سرقت تلفازه، وبعته لك...

ارتجف صاحب المحل وأخرج رزمةً من الأوراق النقدية، وأعطى منها تش تش ألفي جنيه التي طلبها. خرج تش تش وفي يده ألفا جنيه؛ التي حصل عليها بالابتزاز. أخيرًا قد أدرك صاحب المحل بأنه قد أخطأ خطأً فادحًا حين اشترى ذاك التلفاز من المدعو تش تش لعنة الله عليه...

ويا ليت الأمر قد انتهى على هذا النحو، وإنما بدأ يكررها باستمرار، وأصبحت حياة صاحب المحل جحيمًا لا يُطَاق، وحين اشتدت عليه الضغوطات من قبل تش تش الذي لا يرحم ولا يعرف الرحمة قام ببيع المحل، وسافر إلى السعودية متغربًا عن أهله...

12

بدأت حياة توتو كافي ورفيقته ليزا تتحسن إلى أفضل رويدًا رويدًا، تغيرت حياتهم وبدأوا يتناولون الأطعمة الدسمة، وتوقفوا عن أكل الكرتا؛ تلك البقايا التي تُؤْخَذ من سلة المخلفات، وأصبحوا يرتدون الملابس النظيفة والأنيقة حتى بدأ الآخرون يغيرون منهما، خصوصًا أحمد الملقب بتش تش...

أصبح كلما تقع عيناه على توتو وليزا معًا تضيق عليه الدنيا، وهذا الأمر جعله يقرر القيام بعملية كبيرة، وهو خطف حقائب مليئة بالنقود من أمام البنوك...

يبدو أن تلك المهمة لم تكن جديدةً عليه، وإنما كان يقوم بها بين الحين والآخر، وأيضًا لم تكن طريقة هروبه أمرًا صعبًا، فحين يجد ضالته ويقوم بخطف حقيبته يدخل إلى مجاري الصرف الصحي القديم المنتشرة تحت شوارع الخرطوم بكثرة...

كان يفلح في الفرار في جميع المرات، إلا أن القدر لم يقف إلى جانبه في هذه المرة، وبعد بزوغ الشمس بقليل توجه أحمد الملقب بتش تش إلى أحد البنوك أحد فروع بنك الخرطوم...

وقف أمامه وبدأ يراقب ويتابع جميع الخارجين من ذاك المبنى أملًا في الحصول على فريسته لكي ينقض عليها، ويخطف ما بيدها... فجأةً؛ وقعت عيناه على شخص يرتدي الزي السوداني الذي يُعْرَف بالجلابية،

وعلى رأسه عمامة كبيرة، وفي يده اليسرى حقيبة متوسطة الحجم. حتمًا؛ مثل تلك الحقائب دائمًا ما تكون مليئةً بالعملة النقدية، وتكون أغلبها من الفئة الكبيرة...

بدأ أحمد بتجهيز نفسه للانقضاض. فجأةً؛ رن جوال الرجل، فتح باب سيارته بسرعة، وقذف الحقيبة فوق المقعد المجاور لمقعد السائق، وجلس هو في مقعد القيادة، تمهل قليلًا لكي ينهي مكالمته دون تشغيل محرك السيارة، وأحمد كان له بالمرصاد؛ يدور ويتجول حول السيارة...

بسرعة أحنى جسمه وخطف الحقيبة، وهرب سريعًا إلى المجرى المائي الذي كان قريبًا من موقع الحدث. خرج صاحب الحقيبة من داخل السيارة، وبدأ يصرخ بأعلى صوته الحرامي... لقد فشل الجميع في الإمساك بأحمد حتى وصل إلى داخل المجاري القذرة ذات الظلام الهالك...

لم يستطع أحدهم الدخول خلفه. اجتمعوا سريعًا وقرروا إشعال النار في الإطارات القديمة المهملة، وإلقاءها داخل الفتحات الموجودة على بعد مسافات... أصبح أحمد محاصرًا بتلك النيران الشرسة بدخانها الكثيف؛ مما سببت له الاختناق الذي سيؤدي به إلى الإغماء بسبب الكربون، وتلك الرائحة الكريهة...

لم يستطع البقاء ومقاومة تلك الكربونات السامة التي حاصرته من جميع الاتجاهات، فخرج مسرعًا وسقط أمام الجميع ألقوا القبض عليه واقتاده أفراد الشرطة إلى القسم؛ حيث تم تحرير بلاغ ضده، والتحفظ عليه داخل الحبس، وبعد أيام تم عرضه على المحكمة التي أدانته بخمسة أعوام سجنًا تحت الأعمال الشاقة...

أخذوه من المحكمة إلى سجن الخليفة بأم درمان، وبعد ثلاثة شهور تم نقله إلى سجن الحصاحيصا، وعمل في الكمائن الخاصة بصناعة الطوب،

وقضى فيها سبعة شهور أي الصيف بكامله، وحين بدأ موسم الخريف نقلوه مرةً أخرى إلى سجن ودمدني، وعمل في صيانة سكة الحديد، وظل محبوسًا في سجن مدني مدة أربعة أعوام...

وحين قارب موعد إطلاق سراحه ولم يبق منها أكثر من ثلاثة شهور نقلوه إلى سجن القضارف. كان يسمع من بعض النزلاء بأن أسوء السجون هو سجن القضارف، خصوصًا في موسم الحصاد؛ كان يرتعب منها الجميع. يبدو أن حظه العاثر كتب له قضاء ما تبقى له من شهور في سجن القضارف، وربك عارف؛ تحديدًا في أحد فروعها المقامة في منطقة القدمبلية.

وبعد أسبوع من نقله إلى سجن القضارف أخذوه إلى موقع القدمبلية؛ تلك الحظيرة المعزولة والملعونة أيضًا، يرتعش منها الجميع حين يُذْكَر اسمه، لذلك أطلقوا عليه اسم القيامة. لم يكن مشيدًا مثله مثل بقية السجون الأخرى، وإنما يختلف عنهم تمامًا، ويختلف فيه التعامل أيضًا...

إنه عبارة عن دائرة مستديرة مشيدة بفروع الأشجار العملاقة اليابسة؛ يبلغ طولها ما يقارب ستة أمتار وُضِعت تلك الفروع الشوكية المؤذية فوق بعضها البعض بطريقة عشوائية دون ترتيب؛ حتى بلغت ذاك الارتفاع الذي لا يستطيع السجناء الهروب منه...

تتوسطه ساحة ترابية شاسعة لا شيء يفصل بينها وبين السماء غير الهواء. ليس عليه سقف أو غطاء يحتمون تحته من البرد القارص، لم تكلف الحكومة نفسها في بنائه مثل ما ينبغي فقط، شيدته بأقل التكاليف...

كان الغرض من إنشاء ذاك الموقع هو الاستثمار والاستفادة من السجناء من خلال تشغيلهم في حصاد مشاريعها الزراعية، وفي حين آخر تستأجر السجناء لأصحاب المشاريع، وتقبض الأجور...

كما أن الشرطة تتعامل مع النزلاء بقسوة واحتقار، فيدفعون النزلاء إلى العمل تحت الضرب بالسياط والخراطيم، لم يكونوا يتركون النزلاء يتناولون وجبة الإفطار في الصباح الباكر، وإنما يجبرونهم على العمل إلى منتصف النهار تحديدًا الساعة الثانية عشرة ظهرًا...

لم يمنعوهم من الأكل فحسب، وإنما حصص الماء أيضًا تتم بشروط قاسية؛ يقومون بوضع جراكن الماء على مسافات متباعدة داخل الزرع الذي يعمل فيه السجناء، ويقولون لهم إن الماء في الأمام. لا أحد يستطيع الشرب منه إلا إذا وصل بعمله إلى ذاك المكان...

وحين يقارب غروب الشمس يعودون بهم إلى حيث حظيرة الحيوانات مكبلين بالجنازير الغليظة، والويل إذا طلب أحد النزلاء قضاء حاجته أثناء الليل. يتعرض الجميع إلى عقوبة جماعية بعد اتهامهم بأنهم يدبرون مكيدة الهروب...

كانت العقوبة التي تُنَفذ على السجناء على طريقتين إحداهما بالجلد بالكرباج، وأخرى بوضع السجين فوق حجر مسطح على مشارف باب الحظيرة بعد تجريده من ملابسه حتى يصبح عاريًا كما ولدته أمه، ويقومون بصب الماء البارد على جسده طيلة فترة الليل إلى حين شروق الشمس...

قضى أحمد تش تش ما تبقى من عقوبته في تلك البقعة من الجحيم التي يُطْلَق عليها القيامة. جميع السجناء كانوا أكثر حذرًا خوفًا من ارتكاب خطأ يعرضهم لتلك العقوبة البشعة؛ التي لا تُحْتَمل...

وفي صباح باكر سمع السجناء صوت الصفارة الحادة التي تغتصب آذانهم صباح كل يوم، والويل لمن تخلف. حتمًا سيتعرض للضرب...

نهضوا من فراشهم بسرعة وجلسوا صفوفًا على الأرض بمؤخراتهم ينتظرون تلك الإجراءات المعتادة، بعضهم سيُسَاق ويُقَاد كالعبد إلى العمل

في المشروع، وآخرون الذين كفروا عن ذنوبهم سيُطْلَق سبيلهم المدعى بالنبوءة، وسيُعْطَى الحرية لمن يستحقها...

في هذا الصباح لا أحد من السجناء كان يعلم تاريخ إطلاق سراحه. يعيش الجميع تحت إرهاب وضغط مريب. لقد نسي أحمد تاريخ إطلاق سراحه مثل رفقائه النزلاء. كان مكتئبًا كعادته، لا شيء جديد يطرأ على حياته التي أصبحت ملكًا للنبوءة، وهذا النهار مثله مثل بقية الأيام؛ لم يتغير فيه شيء... ستظل مأساته قائمةً...

وبعد مرور وقت قصير حضر إليهم ضابط وبرفقته اثنان من أفراد الشرطة. كان أحدهما يحمل في يده تلك الدفاتر الكبيرة المليئة بمصائر أناس؛ بعضهم جناة وآخرون أبرياء من التهم كبراءة الذئب من دم يوسف... وبدأ ينادي أسماء النزلاء الذين سيُطْلَق سراحهم اليوم...

فجأةً؛ سمع أحمد اسمه. لم يصدق في بداية الأمر. كان مترددًا حين طلب منه الضابط الخروج من الصف والوقوف في الجانب الآخر. بالرغم من أنه كان مترددًا إلا أن الأمر كان حقيقيًّا، وتم إطلاق سراحه...

خرج مسرعًا من ذاك المكان المشؤوم وهو خاوي اليدين. لم يأخذ معه شيئًا، لأنه في الحقيقة لا يملك شيئًا غير الرعب الذي ملأ قلبه. اتجه نحو الطريق الرئيسي المؤدي إلى الخرطوم مرورًا بودمدني. لم يكن مهتمًا بنوعية السيارة التي سيستقلها في رحلته. كان همه الأكبر الابتعاد بسرعة عن تلك المنطقة المشؤومة حتى لو كان على ظهر بغل...

وبعد ساعة سيرًا على الأقدام وصل إلى محطة القدمبلية التي لا يطيق أغلب السجناء سماع اسمها. توجه إلى أحد الشاحنات التي كانت تهب استعدادًا للمغادرة، وطلب من سائقها أخذه معهم إلى الخرطوم. أخبره

السائق بأنه ذاهب إلى مدني، فقرر أن يصل معه إلى مدني أو أي مكان كان، ويستقل من بعدها إحدى السيارات المتجهة إلى الخرطوم...

لسوء حظه قد تعطلت الشاحنة في وسط الطريق بين الفاو وود مدني. قضوا ليلتهم بجوار الطريق، وتحركوا بشاحنتهم قبيل بزوغ الشمس بقليل. دخلوا إلى مدينة ود مدني في وقت مبكر وركنوا الشاحنة بجوار التقاطع العام الرابط بشارعي بورسودان وسنار...

غادر أحمد مودعًا السائق. شق طرقات عديدة بقدميه حتى وصل سوق ود مدني الكبير، وبدأ يبحث عن تلك المجموعات التي يُطْلَق عليها الشماسة، أي يعني المتشردين وبعد بحث جليل وجد مجموعةً كبيرةً من عشيرته المشردة متمركزةً بجوار مستشفى حوادث مدني...

ذهب إليهم وحين رأوه استقبلوه ودعوه للجلوس. لم ينتظر الكثير من الوقت. قدم نفسه قائلًا:

- أنا أحمد المشهور بلقب تش تش، زعيم خلية الشماسة المستوطنة في وسط السوق العربي بالخرطوم...

لم يحتج أحمد التعريف بنفسه أكثر من ذلك لأنه في الأصل مشهورًا لدى جميع خلايا الشماسة المنتشرين داخل ولاية الخرطوم، والمدن الأخرى. ربما تلك المجموعات بمختلف أطيافها لا تعرف رئيس الجمهورية أو حاكم الدولة، لأن معرفتهم له لا تفيدهم بشيء إلا أنهم يعرفون جيدًا زعماءهم الذين يرعونهم...

الأمر في غاية البساطة بالنسبة لهم... إنهم يهتمون بمن يهتم بهم. ماذا أفادهم النظام حتى يهتموا بأمره. إنهم فقط فئة مشردة لم تجد من يمد لها يد العون والاهتمام معًا...

عمومًا أخبرهم أحمد بخروجه من السجن توًّا بعد قضاء عقوبة مدتها خمس سنوات عجاف، قد تم إطلاق سراحه في الصباح الماضي، وهو الآن في طريقه إلى الخرطوم...

أخبرهم من بعدها بأنه جائع يحتاج بعض الطعام. اعتذرت منه المجموعة، وقالوا له:

- لا نملك طعامًا الآن، ولم نوفره بعد...

- (ابتسم) إنني أشفق عليكم جميعًا وعلى حياتكم البائسة التي أراكم فيها... (بعد صمت) أنتم غير جديرين بعملكم. دعوني أريكم بعض أساليب العمل

وقف على قدميه، وخرج من تلك الدائرة التي كانت محتشدةً بمن حوله. مضى خطوات حتى وقف بجانب الطريق، وبدأت عيناه تراقب هنا وهناك يستكشف المنطقة وما حولها، فجأةً وقعت عيناه على إحدى السيارات التي يُطْلَق عليها البوكسي وقفت أمام بوابة المستشفى...

كان على متنها بعض النسوة، كانت إحداهن حبلى وهي على وشك الإنجاب، ولم يبق عليها الكثير من الوقت لأن صرخاتها كانت تعلو في الفضاء، وتضرب آذان الجميع بقوة بسبب ما تمر به من آلام وأوجاع. حملتها النساء ومعهن السائق إلى داخل المستشفى، وتركوا وراءهم السيارة مهملةً دون رقيب يحرسها من أمثال أحمد؛ الذي ينتظر مثل تلك الفرصة التي لا تُعَوض، ولا بد من استغلالها للخروج بشيء يفك به كربته...

وبدأت قدماه تقوده نحو السيارة، وعيونه الأخرى تعمل كالرادار تجنبًا للوقوع في الشباك، ويتم القبض عليه، ويُقَاد إلى حيث السجن الذي لم يمض على خروجه منه إلا القليل من الساعات...

لم يكن على استعداد للعودة إليه مرةً أخرى. ليست هذه المرة فحسب، وإنما لا يرغب في السقوط الذي سيقوده إلى السجون إلى حيث المهالك التي تعرض لها طيلة الخمسة أعوام التي قضاها مجردًا من الحرية، وأجنحته مكبلة بالأصفاد، وقد سمع ما لا يحبه من العسكر، وجسمه أصابه الثقل جراء ضربات الكرباج...

هذا ما قاله أحمد في يوم من الأيام، وفي بعض الأحيان يعتبر أن ذاك العذاب التي تذوقه داخل تلك السجون هو وحده سيكون كفيلًا لاستثنائه من المحاسبة في يوم الحساب الأكبر. هذا هو إيمانه الشخصي، ولا أحد له الحق في نقده، أو انتزاع تلك الفكرة من مخيلته...

عمومًا؛ دعونا نمضي لمواصلة قصته، وماذا حصل من بعد...

كعادته اقترب من السيارة وبدأ يتجول من حولها وهو يراقب بعينيه، تارةً تهبط حواجبه إلى تحت ليلقي من خلالها نظرةً سريعةً داخل السيارة أملًا في إيجاد شيء ذا نفع يستنفع منه، وتارةً أخرى يعلو حاجباه إلى الأعلى يلقي نظرةً عابرةً من حوله للتأكد إذا كان أحد ما يراقبه، لكنه اطمأن قليلًا حين لم يجد أحدًا ملاحظًا ما هو ماض على فعله...

كان الجميع مشغولًا بهمومه وغمومه؛ يسير العابرون وكأنهم على سباق مع الزمن، أما الباعة وفارشي البضائع بعضهم كانوا يهتفون للمارة من أجل بيع معروضاتهم، وآخرون يراقبون الطرقات خوفًا من مداهمة النظام العام المتسلط، والمكلف بمضايقة كل فرد يحاول أن يكد ويعمل عملًا حلالًا طيبًا...

عمومًا؛ أحس أحمد بالأمان، وبدأ يبحث بنظراته داخل السيارة. أطل في الجانب الأمامي، ولم يجد شيئًا يغريه... كانت السيارة مهملةً من الداخل، ومقاعدها ممزقةً بإهمال. انتقل إلى الصندوق الخلفي، فوقع بصره على

بعض التمن المصنوعة بمادة الألمونيوم الخاصة بالحليب، وقال في سره: «إنها لا تعني لي شيئًا. لن تفيدني. حتى إذا أخذتها جميعًا»...

تركها وبدأ يبحث ببصره عن شيء آخر حتى وقعت عيناه على أزبير السيارة أي ذاك الإطار البديل لحالة الطوارئ. بسرعة أنزلها على الأرض وبدأ يدحرجها حتى ابتعد عن ذاك المكان، ووصل في منطقة آمنةً كانت أنفاسه تعلوا وتنخفض وجسمه مُغَطى بالعرق.

لمح بعينيه محلًا لتصليح الإطارات. كان على بعد مسافة منه، تدارى خلف جذع أحد الأشجار العملاقة، وقام بإفراغ هواء الإطار حتى أصبحت خاليةً من الهواء. دفع الإطار بيده حتى وصل محل البانشر لتصليح الإطارات. ألقى التحية على صاحب المحل وسلمه الإطار، وطلب من صاحب المحل عشرين جنيهًا، وهو يقول له: «إن سيارتنا معطلة على بعد شارعين، وسيأتي السائق بعد قليل، لكني جائع لا أستطيع انتظار السائق، أريد تناول الطعام، لذلك أعطني عشرين جنيهًا، سوف ندفعها مع فاتورة تصليح الإطار»...

وبالفعل أعطاه صاحب المحل العشرين جنيهًا بثقة. أخذها أحمد وذهب إلى كواليس أحد المطاعم، أي الجانب الخلفي إلى حيث مغسلة الأواني، وأعطى العامل خمسة جنيهات مقابل كمية وافرة من بقايا الأكل خلطة وُجِدَت من مئات الأطباق التي جاءت من صالون الأكل، وضعها داخل كيس كبير، وخرج بها من تلك البناية...

ثم اتجه إلى حيث المستشفى حيث رفقاؤه البؤساء؛ الذين لم يستطيعوا القيام بضيافته على أبسط الحالات. فشلوا في إكرامه بوجبة احتاجها ساعة وصوله. ها هو قد تمكن من توفير وجبة له وللجميع. جاء إليهم وقام بإفراغ الطعام على قطعة من الكرتون، تشاركوا جميعًا في تلك الوجبة، بعضهم كان

مذهولًا جراء الإمكانيات التي يتمتع بها أحمد تش تش تلك التي ميزته عن بقية الشباب...

بالحق؛ إنه يستحق الزعامة بجدارة دون منافسة. كانت أمنيات الجميع بقاءه، وقيادتهم لكن المدعو أحمد كانت له رغبة أخرى وهو الوصول إلى الخرطوم إلى حيث مجموعته التي تركها خصوصًا ليزا تلك الفتاة التي عشقها بجنون، وكانت الأمور تسير بينهما بأفضل ما يكون على الرغم من أنها لم تتركه يحصل عليها...

كان أحمد راضيًا بانتظارها إلى حين ترغب هي الأخرى بذلك لم يكن يعلم أنها كانت تستغله فقط، حتى التقت بتوتو كافي ذاك الفتى الكوشي الذي استطاع الحصول على صديقته ليزا بعد ساعات من وصوله إلى الخرطوم، وأغرب ما في الأمر أنه قد استطاع النجاح بمهمة فشل فيها أحمد، وهو يحاول ويتودد لها لمدة ثلاثة أعوام...

عمومًا؛ أعطى أحمد أحد الشباب خمسة جنيهات، وطلب منه إحضار السجائر. لم تمض دقائق حتى عاد الشاب بعلبة سجائر ماركة وينر. قام أحمد بفتح تلك العلبة، وأعطى سيجارة لكل شاب، وأشعل سيجارته وأخذ منها أنفاسًا متكررةً، وحين أوشكت السيجارة على الانتهاء قذفها على الأرض وهي ما زالت مشتعلةً...

ودع تلك المجموعة واتجه صوب السوق الشعبي حيث السيارات التي تقله إلى الخرطوم. بحث كثيرًا عن أحد يقله إلى البندر، لكن جميع محاولاته لم تثمر بالنجاح. جميع أصحاب السيارات رفضوا مساعدته. كان لا بد له التفكير في خطة بديلة لكي يصل إلى عشيرته. نعم؛ بالحق إنهم عائلته المتماسكة، لها أسلوبها الخاص وتقاليد في الارتباطات التي تتم فيما بينهم...

حين تنضم إليهم إحدى الفتيات الجدد تمارس الدبلوماسية الجسدية مع الجميع دون ردع أو رفض أحدهم، أي إنها تمارس الجنس مع جميع الشبان إلى حين تقرر بنفسها من تكون له دون مشاركة الآخرين، وبعد اتخاذ هذا القرار من الطرفين وهما الفتاة والشاب الذي اختارته لنفسها يقوم الزعيم بتزويجهم...

وقبيل المرحلة الأخيرة وجب على الشاب تقديم بعض الأشياء كمهر... لم يكن ذاك المهر أشياءً نفيسةً مثلما نراها في الفئات الأخرى، وإنما هي عبارة عن وجبات من تلك الأطعمة المخلوطة؛ بقايا وجبات المطاعم والكافيتريات، تُشْتَرى بسعر بخس يكاد أن تكون بالمجان؛ يحضر لها الشاب بين الحين والآخر كيسًا مليئًا بتلك الأطعمة، وإضافةً إليها صباع السيلسيون؛ تلك المادة الكيماوية المنعشة للعقول والمرخية للجسد...

عمومًا؛ نعود بكم مرةً أخرى لنحكي عن خطته البديلة للعثور على سيارة توصله إلى الخرطوم. في حقيقة الأمر لم يكلف نفسه بذل الكثير من الجهد.

هذه المرة وفر على نفسه مشقة البحث التي لم تثمر له بنتائج مرجوة كما تمناها، سار وهو يترنح كالمخمور إلا أنه لم يشرب الخمر طيلة الخمسة أعوام التي قضاها في السجن، وإن ترنحه كان بسبب الإرهاق الذي تراكم في جسمه جراء الأعمال الشاقة التي أُجْبِر على القيام بها كرهًا تحت ضرب الكرباج.

استمر بخطواته حتى وقف أمام الغرفة الخاصة برجال الشرطة القائمين بتأمين منطقة السوق الشعبي المزدحمة بالمسافرين إلى شتى البقاع...

سأله أحد رجال الشرطة كان واقفًا أمام مدخل تلك الغرفة الخاصة بهم: «ماذا تريد؟»... ما دفع رجل الشرطة للقيام بسؤاله بتلك الطريقة السريعة دون تركه يلتقط أنفاسه أنه أصابه الشك في أحمد، ولم يطمئن لأمره وأيضًا لا ننسى تلك الحاسة التي يتمتع بها رجال الشرطة.

بالحق؛ إنهم مدربون على ذلك مثلما تُدَرب كلابهم على شم رائحة المحظورات قانونيًّا، ومن جهة أخرى كان مظهر أحمد أشبه بمظهر الشماسة واللصوص والنشالين الذين يسحبون الأموال من جيوب الخلق بخفة بأصابعهم الساحرة.

بالحق؛ كان رجل الشرطة على حق، قد أصاب الهدف دون خطأ، لأن الشاب أحمد لص بالفطرة؛ يسرق أي شيء يجده أمامه دون أسف أو تأنيب ضمير. إنه معتاد على فعل ذلك، لكنه الآن لا ينوي القيام بمهمة صيد والقيام باصطياد مقتنيات العباد، كل ما يرغب فيه الآن الوصول إلى الخرطوم...

أخبر الشرطي بأنه كان محبوسًا في السجن وتم إطلاق سراحه، وطلب منه خدمةً، وهي وضعه على متن إحدى السيارات المتجهة إلى الخرطوم. أجلسه رجل الشرطة في ركن الغرفة، وبعد مضي بضعة دقائق أوقف رجل الشرطة إحدى الشاحنات المتوسطة؛ تحمل على متنها الخضر، وطلب من السائق أن يأخذ معه أحمد إلى العاصمة، فقبل السائق طلب رجل الشرطة بطاعة دون احتجاج. ربما قد يكون مجبرًا على قبولها.

طلب السائق من أحمد الركوب معه داخل الكبينة، وانطلقت الشاحنة بسرعة نحو الخرطوم، وبعد ثلاثة ساعات دخلوا إلى الخرطوم. قام السائق بركن الشاحنة في السوق المركزي تحديدًا في موقف الشاحنات المحملة بالخضر بمختلف أنواعها.

جلس السائق ومعه أحمد في أحد المحلات المخصصة لبيع الشاي والقهوة، كانت تديرها فتاة جميلة تعود أصولها إلى دولة أثيوبيا المجاورة للسودان. طلب منها السائق كوبين من القهوة واحد له وآخر للشاب أحمد.

كان على مقربة منهم محل لبيع الشيشة تنبعث منه تلك الرائحة بمختلف النكهات التفاح والعنب والنعناع وغيره من الروائح اللذيذة. ذهب السائق إلى ذاك المحل، وعاد بعد غياب دام بضع لحظات وهو يحمل في يده شيشةً يبلغ ارتفاعها ما يقارب الستين سنتمترًا أو ربما أكثر من ذلك بقليل، ذاك الشيء الذي يخرج من باطنه دخان كثيف بنكهات مختلفة.

جلس على الكرسي بجوار أحمد الذي كان مشغولًا هو الآخر بشرب قهوة الصباح. قد مضى عليه زمن طويل لم يهنأ بتلك اللحظة قد حُرِم منها. خمسة أعوام تباعًا؛ تلك الفترة التي قضاها داخل أسوار السجون، والتي انتقل فيها من سجن إلى آخر.

ليس للفتى حق الرفض لأن حياته كانت مرهونةً في يد القانون، وتحت رحمة تلك البنود التي وُضِعت من أجل الإصلاح كما يدعون، لكنها في الأصل وُجِدَت عكس ذلك. على أرض الواقع كل القوانين الوضعية نتائجها الظلم مثلما قال جاليليو الفيلسوف الفرنسي (إنها أداة التتليف والتدمير، ومن يدعي غير ذلك فهو في بدعة وضلالة)...

عمومًا؛ بعد فروغهم من شراب القهوة حمل السائق الشيشة وذهب لإعادتها، وأحمد كان جالسًا على كرسي ونظراته تنتقل من مكان إلى آخر؛ يستكشف المحلات المجاورة، فجأةً توقفت شاحنة متوسطة في الجانب الآخر من الطريق كانت تحمل على متنها كراتين بمختلف أنواع البضائع الاستهلاكية؛ مواد غذائية معلبة وغيرها...

وقف أحمد على قدميه وبدأ يخطو خطوات نحو الشاحنة حتى تجاوز الطريق، وقف في الجانب الخلفي، وحين تأكد بأن الشاحنة وحيدة غير محروسة تشجعت رغبته في خطف شيء ذا قيمة يُسْتَفاد منه. تسلق فوق الشاحنة بسرعة وهدفه منها ثلاثة كراتين إلى الأرض.

لم يكن على علم بما تحتويه تلك الكراتين. إنها من الأمور الغير ضرورية، وإنما الأهم أنها كانت ثقيلةً ومغلقةً بإحكام، ولا بد للثقل أن يأتي بنتائج مرجوة. لم يترجل من الشاحنة عبر السلم الذي تسلق منه، بل قفز إلى الأرض بجسمه، وقام بإيقاف أحد الركشات، ورفع على متنها الكراتين، وقال له:

- هيا انطلق بسرعة...

وبعد ابتعادهم قليلًا سأله سائق الركشة:

- إلى أين تريد الذهاب يا صديقي؟

- لم أحدد بعد، فقط امضي قدمًا دون توقف...

انطلق به سائق الركشة مسرعًا من ذلك المكان، وصار يتجول به من شارع إلى آخر داخل حي الصحافة شرق، فجأةً طلب منه أحمد التوقف، وحمل تلك الكراتين، ودخل بها إلى أحد محلات السوبر ماركت، ألقاها فوق تربيزة كان صاحب المحل واقفًا بجوارها من الجهة الأخرى...

- أترغب في شراء هذه الكراتين؟

- ماذا تحوي هذه الكراتين؟

- إنها صلصة معلبة.

وحين اقترب منها صاحب المحل وقام بفتح تلك الكراتين فإذا بها مربى، فابتسم صاحب المحل، وقال له من بعدها:

- لكنها مربى!

- (ضحك أحمد) نعم؛ أنت على حق، لكنني ما زلت أرغب في بيعها، هل تريد شراءها أم لا؟

مد صاحب المحل يده داخل الدرج وأخرج منها رزمةً من العملة كانت مرتبةً مسبقًا، وأعطى منها أحمد مائتين وخمسين جنيهًا، إنه دفع لأحمد

أقل من نصف المبلغ المسعر لشراء تلك الكراتين. أخذ أحمد المال دون اعتراض، وخرج من ذاك المكان وركب مرةً أخرى على الركشة التي كانت في انتظاره خارج المحل...

سأله سائق الركشة:

- إلى أين تنوى الذهاب هذه المرة؟

- خذني إلى الساحة الخضراء.

انطلق به سائق الركشة بسرعة فائقة وهو يمضي في شارع المطار ذا الازدحام المروري. كانت تمر بجواره سيارات مختلفة ذات الماركات المتنوعة، وأيضًا أحجامها هي الأخرى مختلفة في فترة لم تتجاوز الربع ساعة...

توقفت الركشة أمام مدخل الساحة الخضراء. أعطى أحمد سائق الركشة خمسين جنيهًا. إنها أكثر مما يستحقه، لكن أحمد كان يرى بأن سائق تلك الركشة يستحق أكثر من ذلك، لأنه كان أقرب إلى شريك صيده؛ الذي اصطاده مؤخرًا...

نزل من الركشة واستقل أحد الحافلات القادمة من ضاحية مايو ومتجهة إلى السوق العربي. لم يذهب إلى مجموعته مباشرةً بعد وصوله السوق العربي، وإنما ذهب إلى مجمع البوتيكات الخاصة ببيع الملابس الجاهزة ذات الماركات العالمية، واشترى منها بعض الملابس الأنيقة، وأصبح أكثر أناقةً...

لا يبدو عليه أنه خارج من السجن بعد قضاء عقوبة مدتها خمسة أعوام، وهذا ما خطط له أحمد منذ بادئ الأمر، وهو لا يريد مقابلة الفتاة ليزا بشكله الكئيب ذاك، وكان يعتقد أنها أيضًا ستكون أكثر شوقًا للقائه، وسوف تقع في أحضانه حين تراه، لكنه لم يكن يعلم بعد بأن حياته ستتغير إلى كابوس

حين يكتشف بأن الواقع الذي غاب عنه خمسة أعوام لم يعد كما كان... قد طرأت عليه الكثير من المتغيرات...

وبالفعل؛ حين وصل لم يجد خليته السابقة كما كانت من قبل، قد غادر أغلبهم، وانتقل إلى مكان آخر، بعضهم أنشؤوا مجموعات وصاروا زعماء عليها، وآخرون انضموا إلى بعض الخلايا الأخرى، وقلة من خليته ما زالت موجودةً لكنهم تحت زعامة أحد الشباب الجدد لم يره أحمد من قبل، لأنه جاء بعد غيابه قادمًا من ضواحي مدينة الدمازين. كان يبدو على ملامحه القوة والشراسة معًا.

وقتها لم يكن أحمد مهتمًا بغياب بعض حاشيته التي كان يتزعمها، ولا بالزعيم الجديد الذي أخذ مكانه، فقط كان على عجلة من أمره لرؤية ليزا؛ تلك الفتاة الجميلة التي أحبها منذ زمن بعيد، وانشغلت عيناه وهي تراقب هنا وهناك أملًا في رؤيتها، لكن لسوء الحظ قد طال انتظاره وعيناه لم تلتق ليزا.

بعدها سأل أحد فتيانه القدامى وهو يقول له:

- أين ليزا؟ لم أرها بعد.

أخبره الفتى بأن ليزا انتقلت إلى الإسطبلات برفقة توتو كافي تلك المنطقة الواقعة غرب السوق الشعبي. جُنَّ جنونه حين سمع ما قاله الفتى، خصوصًا حين عرف توًّا بأنها ما زالت برفقة ذاك الكوشي المدعو توتو كافي. كان في اعتقاده بأنهما قد انفصلا وافترقا، وذهب كل منهما إلى حال سبيله...

لم يكن يعلم بأن الرابط الذي جمع بين الفتى الكوشي وليزا رابط قوي يتحدى كل المحن. وأهم من ذلك أنهما يحبان بعضهما البعض، ولم يفترقا عن بعض لحظةً منذ لقائهما الأول، ويظلان معًا ليل نهار وهما يتغازلان

معًا طيلة ساعات النهار، وحين يجيء الليل كل منهم يمنح جسده للآخر؛ يتشاطرون المداعبة والقبلات الحارة والجنس الجامح...

هذا ما قالته ليزا لصديقتها نوال التي لم تؤمن يومًا بالحب، وترفض باستمرار أن تكون لشخص واحد. أدمنت أن تكون متاحةً للجميع؛ تمنح جسدها لأي شخص يستطيع أن يدفع مقابله. إنها تعمل باستمرار.

لديها الكثير من الزبائن منهم الميكانيكية في المنطقة الصناعية، وآخرون في الإسطبلات، والنجارين، وبعض من أصحاب المحلات التجارية. كانت تجني أموالًا طائلةً، ولم تتغيب يومًا واحدًا عن عملها ذاك.

لديها جدول عملي منظم، وفي يوم من الأيام حكت لصديقتها ليزا أحد المواقف الطريفة التي واجهتها أثناء عملها وهي تقول:

- لقد ذهبت إلى أحد الورش لخدمة أحد الزبائن المعتمدين ،وحين وصلت وجدت الزبون كان في انتظاري، اقترب مني وبدأ يصارحني قائلًا:

- سأكون صريحًا معك. لا أملك اليوم أجرتك، وأرجو أن تمنحيني جسدك بالدين، وسأسدده فيما بعد.

- (ضحكت بسخرية) وقالت له يا إلهي ما هذا؟ لأول مرة أرى شخصًا يطلب هذه اللحظة بالدين... (بعد صمت) هناك أمر واحد ما زال يدفعني إلى الحيرة، وهو الطريقة التي ستسدد بها هذا الدين الجسدي. هل ستسدده اللحظة باللحظة أشبه بالأولى؟

بالحق؛ كانت نوال فتاةً جريئةً ومتفحشةً أيضًا حديثًا وفعلًا، لم ينعم عليها الخالق بالجمال المطلوب، لكنه لم يحرمها من بعض الميزات الجاذبة. كان قوامها مثيرًا، وحين تسير في الطريق تسيل لعاب الجميع، خصرها أشبه بزير الماء.

رغم هذا وذاك كانت ليزا تتفوق عليها في الجمال، ويرغبها كل من رآها، لكنها كانت وفيةً لتوتو كافي، وكانت تتجاهل نظرات الجميع، وحين فشل بعض الرجال في الحصول عليها صاروا يكلفون نوال القيام بتليينها وإحضارها إليهم، إلا أن ليزا رفضت جميع المحاولات والإغراءات التي قُدِّمت لها من بعض الرجال عن طريق صديقتها المقربة نوال...

كانوا على استعداد لدفع مبالغ كبيرة من أجل الحصول عليها، وفي يوم من الأيام أخبرت ليزا صديقتها نوال بعض الأسرار الخاصة بعلاقتها العاطفية والجسدية مع توتو كافي. قالت:

– لقد أحببته من اللحظة الأولى التي رأيته فيها، وهو الآخر كان مثلي تمامًا رغم تلك المشاعر والأحاسيس. قضينا ستة شهور الأولى دون ممارسة الجنس، متغلبين على شهواتنا التي كانت مشتعلةً كلهيب من النار...

وفي إحدى الليالي الشتوية الباردة جاء بزجاجة خمر، وقمنا بشربها معًا حتى ثملنا، وفي تلك اللحظة بالتحديد قررت أجسامنا الالتحام معًا، وأعضاؤنا هي الأخرى أرادت المداعبة والعبث بها. لم يطلب مني ذلك بلسانه لكن نظراته كانت على رغبة في ذلك...

ذهبت إلى إحدى السيارات القديمة. كانت مهجورةً، وقد مضى على توقفها عامان. ركبت على متنها، وصرت أنتظر قدومه. لم يتأخر الكثير من الوقت، تبعني بخطواته دون توقف حتى صار على مقربة مني...

بالحق؛ كانت درجة حرارة جسمه مرتفعةً ينساب منه العرق بغزارة، وتضخمت شرايين جبينه حتى صارت واضحةً للبصر. أمسك بيدي بسرعة، وسحبني إليه ببطء حتى ضمني على صدره، وطواني بيديه الاثنتين.

سرعان ما شعرت بشيء ما يعبث في خصري، وبدأ يدغدغ وينتح حتى تسارعت نبضات قلبي، وبطريقة ما وجدت جسمي قد تمدد على أرضية

السيارة، وفخذي الأخرى تباعدت عن بعضها البعض تاركةً وراءها المساحة الكافية ليتوغل توتو كافي...

قد أذن له جسدي، ومنحه حق التصرف كما يحلو له، وبالفعل اقترب ببطء حتى صار بين فخذي، فجأةً شعرت بشيء ما يتوغل كالحية إلى داخل قلعتي الخفية مخترقًا تلك البوابة الرئيسية بقوة؛ حتى ارتعش جسدي بكامله، وبدأت الفوضى وصار ذاك الشيء يعمل كالدرويش تارةً يتوغل إلى الداخل وتارةً أخرى يعود إلى الخارج...

استمر هذا الحال دون توقف حتى اشتعل جسمي نارًا جراء الاحتكاك، فجأةً أمطرت سمائي ماءً، وهو الآخر لم يتركني أستريح قليلًا، ظل يدفعني بصلبه لأوقات طويلة حتى انتعش جسده، وحين نهض من فوق جسمي نزلت إلى الأرض بسرعة، وبدأت أستفرغ الطعام الذي أكلته توًّا، وهو ما زال حديثًا على معدتي لم يمض عليه الكثير من الوقت، ومنذ تلك اللحظة أطلقت عليه كيتوك...

❁❁❁

13

كان توتو كافي يعمل في مهنته الشريفة، وله موقع خاص وهي عبارة عن مظلة شاسعة داخل السوق الشعبي تتوسط الباصات السفرية، ودائمًا ما تجده مزحومًا بالزبائن المسافرة إلى شتى بقاع السودان...

كان توتو كافي محبوبًا لدى الجميع رجال الشرطة وأفراد المباحث، وعمال مكاتب الترحيل، والكمسنجية، واللصوص وضاربي الجيوب الذين يُطْلَق عليهم النشالون، وخاطفو الحقائب، وغيرهم من البشر...

بالحق؛ كان الجميع يحبه وهو الآخر كان يبادلهم الشعور نفسه، إلا أنه كان أكثر حذرًا من رجال الشرطة وأفراد المباحث، دائمًا ما كان يبتعد عنهم حين يحاولون الاقتراب منه، ويتجنب الحديث معهم، لم يعطهم الأمان الكامل، كرههم منذ الليلة الأولى التي وصل فيها الخرطوم...

كانت ليلةً مشؤومةً على حياته حين سمع صرخات أحد المجموعات التي كانت تبعد عنهم بضعة أمتار جراء تعرضها لهجوم من بعض رجال الشرطة، وبدؤوا يتحرشون بهم جنسيًّا، وحين سمع توتو كافي ما قاله الصبيان ارتعشت قدماه خوفًا من تعرضه لاغتصاب هو الآخر من قبل رجال الشرطة...

إنه ليس على استعداد للتعرض لمثل ذلك الاستغلال الجسدي كرهًا دون رغبته. لم ينتظر كثيرًا حتى بدأ يسأل الصبيان عن حقيقة ما قالته إحدى الصبايا وهي تحت بكاء ليس من بعده بكاء.

لكن ليزا بادرت وأخبرته أن ما سمعه حقيقة واقعية يشهد عليها الجميع. لم تمر عليهم أيام دون تعرضهم لهجوم من قبل تلك الذئاب الضالة والمنحرفة أيضًا، والعابثين بالأعراض...

ومنذ تلك اللحظة التي سمع فيها توتو كافي بالاغتصابات التي يتعرض لها الأطفال المشردون أثناء الليل -دون فرز ذكر كان أو أنثى- شب في قلبه الخوف، ولا مجال للثقة بعد اليوم، ولا بد من إيجاد طريقة ما يحمي بها تلك الفئة المستهدفة جراء عجزها.

تطوع وبدأ يعمل على توحيد الشماسة، وبالفعل؛ فقد استطاع توحيدهم وحمايتهم لوقت قصير من تلك الوحوش المدمنة على الجنس المثلي. بالحق؛ إنهم يفضلون الصبيان على الفتيات، إلا أنه قد فشل في آخر المطاف. الذئاب ظلت تنقض عليهم بين الحين والآخر، والمجموعة أيضًا أصبحت تنهار يومًا تلوى الآخر بسبب كثرة الخلافات والمشادات...

وفي صبيحة أحد الأيام قرر توتو كافي ورفيقته ليزا المغادرة والارتحال بعيدًا عن ذاك المكان المشؤوم، لأن الأوضاع أصبحت كارثيةً لا تُحْتَمل ولا تُطَاق، وبالفعل انتقلا من السوق العربي واستقرا في الإسطبلات غرب السوق الشعبي في منطقة مهجورة واقعة غرب مدينة الفروسية، أو كما يُطْلَق عليها سباق الخيل. إنها منطقة مظلمة تخلو فيها الإنارة، وعقب غروب الشمس لا تسمع فيها أصواتًا غير صوت سليل الخيل. إنهما في أمان الآن.

لم يمر على ارتحال توتو كافي ورفيقته ليزا إلى ذاك الموقع الأكثر أمنًا الكثير من الوقت. كانا لوحدهما دون أنيس أو رفيق، يخرجان من تلك المنطقة بعد بزوغ الشمس ويتوجهان سيرًا على الأقدام إلى السوق الشعبي. لا يبعد كثيرًا عن وكرهم الحديث؛ يقضون فيه ساعات النهار، يعمل توتو كافي ما بين حمال ومرسال يحمل حقائب المسافرين في أغلب الأحيان...

يكون السوق أكثر ازدحامًا بالمسافرين لدرجة أنك لا تستطيع المرور في الطرقات بسهولة دون الاصطدام بأحد. يقضي توتو كافي طيلة ساعات النهار حاملًا على ظهره المقتنيات الثقيلة، تارةً ينقلها من مكان إلى آخر، وتارةً أخرى يحملها من الأرض، ويتسلق بها إلى سطوح الباصات...

وبعد غروب الشمس ومجيء الظلام يعود إلى مكان إقامته الجديدة برفقة محبوبته ليزا؛ حاملين معهما الأشياء الضرورية التي تبقيهم في الحياة مثل الأكل والشرب وبعض الأشياء الجانبية مثل الفرش والأغطية الدافئة التي تقيهم من البرد القارص...

لم يمضيا على هذا الحال الكثير من الوقت وحدهما، فسرعان ما انضمت إليهما مجموعات أخرى قادمة من السوق العربي بعدما تناقلت بعض الأخبار عن ارتحال توتو كافي ورفيقته ليزا إلى منطقة الإسطبلات، وأيضًا سمعوا بهدوئها وعزلتها وخلوها من البشر.

إنه ملاذ آمن وليس فيه خطر يُذْكَر أمثال الشاذين جنسيًّا والمثليين؛ الذين ينقضون عليهم بين الحين والآخر، ويهتكون أعراضهم...

في الحقيقة لم يتعرض الجميع للاغتصاب. فقط الضعفاء منهم هم الذين مُورِسَت عليهم تلك الوحشية، أما الكبار منهم فكانوا قادرين على حماية أنفسهم والدفاع عن مؤخراتهم دون ترك أحد القيام بالاقتراب منه والمساس به رويدًا رويدًا.

امتلأت المنطقة بالشباب، والفتيات جاؤوا من مواقع مختلفة، وأغلبهم غرباء على توتو كافي، لم يرهم من قبل، لكنه يعرف إلا القليل منهم، قد كانوا معًا في مسكنهم السابق الذي ارتحلوا منه وهجروه نهائيًّا دون العودة إليه مرةً أخرى...

الآن أصبح لتوتو كافي جيش بمختلف الأعمار والأطياف منهم من بلغ أشده، ومنهم من ما زال قاصرًا لم يبلغ أشده. وقد تم اختياره زعيمًا عليهم، وهو الآخر قرر التحكم بزمام الأمور وجعل الأوضاع تحت سيطرته. لا يرغب في تكرار المصائب التي حدثت من قبل...

اجتمع بهم جميعًا دون استثناء، وأقر لهم قائمةً من القوانين الجديدة، وطلب من الجميع اتباعها والخضوع لها دون انتهاكها، وقال لهم: «إذا أفلحتم في الالتزام بهذه القوانين يمكن تجنب شرور العسكر أصحاب السلطة العمياء الباطلة التي بُنِيَت على أسس الظلم، وإطاحة بالحق واستبداله بباطل، لا يقبل الحق نظامًا يدعي أنه يميني ومعتدل وهو أسوء من اليساري المتطرف... الخ».

إنهم ملأوا الوطن فسادًا، وأعطوا أتباعهم طارقي الطبول وعازفي المزامير، والسحرة والفجرة، ومطلقي البخور أصحاب الفجور الأكبر، والمراوغين المهرة والكاذبين والمتحدثين، والمدافعين عنهم كذبًا والمدافرين من أجلهم، وقتلة أعدائهم يفعلون ما يحلوا لهم...

إنه نظام همجي يفتقد النزاهة الوطنية، كما أنه يفتقد بوصلة الحكم... الخ. كم هو قاسٍ ومؤلم أن تعيش في واقع أصبح فيه الظلم والفساد الإداري رمزًا للسلطة، واختلط فيه الحق بالباطل.

تلك المجموعة الملتحية التي تدعي ظاهريًّا أنهم إسلاميون، لكن أساليبهم تشهد عكس ذلك تمامًا. بالحق؛ إن النظام الحكم القائم الآن في بلادنا لا يختلف عن الأنظمة الدكتاتورية في شيء. إنه طبق الأصل، لكنهم يستنكرون ذلك، وقد تمادوا بأفكارهم المخمرة تلك حتى ثمل منها الشعب، وأصبح يترنح ليل نهار من أجل توفير احتياجاته في وطن غني بموارده، لكنه من أفقر بلدان العالم، أما اقتصاده فهو هابط إلى الأسفل يومًا تلوى الآخر...

توتو كافي ورفقاؤه أحد ضحايا هذا النظام الأرستقراطي الغاشم. أصبح البعض محاطًا بعدة عوامل تجعل حياته أكثر قسوةً: الفقر المدقع، والأنصارية المصطنعة عمدًا، والفساد تدعمه السلطة الكبرى...

ومهما وصفنا تلك الشخصيات الحاكمة وعقولهم المريضة تلك؛ لا نستطيع إعطائهم الدرجة الحقيقية لسوء ضمائرهم، وذبول عقولهم وإذا سألنا إن كانت لهم مبادئ دينية أو وطنية... بالحق؛ إنني أشك في ذلك، ولا أعتقد أن مثل هذه المسميات الجميلة متوفرة في نفوس هؤلاء القوم.

الشيء الوحيد الذي يجيدونه بجدارة هو وضع المخططات الخبيثة، والمتاجرة باسم الدين من أجل البقاء في السلطة دون منازع أو معارض. وهمهم الأكبر الاستيطان في كرسي السلطة إلى الأبد؛ يدعون بألسنتهم زيفًا بأنهم ديمقراطيون، لكن أفعالهم على أرض الواقع تدل على كفرهم بما يُسَمى المسار الديمقراطي...

بالحق؛ النظام السلطوي الموجود في بلادي مجزأ إلى شطرين: الأرستقراطية والبلوغراطية.

الفئة الأولى هم الأرستقراطيون الذين يتبادلون الحقائب الوزارية فيما بينهم دون إتاحة الفرصة لغيرهم، ويُسَمون أنفسهم رجال الصف الأول. هذا ما نراه في واقعنا المُعَاش، ومنذ نعومة أظافرنا نشهد أشخاصًا يزعمون أنهم قادة الأمة، ورموز الدولة يتبادلون المناصب فيما بينهم.

تارةً يتم نقل وزير النفط إلى وزارة المالية، وتارةً أخرى وزير الداخلية إلى وزارة الدفاع، وهكذا... والقائمة تطول. يمكن أن نقول أن كل الوزراء الموجودون حاليًّا في الوزارات قد شغلوا كل الوزارات الأخرى. ما هذا الجنون الذي يتحكم بنا؟

يا ليت الأمر قد توقف على التحكم بنا فحسب، وإنما قد تمادوا أكثر فأكثر من خلال وضع نمط لحياتنا ومصيرنا معًا. إنهم على وشك الإعلان أنهم هم الآلهة الأكبر، أو نوابه العظماء. لقد أصابهم الغرور، وتمادوا بأخطائهم حتى قذفوا بالوطن في جب المتاهة الأكبر...

أما الفئة البلوغراطية هم أتباع السلطة الكبرى المنتسبون إليها مؤخرًا عبر الولاء والطاعة العمياء. إنهم على أهبة الاستعداد لتنفيذ المخططات والاستراتيجيات التي تدعم بقاء النظام كما هو دون تغيير أو اهتزاز يُذْكَر، وهم الضباط الأعلى رتبًا وأوسطهم أيضًا، والقضاء ووكلاء النيابات والعسكر والجنود، ومدراء القطاعات العامة والخاصة وموظفوها...

أقسم بالله إنهم أسوء من النظام. جميعهم مرتشون. إنهم محترفون في عقد الصفقات على حساب القانون، ويبيعون كل شيء بالمقابل الغالي والنفيس. لم يتركوا شيئًا قيمًا على قيمته كما ينبغي، ويمكن لمرتكبي الجرائم من الدرجة الأولى الإفلات من العقوبة بسهولة، فهم يشترون براءتهم وحريتهم بالمال من قبل القضاء والنيابات ورجال الشرطة...

أما الموظفون... في الحقيقة هم متسولون عبر القانون؛ يعملون من أجل ملء جيوبهم بحفنة من الدراهم كما يقول الأعراب. جميعهم أدمنوا الرشاوى، واتخذوا المال آلهتهم التي يتعبدونها، وأصبح رجل الشرطة يبيع ما أُؤْتُمِن عليه بالمال...

ها هي الفوضى تزداد يومًا تلوى الآخر، وأصبح المجرمون أبرياء والأبرياء مجرمين. والقانون يُطَبَّق على الضعفاء، ولا يُطَبَّق على الأغنياء أبناء الذوات البرجوازيين الطغاة. رجال أشبه بالنساء الحبلى، وشباب أجسامهم تميل إلى الأنوثة أكثر من الرجولة...

14

عمومًا؛ دعونا نعود معًا مرةً أخرى لكي نقص عليكم قصة توتو كافي...

ذاك الفتى الكوشي أجبر جميع حاشيته على اتباع بنوده التي وضعها من أجل سلامة الجميع. بالحق؛ تلك المجموعة تحتاج لقائد صارم يتولى أمر قيادتها، لذلك اختاروه زعيمًا عليهم، وهو الآخر لا يستهين بالأمور. لديه أحكام صارمة، وهو نفى اللصوص والسارقين وضاربي الجيوب النشالين، وعزلهم بعيدًا عن حاشيته خوفًا من جلب المصائب...

أخبر جماعته أن يعملوا في الأعمال الشريفة مثل العتالة أو الورنيش (يعني ماسحي الأحذية)، وبعد مرور أيام أنشأ عدة مواقع خاصة بمسح الأحذية، ووضع على كل موقع اثنين من حاشيته، وبدؤوا يزاولون عملهم...

يخرجون جميعًا في الصباح الباكر، ويعودون بعد غروب الشمس بقليل حاملين معهم احتياجاتهم الخاصة؛ التي تبقيهم على ظهر الحياة ليتشاركوا جميعًا تلك الوجبة التي جاءوا بها مع حبيباتهم.

كل واحد منهم له رفيقة خاصة به لا يشاركه فيها أحد. هذه واحدة من الشروط التي وضعها زعيمهم توتو كافي، إنه ليس من محبي الجنس العشوائي، أو مشاركة شابين على فتاة واحدة. إنه أكثر تنظيمًا. وبالفعل استطاع إخضاع الجميع إلى بروتوكولاته تلك التي لا أحد يتجرأ على كسرها.

يهابه الجميع ولم لا؟ إنه صاحب بنية جسدية قوية، لا ننسى أنه كوشي أصيل ذو القوام الفارع وكتفاه واسعة، أما خصره أو صلبه ضامر ورفيع،

وعضلات بطنه نابعة ومموجة، وفي الجانب الأعلى تجد الرأس فيه بروز من الجانب الخلفي، وعيناه واسعتان ذات لون خمري، وشعره قصير ذو خشونة، وعضلات ساقيه ضخمة...

أما ما بين فخديه شيء غليظ بعرضه المبالغ وطوله المرعب؛ هذا ما قالته خليلته ليزا لصديقتها نوال، ربما قد بالغت ليزا بعض الشيء حين أخبرت نوال أنها قد أُغْمِي عليها عدة مرات حين يقوم توتو كافي بأخذ سلاحه الخفي، أو عصبته تلك داخل عضوها المتمركز بين فخديها.

ارتعشت نوال وقالت من بعدها: «إنه توتو الكافر وليس كافي فحسب»... ألقت ببصرها نحو الأرض، وظلت صامتةً عن الحديث بضعة دقائق ربما في تلك اللحظة كانت تصارع شيئًا ما بداخلها بدأ يتحرك من سكنته شوقًا للحصول على تلك اللمسة السحرية التي يتمتع بها توتو كافي رفيق صديقتها ليزا...

ورغم أنها كانت تمارس الجنس بكثرة، ولم يمر عليها يوم دون الممارسة والاحتكاك مع جسد آخر، لكنها حتمًا قد أصبحت ضعيفةً أمام تلك الإغراءات السردية التي سمعتها من ليزا، إنها متعة مرغوبة لدى الجنس اللطيف، لا يستطعن تجاهله دون الاستسلام لرغبتهن التي تنفجر نشاطًا حين يسمعن مثل تلك القوة النادرة، وهي تساوي كنزًا قيمًا لدى النساء...

وبالفعل خططت نوال لسرقة بضعة لحظات حميمة مع توتو كافي. ها هي تحاول خيانة صديقتها ليزا...

وحين يجيء الليل ويذهب الجميع أزواجًا إلى أماكن نومهم بعد قضاء ساعات عديدة يتآنسون فيما بينهم؛ يدخل الجميع إلى أركانهم المخصصة التي كانت متباعدةً عن بعضها البعض حفاظًا على خصوصية ما يحدث أثناء الليل...

ورغم ذلك يمكنك سماع أصوات الصرخات والآهات يعلو صداها في الفضاء بصوت أنثوي، ذاك الصوت الأكثر إثارةً وهي تخترق أجواء السكون قادمةً من تحت الأغطية الموجودة في الزوايا المظلمة؛ التي تحتضن في باطنها جسدين مختلفين ومتلاحمين، أحدهما السالب والآخر الموجب، ورائحة العبق تتناثر هنا وهناك، وأصوات الهمس واللمس وشبشبات الشفاه وهي تقبل كافة الجسد بحنية؛ اعترافًا بالرضا على تلك الراحة...

فقط نوال هي التي تكون وحيدةً في تلك اللحظة الفوضوية المليئة بالأنشطة الجسدية دون رفيق يطويها على صدره، ويعبث بحاجاتها: أسفلها وأعلاها بطريقة جنونية إلى حين ينتشي جسدها، وتبلغ ذروتها الأخيرة، تلك المرحلة التي تغيب فيها عن الوعي الإدراكي...

إحساس خيالي تخلو فيه الواقعية تلك اللحظة التي يطلق عليها البعض مهرجان متعة الجسد. تشعر لحظتها وكأنك وُلِدْت من جديد، أو أنك في جنة الفردوس...

كانت نوال تستمتع بصدى تلك الآهات الصادرة من الزوايا المظلمة. كانت حاسة سمعها تلتقط الأصوات جميعًا، لكنها كانت تفضل سماع صرخات ليزا، وهي تداعب وتلاعب أعضاءها المثيرة ما بين عصر نهديها بيدها اليمني، تارةً تقوم بضغطها وتارةً أخرى تداعب تلك الحلمات المستديرة الصغيرة؛ التي يبلغ حجمها بذور التفاح...

أما يدها اليسرى كانت أكثر نشاطًا وفاعليةً، وتعمل بهمة وإذا بها تدفع إصبعها الوسطى إلى داخل الفتحة الواقعة بين فخديها، والعودة مرةً أخرى، وحاجباها يتشابكان معًا ويتباعدان عن بعضها البعض، وشفتاها هي الأخرى تتعرض لهجوم شرس من قبل أسنانها...

استمرت على هذا الحال تنعش جسدها تأخذ قسطًا من الراحة، وتعيد كرتها مرةً أخرى. كل تلك اللحظات الخيالية التي قضتها نوال وهي تسترق، وتلتقط بأذنيها أصوات صديقتها ليزا مع رفيقها توتو كافي لم تكن واقعيةً، وحين فشلت في الحصول على تلك اللمسة السحرية من المدعو توتو كافي قررت الحصول على غرضها مهما كلفها الأمر...

وبدأت تأخذ الجميع إلى السينما على نفقتها الخاصة. كانت على استعداد لفعل أي شيء لجعل توتو كافي يقترب منها، ويفعل بها مثلما يفعله بصديقتها ليزا، وحين يذهبون إلى السينما دائمًا ما كانت تجلس جوار توتو كافي، وهي تمارس أسلوب الإغراء والإغواء والإثارة، تارةً تتحسس سلاح توتو بيدها، وتارةً أخرى تضع أحد نهديها على كتف توتو؛ إلا أن جميع محاولاتها لم تمكنها من الوصول للهدف...

ظل توتو كافي ملتزمًا بوفائه لخطيبته ليزا، وليزا هي الأخرى كانت على أعلى درجة من الثقة بفحلها توتو كافي بالرغم من أنها قد اكتشفت من ذي قبل رغبة صديقتها نوال في توتو كافي، وأيضًا قد لاحظت نظراتها حين يكونون معًا ثلاثتهم لم تكن ترفع بصرها عن الفتى الكوشي.

رغم ملاحظتها كانت على ثقة بأنها لا تستطيع الحصول على رغبتها تلك، وبالفعل تجاهلها توتو كافي، وصار يهرب منها بعيدًا كلما حاولت الاقتراب منه أو الالتصاق به. في أغلب الأحيان لم يترك لها خيارًا آخر غير التراجع والتنازل عن رغبتها التي ستدفعها للجنون ببطء...

تركته وهي مستسلمة لسوء حظها. لم يقف القدر إلى جانبها حتى يتلاحم جسدها بجسد توتو كافي، فعادت إلى عملها السابق فتاةً للجميع،

وآلةً ممتعة لكل من يرغب في ذلك. جميع زبائنها كانوا أكثر شوقًا لعودتها، وسعداء للالتقاء بها مثلما كانوا من قبل...

أصبح جدولها العملي أكثر نشاطًا، وأصبح جسدها يلبي في اليوم الواحد رغبات شخصين أو ثلاثة. أصبحت كالدمية التي لا تشعر بالتعب أو الإرهاق أو الاكتفاء في أسوء الافتراضات. بالحق؛ صار جسدها لا يستجيب مع الآخرين حين تمارس معهم الجنس، فما زالت رغبتها سجينةً لشخص واحد.

كل تلك اللحظات التي قضتها في أحضان عملائها لم تستطع أن تنسيها رغبتها في الفتى الكوشي، ولم يغب عن ذاكرتها لحظةً. كانت تتخيل أي شخص يثب عليها بأنه توتو كافي لا غيره، واستمر هذا الحال يومًا تلوى الآخر حتى حبلت بالصدفة، وظهر على بطنها العلقة.

لا تعرف من هو أبوه الحقيقي. حتمًا إنه واحد من زبائنها الكثر، لكنها هي نفسها تجهل ذلك. كانت تعتقد أن البذرة التي ظهرت على بطنها هي من توتو كافي. توقفت عن عملها لكي تهتم بنفسها وبالذي في بطنها إلى حين فترة الإنجاب.

وقتها كان توتو كافي مشغولًا بعمله وإدارة محلاته التي أصبحت كثيرةً ومتعددةً، وأصبح مالك سلسلة من محلات مسح الأحذية، وبدأ يجني أموالًا طائلةً، تورد له نصيبه خمسين في المائة من الدخل من فرع...

وقبيل غروب الشمس يأتي إليه الجميع حاملين معهم ما استطاعوا جمعه في ساعات النهار؛ يجتمعون في المحل الرئيسي الذي يديره زعيمهم ومدير أعمالهم ورب عملهم الذي أتاح لجميع حاشيته عملًا شريفًا يساعدهم في اجتياز مشقات الحياة، يجارون الواقع الذي أصبح كجهنم يلتهم فيها الغني حقوق الفقير...

عمومًا؛ كان العمل يسير على أحسن حال، والدخل يزداد يومًا بعد يوم الجميع. كانوا سعداء استثناء زعيمهم توتو؛ تجده في بعض الأحيان مكتئبًا، ليس بسبب العمل وإنما بسبب ابتعاده عن ليزا جراء بقائها الدائم في المسكن والاهتمام بصديقتها نوال؛ التي أصبحت حبلى مؤخرًا.

سرعان ما خطرت له فكرة. ذهب إلى أحد المكتبات وجاء بورقة خاصة بالرسم وعلبة بأقلام الرسم بمختلف الألوان. جلس في إحدى الزوايا وبدأ يرسم وجه ليزا، وحين فرغ من رسم اللوحة اندهش جميع الحاضرين حين وقعت عيونهم على تلك اللوحة التي قام برسمها توتو كافي توًّا.

كانت اللوحة تحمل وجه ليزا وكأنها رُسِمَت على يد فنان تشكيلي له خبرة وموهبة في الرسم. كان الرسم طبق الأصل لا تختلف عن الطبيعية بشيء. بسرعة تدافعت حاشيته إلى المكتبة، وجاؤوا وفي يد كل واحد منهم ورقة وطالبوه برسم وجوههم.

لم يرفض توتو كافي طلب رفقائه، وبدأ يرسم وجوه الجميع واحدًا تلوى الآخر يستوقف من يريد رسمه أمامه حتى يتمكن من وضع كل اللمسات، ويصرفه، ويأتي بالآخر...

وبعد مرور وقت طويل استطاع إنهاء رسم وجوه جميع أصحابه، وقام بإعطاء كل منهم صورته الخاصة به. استغرب الجميع وقالوا له: «أنت ساحر؛ تمتلك موهبةً نادرةً في الرسم»...

وضع الجميع صورهم في الحائط الذي كان بجوارهم، ولم تمر ساعات من الوقت حتى امتلأ الموقع بالحشود، وتجمهروا أمام الموقع، بعضهم أصحاب محلات، وآخرون جاءت بهم الطريق. كل من وقع بصره على تلك اللوحات أُصِيب بالدهشة والاستغراب جراء موهبته...

وصار كل منهم يريد رسمه الخاص به، وبدأ الجميع يطلب من توتو كافي القيام برسمه. أخبرهم أن هذا الأمر لا يتم على سهل، وطلب من جميع الراغبين إحضار صورة فوتوغرافية لكي يتمكن من رسم اللوحة من خلال الاعتماد على الصورة...

غادر الجميع دون احتجاج، وفي صباح اليوم الثاني أحضر ما يقارب الخمسة أشخاص الصور الخاصة بهم، ودفع كل منهم أتعاب الرسم مقدمًا. في بادئ الأمر حدد توتو كافي أتعابه، وسعر اللوحة التي يقوم برسمها بخمسين جنيهًا سودانيًّا مقابل الرسم الواحد...

وبدأ عمله يزدهر يومًا بعد يوم، يجيء إليه الناس من أماكن بعيدة، بعضهم جاؤوا عن طريق بعض الزبائن؛ الذين امتلكوا رسوماته، وآخرون يعودون إليه مرةً أخرى بصور أجدادهم وآبائهم الذين رحلوا من هذه الحياة؛ آملين الحصول على لوحة تذكارية كبيرة تحمل وجوههم التي غابت عنهم حين غرة...

كان الجميع سعيدًا بأعمال توتو كافي، لكن رفيقته ليزا كانت أكثرهم سعادةً. كانت تقضي أكثر من الساعة أمام اللوحة التي رسمها لها حبيبها توتو كافي. في بادئ الأمر أُصِيبت بالذهول، ولم تصدق أن رفيقها توتو كافي يجيد الرسم بتلك الدرجة الاحترافية.

لقد أحبت تلك اللوحة التي تحمل وجهها وشخصيتها. الآن قد تحققت أمنيتها التي حُرِمَت منها من قبل حين ذهبت مع توتو كافي إلى أحد الاستوديوهات للحصول على صورة تذكارية، إلا أن صاحب الأستوديو لم يرحب بهم كبقية البشر، ربما بسبب ملابسهم المتسخة تلك، وشعرهم الكثيف والمتسخ أيضًا.

كان مظهرهم يدل على أنهم مشردون، فقام بطردهم. لقد مضى على تلك الحادثة التي تعرضا لها عام تقريبًا، لكن ليزا وحبيبها توتو كافي لم ينسيا تلك الطريقة الوحشية التي تعرضا لها. لقد أشبعوهما بالركل والدفر، ما زالا يتذكرانها بوضوح، ولم تغب عن ذاكرتهما قط.

ها هي الآن تمتلك لوحةً تذكاريةً، تحمل وجهها الجميل، لكن للأسف ما زال توتو كافي دون لوحة خاصة به. رغم موهبته في رسم وجوه الخلق جميعًا إلا أنه قد فشل في رسم شخصيته...

وفي يوم ما قرر الانتقام من الأستوديو الذي طُرِد منه، وقام بوضع خطة مع سبق الإصرار والترصد. أقسم على التسبب بإفلاس الأستوديو، ويحارب صاحبه اقتصاديًّا، وبالفعل انتقل إلى محل مهجور بجوار الأستوديو، وبدأ يزاول عمله على مقربة من الأستوديو.

كانت رسوماته معروضةً في المحل بطريقة منظمة متاحة للجميع يشاهدها المارة، خصوصًا المارين إلى داخل الأستوديو. استطاع جذب جميع القادمين إلى الأستوديو من أجل التصوير، وصار صاحب الأستوديو يعاني من أفعاله كثيرًا؛ فقد أضرت بأعماله، وبدأت رائحة الإفلاس تفوح من ذاك المحل...

وفي يوم من الأيام قرر صاحب الأستوديو وضع حد لتلك المهزلة التي يتعرض لها من قبل توتو كافي، وبدأت مشاكله تتفاقم يومًا بعد يوم؛ أعظمها إيجار المحل الذي فشل في دفعه، وأصبحت حياته جحيمًا لا يُطَاق؛ تصاحبه المشاكل أينما ذهب...

وبالفعل قام بدفع رشوة لشعبة النظام العام المسؤولة عن مكافحة الباعة المتجولين والفريشين، واستعان بهم من أجل مضايقة توتو كافي حتى يغادر ذاك الموقع، وتُتَاح له الفرصة لمزاولة نشاطه مثلما كان من قبل...

بدأت أفراد الشعبة تشن هجومًا على محل توتو كافي، وضايقوه لدرجة أنهم اتخذوا المساحة الشاسعة أمام المحل موقفًا لشاحنتهم؛ التي تحمل على متنها ما استطاعوا أخذه من الباعة المتجولين، وهي مليئة بمختلف الأشياء: البضائع والمأكولات والمشروبات، والكراسي الصغيرة التي تخص النسوة بائعات الشاي والقهوة في الأزقة والشوارع وأمام المحلات التجارية...

كم كان النظام قاسيًا وظالمًا لتلك النساء الشريفات حين ينتزع منهن وسيلة عملهن؛ التي توفر لهن لقمة عيشهن!

بالحق؛ ما تتعرض له تلك النسوة من قبل النظام شيء مخزٍ ومحزن. بالله عليكم إنهن يستحققن العناية والرعاية من أجل توفير احتياجاتهن لبناء مستقبل أبنائهن، وليس مثل تلك الحملات التي تقيمونها ضدهن. إنه سلاح حاد يدمر مستقبل أسرهن...

❁❁❁

15

عمومًا؛ لقد صادروا لوحات توتو كافي، واقتادوه إلى رئاسة النظام العام، وقاموا بعرضه على القاضي الخاص بالنظام العام، لكن القاضي لم يجد السبب الكافي لإدانته بالغرامة المالية، أو مصادرة لوحاته، فلا تنطبق عليه أي مادة لكي يُحَاكم مثل البقية أمثال بائعات الشاي والباعة المتجولين...

اعتذر القاضي لشعبة النظام العام قائلًا: «إن هذا الفتى فنان؛ لم يرتكب أي نوع من الجرم حتى يتم محاكمته»... والأسوأ من ذلك أنه طلب منهم عن يكفوا من مضايقته، وأعطى توتو كافي صورةً خاصةً به ولكل أفراد أسرته، وطلب منه القيام برسمها، وقال له من بعد: «خذ لوحاتك، وعد إلى عملك»...

حمل توتو كافي لوحاته وخرج سعيدًا، أما شعبة النظام العام ومالك الأستوديو أصابهم الحزن والأسى على حصول توتو كافي التشجيع من قبل القاضي، والآن أصبح له سلطة مخولة من سيادة القاضي، وأنه يفعل ما يحلو له، ومنذ تلك اللحظة أصبح لتوتو كافي سلطة تحميه من جور النظام العام بسبب موهبته، وصار أكثر نشاطًا بعمله...

ومع مرور الوقت أصبح مشهورًا بموهبته وفنه؛ تتردد على محله بعض المجموعات، أغلبهم فنانون تشكيليون، وأصبح له زملاء كثر؛ يقضي معهم ثلث أوقاته داخل مراكز الثقافة والمعارض التشكيلية، وصار يقضي جل أوقاته برفقة تلك الفئة من الشابات، وصار لا يهتم بخطيبته ليزا، وهي الأخرى بدأت تشعر بالقلق مؤخرًا على مصير علاقتها بتوتو كافي.

أصبحت علاقتهما تفقد وصالها يومًا تلوى الآخر. لقد تغير توتو كافي كثيرًا، وتغيرت معه أحواله التي اعتاد عليها الجميع، وأكثر ما كان يقلق ليزا هو التعليقات التي كانت تسمعها من بعض الشباب. سمعتهم عدة مرات يتهامسون بصوت منخفض ذاكرين بأن زعيمهم قد وقع في حب تلك الفتيات الجميلات، ومنذ تلك اللحظة بدأت ليزا تفقد صوابها؛ تقضي الليالي وهي تنتظر مجيئه... وفي يوم من الأيام عاد توتو كافي كعادته متأخرًا في حوالي الساعة الثالثة صباحًا، وحين سألته أين كان انفجر فيها غضبًا وهو يقول لها: «ليس لك الحق أن تسأليني أين كنت، وإنني لست ابنك الصغير حتى تسأليني مثل تلك الأسئلة السخيفة... إنني حر في حياتي أفعل ما يحلو لي دون أن يملي علي أحد»...

انهمرت الدموع من عينيها بغزارة، وقضت تلك الليلة بكاملها وهي تبكي بصمت، أما توتو كافي كان صوت شخيره يعلو بطريقة مزعجة وهو مستلق على فرشته المتواضعة، وغادر في صباح اليوم الثاني مبكرًا دون عادته متجاهلًا الجميع بما فيهم خطيبته ليزا؛ التي لم تعتد على مثل ذلك التعامل من رفيقها توتو كافي. لم يودعها كما كان يفعل سابقًا...

يومها لم تستطع ليزا البقاء في المسكن كما كانت تفعل مؤخرًا، خرجت من بعده بقليل، وسارت بقدميها حتى وصلت السوق الشعبي الذي لم يبعد كثيرًا عن مسكنهم المتواضع؛ ذاك الركن الذي يعمه الهدوء ساعات النهار، وحين يجيء الليل ويعود الجميع سرعان ما تتسرب من داخلها أصوات مخلوطة...

عمومًا؛ حين وصلت السوق الشعبي اتجهت إلى موقع حبيبها توتو كافي، وتابعت خطواتها حتى أصبحت على مقربة منه، وفجأةً وقع بصرها على مجموعة من الفتيات في الموقع، فتيات جميلات ينير وجوههن بريق بسبب الميك أب؛ الذي وضعنه على وجوههن.

كان عشيقها مُحَاطًا بتلك الصبيات الجميلات، وهن الأخريات تجمهرن من حوله، وبدأن يداعبنه تارةً بالملامسات اليدوية وتارةً أخرى يتغزلن به عبر الحديث، وأصواتهن كانت عاليةً وصاخبةً لدرجة كان جميع الشباب منزعجين منها، لكن ليزا كانت أكثرهم غضبًا وانزعاجًا، كما كانت أكثرهم تضررًا...

غادرت بسرعة، واتجهت إلى مكان إقامتهم حتى وصلت على مشارف دارهم قابلتها صديقتها نوال أمام مدخل مسكنهم، طلبت منها نوال مرافقتها إلى مشوار، فلم ترفض ليزا طلبها كما كانت تفعل في السابق، ورافقتها دون تردد.

فيما مضى كانت ترفض مرافقة صديقتها نوال في طلعاتها المشبوهة رافضةً أن تكون جزءًا من عملها ذاك، لكن اليوم لم تسألها إلى أين تريد سحبها، ربما بسبب الصدمة التي تعرضت لها من شخص وفت وأخلصت له طيلة حياتها...

لم تعرف في حياتها رجلًا آخر غيره، ومنحته قلبها وجسدها معًا منذ اللحظة الأولى التي التقت به، ولم تفكر في يوم التخلي عنه، ولم تفكر في إقامة علاقة جسدية مع رجل آخر إلى حين رأته بأم عينيها وهو يخونها مع تلك الفتيات البرجوازيات المسرفات؛ بنات الذوات ممن باستطاعتهن صرف مبالغ طائلة في الميك أب والإكسسوارات، إضافةً إلى ذلك السيارات الفارهة التي يقدنها...

جميع هذه الأشياء التي ذكرناها يجعل من ليزا تحس أنها ليست ندًّا لتلك الفئة من الفتيات المدللات، وأنها لا تقدر على منافستهن للحفاظ على حبيبها توتو كافي؛ الذي غرق في عالمهن بأنفه، لا يهم الأمر إن كان بإرادته أو دونها.

قررت ليزا الابتعاد عنه على قدر المستطاع، وأنها لا ترغب خوض تلك المعركة الخاسرة. في آخر المطاف إنها فتاة بسيطة ومشردة؛ مظهرها

متواضع، لكنها لم تكتشف بعد أنها تمتلك جمالًا طبيعيًّا تفتقر إليه تلك الفئة البرجوازية التي تغولت على عشيقها...

توتو كافي؛ ذاك الشخص الذي كانت تعتبره طبيبها الخاص يداوي جميع جراحها، ويمدها بدفء حين يشتد عليها البرد وهم في العراء دون غطاء؛ يداعبها حين ترغب بذلك، ويستطيع أن يوفر ما يحتاج جسدها وعقلها، كان يشبع جميع رغباتها ،إن كانت في الطعام أو رغبة جسدها العارم.

ليزا فتاة نادرة ومثيرة، ليس لها مثيل. بالحق؛ إنها تمتلك كل مقومات الجمال رغم أنها لم تتمكيج، ولم تضع تلك المساحيق التي تُسَمى الميك أب، إلا أن جمالها كان واضحًا ومحسوسًا وجهها مستدير، وإذا نظرت إليه يعتريك إحساس وكأنك ترى وجه طفلة صغيرة لم تبلغ بعد...

والأجمل من ذلك أنك ترى الابتسامة الدائمة على وجهها كلما وقعت عيناك عليها، وعيناها بيضاوان واسعتان، أما شفتاها فصغيرتان تخر بالندى؛ تشد الناظر لتقبيلها، وشعرها ناعم ذو سواد داكن؛ يداعب كتفها حين تهب الرياح، أما خدودها فخمرية اللون، وأكثر نعومةً، ورقبتها طويلة ومموجة...

قوامها فارع، ليست مكتظةً وممتلئةً ولا ضعيفةً كالجرباء، جسدها متوسط، خصرها واسع ومتناسق، أما صدرها بارز إلى الأمام. كل تلك الصفات تجعلها مرغوبةً لدى جميع الرجال، خصوصًا من وقعت عليها عيناه...

شقتا شوارع عديدة حتى وصلتا إلى مقهى لبيع الشاي والقهوة تخص إحدى صديقات نوال. كانت واقعةً بين مجموعة من الورش أغلب زبائن ذاك المقهى هم عمال تلك الورش المتنوعة، منهم الميكانيكية والكهربجية والسمكرجية والبوهيجية وأصحاب المهن الهامشية مثل تركيب الزينة ومظللي زجاج السيارات، وغيرهم...

سلمتا على صاحبة المحل بالأحضان والتقبيل على الخدود، وجلستا على مقربة منها. كان المحل مليئًا بالزبائن بعمال تلك الورش. كان في وسطهم أحد الشباب يُدْعَى صابر، وهو من ألد أعداء نوال، وكانت تكرهه بشدة لدرجة أنها حرمته من جسدها الذي منحته لجميع عمال تلك الورش.

رغم أنه حاول بشتى السبل الحصول على تلك اللحظة إلا أنها فشلت جميع محاولاته للابتغاء بجسد نوال، وفشلت معها كل المحاولات التي تمت من قبل أصدقائه المقربين الذين بذلوا الكثير من الجهد لجمع جسدين متباعدين ومتنافرين؛ أحدهما يرغب بأحضان الآخر بشدة، وآخر يحمل قلبًا تملؤه الكراهية اتجاه الآخر.

وحين سألوها عن سبب كراهيتها قالت: «أهون لجسدي أن تلتهمه النار أو يُشْوَى بها من أن يلتصق به الفتى صابر، ويعبث بأعضائي»...

كان الجميع مشغولًا بمواضيع خاصة بأعمالهم، لكن الشاب صابر كان مشغولًا بإثارة غضب الفتاة نوال، وبدأ يسخر منها قائلًا:

- لقد امتلأ القطار تمامًا، وأصبح على وشك الانفجار.

بالحق؛ إنه كان يقصد بطنها المستدير والمنتفخ كالبالونة، لقد بلغت شهرها السابع، ولم يبق لها الكثير من الوقت حتى تفرغ ما في بطنها. لم يحترم صابر صمتها، وظل يردد سخريته تلك حتى أثار غضبها، وقالت له بطريقة خبيثة:

- ما رأيك عن أخبر الشخص الذي شحنني كي يشحنك أنت الآخر؟

ليتها لم تقل ذلك. ما قالته الفتاة نوال لصابر صار كارثةً داخل المقهى، وهي في قمة السخط اللفظي. هرب جميع من كانوا داخل المحل،

وبعضهم لم يكمل فنجان القهوة الذي كان أمامه، أما المدعو صابر خرج مسرعًا من الموقع...

وبعد مرور ساعة خرجت نوال وفي صحبتها ليزا، وتوجهتا إلى أحد الاستراحات الخاصة بالشاحنات التي تعمل في الطريق الغربي. كانت عبارةً عن موقع جراج كبير خاص بالشاحنات، وفيها بعض الغرف السكنية الخاصة بالسائقين.

سلكتا العديد من الطرقات حتى وقفتا أمام باب ذاك الجراج، كان الباب ضخمًا وشاسعًا ومثقلًا بالحديد الصلب. كانت المنطقة هادئةً تخلو شوارعها من المارة لدرجة أنك لن ترى شخصًا يسير ويتحرك في طرقاتها. كانت مهجورةً كليًّا بسبب المصانع القديمة والمهجورة معًا. اقتربت نوال من ذاك الباب العملاق، وقامت بطرقه عدة مرات.

لم تمر ثوانٍ حتى فُتِح ذاك الباب، وحين استبانت الوجوه ظهر رجل في الأربعين، وأخذ نوال إلى حضنه، وهو يقول لها:

- لقد اشتقت إليك أيتها الشقية...

ضحكت نوال بصوت صاخب، وقامت بلمس خد الرجل اليمين بيدها اليسرى، وهي تقول له:

- أنت ملك السخط، وسلطان الشقاوة، وإنني لم أبلغ مرحلتك.

- (بابتسامة مليئة بالمكر) لا تنسي؛ ما نزال نحن الرجال تلاميذ الشيطان، أما أنتن النساء فهو تلميذكن، وأنتن أساتذته، وما زلتن في هذه الصدارة دون منافس. بالحق؛ إنكن تستحققن هذه الصفة بجدارة، تقدن الأشياء والرجال بمهارة فائقة وباحترافية عالية.

- (بابتسامة) إذًا؛ احترس من النساء، ولا تعبث يومًا مع إحداهن.

وضع الرجل الأربعيني يده اليسرى على قلبه، وأمسك بالأخرى أذنه اليمني وهو يقول لها:

- سمعًا وطاعة.

وعقب ذلك طلب من نوال وليزا أن تمضيا إلى داخل الجراج، تحركوا جميعًا نحو الغرف، لكن ليزا كانت بطيئة الخطوات بسبب التوتر. إن الأمر يبدو بالنسبة لها غريبًا. إنها لم تعتد عليه من قبل، كما أنها لم تقم بمثل هذه النزهة الاستثمارية لبيع جسدها للراغبين في المتعة...

ولحسن الحظ لم يكن يومها الجراج مليئًا كعادته بالشاحنات السفرية وسائقيها، وإنما وجدتا فقط شخصين؛ أحدهما الرجل الأشيب وهو في الأربعين، ورغم كبر سنه ما زال يعمل مساعدًا لتلك الشاحنة المتوقفة داخل الجراج، والآخر شاب لم يتجاوز الثلاثين بعد، وهو سائق تلك الشاحنة.

كان نائمًا داخل الغرفة بملابسه الداخلية، وارتبك حين دخلوا عليه ثلاثتهم: صديقه الأربعيني والفتاتان نوال وليزا، تخبط وارتدى ملابسه بسرعة، وقد أصابه الخجل، ومن الوهلة الأولى عرفت الفتاتان أن هذا الشاب مختلف تمامًا عن البقية، وليس من الصنف المعتاد على فعل ذلك.

كانت ملامحه تدل على الاستقامة على عكس صديقه الأربعيني الذي أصبح مسخوطًا لدرجة إدمانه التام على ممارسة الجنس أينما قذفت به الأقدار، لم يؤنبه ضميره على خيانته المتواصلة لزوجته. نعم؛ إنه متزوج من ابنة عمه منذ بلوغه العشرين، وهو الآن أب لخمسة أطفال ذكور وإناث.

جلسوا جميعًا داخل تلك الغرفة. كان الأربعيني ملتصقًا بنوال، وبدأ يغازلها عبر الحديث، وتارةً أخرى يداعبها بيده الجريئة حتى بدأت تمس

جميع المناطق ما ظهر وما بطن منه المتاح له والمحظورة منه. ظل يعبث بأعضاء نوال بطريقة فوضوية حتى استرخت هي الأخرى، وبدأت قواها تنهار ببطء.

رمقته بعينيها وهمست في أذنه بصوت منخفض، وقالت له: «دعنا نذهب إلى الغرفة الأخرى»، ووقفت على قدميها، وإذا بها قد أمسكت الرجل الأربعيني من يده وسحبته خلفها إلى الغرفة الأخرى إلى حيث تتوفر لهما الحرية المطلقة ليفعلا ما يريدان فعله بحرية تامة...

وخرجا مخلفين ليزا برفقة السائق اللذين كانا متباعدين عن بعضهما البعض لكن رغباتهما كانت عكس ذلك. كانا على جمر من نار للالتحام والالتصاق ببعضهما البعض، ونظراتهما الأخرى كانت تعبر عن رغباتهما العارمة تلك.

بدأت ليزا تسترق النظرات بطريقة خفية، تسحب بصرها خجلًا حين يرمقها السائق بنظرة، ومع مرور الوقت لم يستطع الشاب رفع بصره عن الفتاة ليزا، ظلت عيناه تراقب ليزا عن كثب، وسرعان ما تبدلت الأحوال...

اقترب منها الشاب والتحم جسده بجسدها، وبدأت يده تزحف كالحية فوق جسد ليزا بدايةً من منطقة السرة، وتوغلت إلى الأعلى حتى وصل عند صدرها عند ذاك الجبلين التوأمين، وبدأ يلاعب ويداعب نهديها حتى تسارعت نبضات قلبها، وسرعان ما انفجرت رغبتها، وبدأت تصدر آهات بصوت رخيم، وأصبح الجسدان يتحركان بفوضوية...

قبلها السائق عدة قبلات في مناطق شتى في جسدها أغلبها كانت في مناطق حساسة، الجانب الأيسر والأيمن من رقبتها، واستمرت شفتاه وهي تقبل كل شيء أمامها؛ حتى استقرت على شفاه ليزا، تلك الشفاه الصغيرة النادرة الرطبة، وظل يقبلها بشغف بطريقة جامحة...

وبعد مرور وقت قصير منحته ما تبقى من جسدها وهي تباعد فخديها ببطء؛ حتى اتسعت تلك المساحة ما بين ساقيها وأصبحت شاسعةً كافيةً ليتوغل فيها جسد السائق دون مشقة. لقد أذنت له وأعطته حق التصرف بجسدها بفنية وحنية، وبدأ الشاب باستخدام سوئه باحترافية، وبعد وقت طويل وصلت أجسامهما ذروتها الأخيرة...

استلقى الشاب على مقربة منها بجوارها، وأراح الاثنان جسديهما لبعض الوقت، وأعادا كرتهما مرةً أخرى حتى بلغا المرحلة الثالثة، وفي آخر المطاف قرر الاثنان التوقف عند هذا الحد وبدآ في تجاذب أطراف الحديث.

فجأةً راح الشاب يطلب منها الزواج:

- هل تقبلين الزواج مني؟

- (وبعد صمت دام بضعة ثوانٍ) نعم؛ إنني أقبل الزواج منك... كم أنا محظوظة وسعيدة، فلم أجد في حياتي أفضل منك...

وقتها دخل عليهما الرجل الأربعيني وبرفقته نوال بعد غيابهما الكثير من الوقت في إحدى الغرف المجاورة، وهما في طريقهما إلى الداخل سمعا الحديث الذي دار بين الشاب وليزا، وفرح الرجل الأربعيني حين سمع رغبة صديقه في الزواج من تلك الفتاة ليزا، لأن نوال أخبرته قصتها وعشيقها الفتى الكوشي توتو كافي، وإنها ظلت وفيةً له طيلة حياتها، ولم تخنه في يوم ما، ولم تعرف في حياتها رجلًا غيره حتى رأته يخونها بعينيها...

ومن جهة أخرى فرحت نوال بقبول صديقتها عرض الزواج الذي تقدم به الشاب، وباركت لصديقتها ليزا قائلةً: «ألف ألف مبروك يا صديقتي»، جلست على مقربة منها وأمسكت يدها وقالت لصديقتها ليزا: «هذه هي

الحياة التي تستحقينها، أنت جميلة وأنيقة، ولا تناسبك حياة الشوارع، والأهم من ذلك لا أريدك أن تصيري مثلي تبيعين وتبيحين جسدك للجميع، وتفسدين روحك وجمالك معًا»...

لم تكن فرحة نوال وسعادتها تلك نابعةً من قلبها بصدق، بل نابعةً من دافع الأنانية، وتفوح منها رائحة الغدر والخيانة من أجل الانفراد بتوتو كافي بالرغم من أنها فشلت الكثير والكثير من المرات في الحصول على ذاك الفتى الكوشي، لكنها ما زالت على هدفها ذاك؛ لم تتنازل عنه بعد رغم تعرضها للفشل...

الآن قد بدأ الحظ يبتسم لها، وأصبح طريقها للاقتراب من توتو كافي متاحًا، وأكثر سهولةً، وصارت لوحدها دون منافس أو منازع لأن عشيقته ليزا انفصلت عنه توًّا، والآن تستعد لمغادرة الخرطوم مع حبيبها الجديد؛ ذاك الشاب الثلاثيني، ولم يبق على مغادرتهم الخرطوم نهائيًّا أكثر من ساعتين.

لم تحتمل نوال الانتظار كثيرًا. ودعت صديقتها ليزا وداعًا نهائيًّا لأنها لن تلتقي بها في القريب العاجل، وخرجت بسرعة من داخل الجراج، واتجهت إلى مسكنهم المعزول. سلكت العديد من الطرقات، ورغم حملها وثقل جسمها كانت رشيقةً. سارت بخطوات سريعة جرفتها قدماها بلهفة، وكأنها تريد الركض للوصول إلى المخبأ السري.

وحين وصلت قلعتهم الخاصة وجدت بعض الشباب بصحبة عشيقاتهم وهم جالسون على مجموعات زوجية. نظرت بعينيها بحثًا عن توتو كافي. تجولت ببصرها على جميع الزوايا، لكنها لم تجده في الأركان كافةً، وبسرعة سألت أحد الشباب الأقرب إليها قائلةً:

- أين توتو كافي يا جاموس؟

- تركناه في السوق. ربما هو في طريقه للعودة.

اتجهت صوب الزاوية الخاصة بتوتو كافي وصديقتها ليزا إلى حيث فراشهم الخاص، وبدأت ترتب تلك الفرشة باهتمام، وبعد فراغها جلست بجواره، ووضعت أحد ساعديها، وبحرت بخيالها وهي تتخيل بأن القدر قد جمع بينها وبين توتو كافي، وصارت تتخيل بأنه جلس على مقربة منها، وبدأ يستلطفها بالكلام ويغازلها بحديث رومانسي.

دخل عليها توتو كافي وألقى عليها التحية إلا أنها لم ترد على تلك التحية. اقترب منها توتو كافي، وقام بهزها عدة مرات بيده. ارتبكت، ووقفت على ساقيها وعلى شفتيها ابتسامة، واسترقت النظرات الخجولة بعينيها الذكيتين على عكس رغبتها الداخلية التي كانت على استعداد تام لاحتضان توتو كافي.

عضت شفتها السفلية وغمزته بعينها وقالت لتوتو كافي بصوت عذب بسحر أنثوي:

- هل وصلت يا حبيبي؟

وعندما سمعها توتو كافي اندهش كثيرًا حين سمع بأذنيه كلمة حبيبي، تحدث في سره: «يا إلهي؛ ماذا تقول هذه الفتاة؟ هل هي على طبيعتها؟ أم أنها قد تعاطت شيئًا ما؟»... لكنه تراجع وتجاهل تلك الكلمة، ربما حسبها جاءت عفويةً دون قصد، ثم اقترب منها وسألها:

- أين ليزا؟ لم أرها.

- (بنظرة مثيرة) لا أعلم، لم أرها منذ صباح اليوم.

يا إلهي! كم هي منافقة! لقد كذبت على توتو كافي توًّا ناكرةً أنها قضت معها النهار بطوله، بل في الحقيقة هي التي اقتادتها إلى ذلك الجراج؛ حيث التقت بسائق الشاحنة، وتركتها معه.

والأسوأ من ذلك أنها تعلم بأنهما سوف يغادران العاصمة بعد ساعتين من مغادرتها، ويشدون رحالهم، وها هم الآن وصلا أطراف الخرطوم، وهم على وشك الخروج ومغادرة العاصمة، ربما بعد دقائق وجيزة ستعبر شاحنتهم البوابة الجنوبية التابعة لولاية الخرطوم...

كانت ليزا مستلقيةً فوق السرير المتواجد داخل كبينة الشاحنة الواقعة في الجانب الخلفي من حيث مقعد السائق، أما المساعد ذاك الأشيب الأربعيني كان جالسًا في مقعده المخصص له في الجانب الآخر من حيث مقعد السائق. كان وجهه شائبًا تظهر فيه ملامح التعب والإرهاق بسبب ما فعله في ساعات النهار مع تلك الفتاة الحابلة نوال...

وحين وصلا البوابة توقفت الشاحنة جانب الطريق لعمل إجرائي، نزل الرجل الأربعيني واتجه إلى غرفة الكنترول للحصول على توقيع من ضابط المرور السريع، لكنه استفرغ بعض الوقت حتى تضايق سائق الشاحنة من تأخره، وبدأ يراقب خروجه من الغرفة بقلق شديد حتى لمحه خارجًا من تلك البوابة. أطلق له البوق ولوح له بيده عدة مرات يطلب منه الإسراع، لكن الرجل الأربعيني تجاهل السائق ومضى بخطواته البطيئة حتى وصل إلى الشاحنة.

وتحركت الشاحنة بسرعة وهي تشق طريقها إلى كوستي. سرعان ما بدأ الرجل الأربعيني يصدر صوت الشخير بطريقة مزعجة، وظل في نومه حتى وصلت الشاحنة مدينة ربك. أيقظه السائق، وطلب منه الترجل من الشاحنة لتناول وجبة العشاء، وقال للفتاة ليزا:

- انزلي يا جميلة، ودعينا نتناول العشاء.

- اذهبا أنتما. سوف ألحق بكما. لن أتأخر كثيرًا، فقط أحتاج لدقيقتين لكي أرتب نفسي.

جلس السائق ومعه الأشيب في أحد الترابيزات التي كانت منتشرةً خارج المطعم لم يبتعدا عن شاحنتهم المركونة على ضفاف الطريق العمومي، فقط مسافة قصيرة تفصل ما بينهما وبين شاحنتهما لدرجة أن الفتاة ليزا تسمع حديثهما وهي داخل كبينة الشاحنة.

كان حديثهما خاصًّا بالرجال لا يعنيها بشيء، لكنها باتت مهتمةً بحديثهما لأن موضوعهما بطريقة أو أخرى ذكرا فيه صديقتها نوال حين سأل السائق صديقه الأربعيني وهو يقول له:

- إنني ما زلت على حيرة.

- بخصوص ماذا؟

- بخصوص ما حصل بينك وبين تلك الفتاة الحبلى نوال... كيف مارست معها الجنس وهي بتلك الحالة؟

- (بضحكة ساخرة) هل تعلم يا صديقي أن ممارسة الجنس مع امرأة حبلى ممتع جدًّا؟

- (باندهاش) بالله عليك؛ أيُعْقَل هذا؟

- نعم؛ ولم لا؟ أنا شخصيًّا أفعل ذلك باستمرار مع زوجتي. دائمًا ما أفعل معها ذلك حتى أصبحت مدمنًا بها.

حينها وصلت الفتاة ليزا، وجلست على الكرسي. ذهب المساعد الأربعيني إلى الكاشير، وقام بطلب أصناف من الأكل، وعاد إلى حيث مقعده.

لم يمر الوقت كثيرًا جاء فتى الخدمات وفي معيته جميع أصناف الأطعمة التي طلبها الأشيب، وقام بوضعها فوق التربيزة التي كانت تتوسطهم. التفوا حول تلك المائدة وتناولوا تلك الأطعمة بصمت وهدوء، ثم انطلقوا

بشاحنتهم بعد فترة وجيزة من انتهائهم من الطعام وبعد أراحوا خلالها أجسامهم المرهقة جراء رحلتهم الشاقة والطويلة معًا.

طول تلك الرحلة كانت ليزا شاردة الذهن وهي تفكر في مصير توتو كافي الذي هجرته فجأةً. لم يعلم بعد بأن عشيقته ليزا قد تركته دون أسف أو ندم، وهي الآن تمضي برحلتها إلى حيث أقاصي الأرض مع شاب آخر.

لقد أصابه التوتر والقلق صار يسأل الجميع عن فتاته ليزا، لكنه لم يجد عندهم ما يشفي غليله. جميعهم أكدوا عدم رؤيتها، فخرج يبحث عنها في جميع الأماكن التي ترتادها. نفى الجميع رؤيتهم ليزا فأُصِيب بالجنون، وبدأ يبحث في الأركان المظلمة والأزقة الضيقة المهجورة، وحين وصلت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل استجمع قواه المنهارة وعاد إلى قلعتهم المعزولة عن السكنات.

وجد الشباب مع رفيقاتهم كل على حده، منهم من كان مستلق على فرشته يحتضن حبيبته، وآخرون ما زالوا يسامرون بعضهم البعض. كانوا سعداء في جلستهم التي يجتمعون فيها كل ليلة. تلك الساعة يعتبرونها الفرصة السانحة ليجتمعوا فيها جميعًا، والمخففة عنهم رهق ومشقة الحياة، والمنسية عذاب الحياة وقسوته، إلا أن توتو كافي كان على عكسهم في تلك الليلة.

مر بجوارهم وهو يجر ويسحب قدميه على الأرض ببطء بسبب المجهود الذي بذله في البحث عن حبيبته ليزا. دخل إلى ركنه الخاص حيث مكان مرقده، وقام بإلقاء جسمه بإهمال فوق فرشته. رفع الغطاء وغطى به جسمه.

رغم محاولاته العديدة للنوم، لكن النوم بخل وتكابر عليه، وظل ساهرًا ليلته دون أن تغمض عيناه حتى أشرقت شمس الصباح، وفي صباح الباكر غادر الموقع مبكرًا للبحث عن معشوقته ليزا فتاته التي رافقته سنينًا عديدة، ولم تغب عنه ليلةً واحدةً طيلة السنين التي قضوها معًا.

بحث عنها في جميع أزقة السوق العربي يومًا بعد يوم، وبدأت حالته تزداد سوءًا. أصبح كالدرويش يسأل عنها الجميع، لكنه لم يجد الإجابة التي تريحه من عذابه ذاك. مرت عليه أيام دون أن يضع في فمه الطعام، وتغيب عن عمله عدة أيام. كان يخرج من المسكن مبكرًا، ويعود بعد منتصف الليل، وقد أصابته الحمى جراء بحثه المكثف أثناء النهار تحت رحمة تلك الشمس الحارة...

وبعد شروق الشمس بقليل دخلت عليه نوال وهي تتأسف وتقول له:

- إنني نادمة على ما فعلته.

- ما الشيء الذي فعلته حتى تندمي عليه؟

- لقد كذبت عليك حين أنكرت وقلت لك لم أرى حبيبتك ليزا في ذاك اليوم.

نهض توتو كافي من فراشه بسرعة. خطى خطوتين حتى أصبح على مقربة منها، وقام بهزها عدة مرات، وهو يسألها بطريقة مكررة:

- أخبريني أين هي الآن؟

انفجرت عيناها بالدموع وقالت بصوت حزين:

- أعتقد أنها قد وصلت الآن مدينة نيالا.

- ما السبب التي جعلها تسافر إلى نيالا؟ متى سافرت إلى هناك؟ وما الشيء الذي استقلته في سفرها إلى تلك المنطقة الغربية؟

وبدأت الفتاة نوال تجيب على جميع الأسئلة التي وجهها إليها توتو كافي بعد استفراغها بضعة لحظات وهي تمسح الدموع التي انهمرت من عينيها على خديها...

- لقد تزوجها شاب سائق أحد الشاحنات التي تعمل في الطريق الغربي، رافقته ليزا وسافرت معه بشاحنته. لقد غادرا الخرطوم عصر ذاك اليوم التي غابت فيه.

استشاط الفتى الكوشي غضبًا وطلب منها تفاصيل أكثر دقةً.

– هل تعرفين اسم السائق الذي تزوجها؟

– (بنظرة حزن) إنني آسفة كثيرًا على ما فعلته. (وبنبرة باكية) صدقني إنني عاجزة تمامًا عن مساعدتك، لأنني لا أعرف اسم ذاك السائق الذي تزوج بها.

وظلت تبكي بكاءً متواصلًا حتى استفرغت ما يقارب الربع ساعة، فجأةً تذكرت وسيلةً يمكن أن تساعد بها الفتى الكوشي. توقفت عن البكاء ونادته بصوت عالٍ، فحضر إليها توتو كافي بسرعة ووقف بجوارها. نظرت إليه وقالت:

– لقد تذكرت اسم المساعد، إنه يُدْعَى أبكر، وملقب بأبي جاكومة، وإذا سألت عنه جميع سائقي الشاحنات الغربية سيدلونك عليه، لأنه مشهور في أوساط تلك الفئة.

قذف توتو كافي ما بيده وخرج من مسكنهم راكضًا، واتجه إلى حيث موقف الشاحنات الغربية. سار بسرعة كبيرة ما بين ركض وخطوات سريعة، وبعد دقائق وصل إلى موقف الشاحنات الواقعة في ميدان شاسع تحيط من جانبيها أبنية جميلة أشبه بالقصور الملكية...

إنها تبدو منازل سكنية خاصة بالطبقات البرجوازية الانتهازية، وحين تتجول ببصرك أمام تلك القصور ذات المنافذ الزجاجية يقع بصرك على صفوف من السيارات الفارهة، وهي حديثة الصنع بماركات مختلفة وموديلات حديثة لم يمض على صناعتها عام. إنها تخص قاطني تلك المنازل العملاقة بطوابقها المتعددة، وغرفها العديدة...

وبالله عليك حين تجرفك الأقدار وتقف على تلك الحارات والأحياء الخاصة بالطبقة البرجوازية تبهرك تلك الأبنية الإسمنتية، وحين تأخذك

الأقدار إلى البقاع الأخرى حيث الفقراء والمهمشون حيث البيوت الطينية والرواكيب المخلفة بالكراتين تكتشف اختلافات وتناقضات عديدة يُصَاب المرء بسببها بالجنون، وينفجر عقله من التفكير قبل أن يصل إلى مبتغاه، وقبل أن يكتشف الأسباب المخزية والمزرية التي اتخذتها فئة الأقلية ضد الأغلبية؛ حتى وصلت إلى ما هي عليه الآن.

بالحق؛ إنهم لصوص وسارقون بالفطرة مثلما قال القائل بلسانه: «أقسم بالله إنهم أحفاد وأبناء علي بابا، إنهم ما زالوا يمارسون تلك الأفعال الساخطة والشنيعة على الآخر، لم يكتفوا بعد ولم يكفوا بعد من السلب والنهب والاختلاسات حتى بعدما امتلأت وانتفخت بطونهم، لدرجة أن رجالهم صاروا كالنساء الحبلى وهن حاملات داخل بطونهن توأمين ليس بواحد فقط...

لكن ما يؤسفني كثيرًا أن المرأة الحابل تلد جنينها بفارق عشرين ليلةً قبل بلوغها الشهر العاشر، على عكس الرجال يظلون ببطونهم تلك إلى أن ينقضي نهبهم...

وأيضًا إنهم الآن يقودون سيارات ذات الدفع الرباعي التي استبدلوها بوسائلهم النقلية التقليدية السابقة. فيما مضى كانوا يمتطون البعير والحمير دون مسند عازل تجنب مؤخراتهم الاحتكاك بظهر ما يركبونه...

وأيضًا لقد هجروا رواكيبهم التي كانت مشيدةً تحت جذوع الأشجار العملاقة الموجودة في تلك السهول والبراري البعيدة التي ارتحلوا منها عن قريب، وها هم الآن أقاموا قصورًا عاليةً، واستبدلوا أخراجهم التي كانوا يختزنون داخلها بعض الجنيهات وبقايا السكر والشاي وبعض الدقيق، وجاؤوا بالخزائن الضخمة التي ملأوها بأموال باطلة؛ تحرم عليهم لأنها ملك لغيرهم.

بالحق؛ إننا في عالم غريب ومتناقض جدًّا، بعضنا يموت بأمراض سببها الإكثار والإفراط في الأطعمة وشبع ليس من بعده شبع، لدرجة أنهم يلقون بقايا طعامهم للكلاب الضالة والقطط المشردة، وآخرون يموتون بأمراض ناتجة عن كثرة الجوع وسوء التغذية...

بمعنى؛ هناك من تصرخ بطونهم من شدة الشبع وآخرون تصرخ بطونهم من شدة الجوع. فينا من يعاني ويُهَم كيف يتخلص من بقايا الأطعمة التي تناولها، ومنا من يعاني ويُهَم كيف يوفر الطعام الكافي لبطنه الفارغة.

إننا في واقع متناقض؛ تعيشه طبقتان مختلفتان وإحداهما الطبقة البرجوازية صاحبة المادة والسلطة معًا؛ يدعون بإيمانهم بالخلق لكنهم في الحقيقة لا يعرفون إلهً آخر غير المادة، يعبدونه دون غيره...

لكن ما يدعو للسخرية أنهم دائمًا ما يدعون على أنهم أسوياء وأقوياء على الآخر، ويفتخرون بما توصلوا إليه الآن من بناء السرايا والأرصدة البنكية والسيارات الفارهة، ويحسبونها باقيةً لهم إلى يوم يُوعَدون...

لكن حتمًا ستهتز تلك الإمبراطورية الكاذبة في يوم ما بقسوة؛ حتى تسقط سقوطًا ليس بعده سقوط، وتنهار أبراجهم وتعود إلى أنقاض وبقايا تطفو على سطح الأرض، لأننا مؤمنون بأن الباطل لا يدوم بقاؤه مهما طالت عليه الدهور والأزمنة...

وإننا موعودون بعصر التحررية، وحين يجيء زمانه سوف نصرخ بأصوات عالية لنقول: كفى منكم ومن سياساتكم الجائرة، وتبًّا لثقافتكم التافهة، وسحقًا لأهدافكم القذرة التي بُنِيت بأنانية لضمر هوية الأغلبية، والتسيد عليها.

بالحق؛ إنكم قد ارتكبتم جرمًا ليس من بعده جرم. إنكم متهمون بارتكاب جرائم لا تُحْصَى، ولا تُعَد ضد الإنسانية والآدمية. أولًا قذفتم هوية أمم

عظيمة في قاع المجهول، واستعربتم البلاد والعباد كرهًا دون رغبتهم، وثالثًا صنعتم حربًا منذ زمان بعيد منذ خروج المستعمر، وما زلتم تستخدمونها بوحشية لإبادة الأغلبية الكاسحة من أجل أن تصيروا أسيادًا دون منافس، وقادةَ سلطويين دون منازع، وملاك الوطن والأرض دون شركاء، وأثرياءها الأقوياء على الضعفاء...

لكنني لا أظن أن تلك الآلية الوحشية ستدوم لوقت طويل. يبدو أنها بدأت تذوب كما تذوب الثلوج، وتذبل كما تذبل الزهور والورود.

بالحق؛ لقد دفع بكم الكبرياء والرياء لدرجة أنكم قد أغفلتم بعض الإخلال الذي سيأخذكم إلى الهاوية إلى حيث تسقطون. في الحقيقة إنكم تستحقون السقوط إلى تلك الجنة التي تواعدتم بها على بعضكم البعض مع تلك الفئة التي أبادت من أجلكم أممًا من الأبرياء. كيف تجيبون الخالق حين يسألكم عن الجرائم التي ارتكبتموها من قتل النفس التي حُرِّم قتلها من قبل الخالق؟

❁❁❁

16

عمومًا؛ دعوني أعود بكم لكي أقص لكم ما حدث للفتى الكوشي توتو كافي.

كان الموقف مزحومًا بالشاحنات، بعضها محملة وأخرى ما زالت فارغةً لم تجد ما تحمله بعد. بدأ توتو كافي يتجول داخل الموقف يسأل الجميع عن المساعد أبكر الملقب بأبي جاكومة. لم يبذل الكثير من الجهد، لقد أخبروه جميعًا بأنهم يعرفونه جيدًا.

وقالوا له إنه قد غادر الخرطوم قبل خمسة أيام، فاطمأن قليلًا حين أخبروه بأنه سيعود إلى الخرطوم بعد أيام قليلة. سألهم عن مقدار تلك الأيام لعودة الشاحنة التي يعمل معها المدعو أبو جاكومة، قالوا له ربما سبعة أيام كحد أدنى، أو أكثر من ذلك.

مرت الأيام بسرعة يومًا تلوى الآخر حتى تجاوزت الاثني عشرة يومًا، ولم تظهر تلك الشاحنة بعد. أُصِيب الفتى بقلق شديد، هجره نوم الليالي، وحين يجيء النهار يترقب الشارع أملًا بقدوم شاحنة أبي جاكومة.

سرعان ما ساءت حالته النفسية، وأهمل نفسه كثيرًا حتى اتسخت ملابسه، ولونه أصبح داكنًا بسبب الأتربة والأوساخ التي وجدت طريقها إلى بشرته حتى التصقت بها كما تلتصق المادة الجبسية على الحوائط.

أصبح شكله شاذًّا، ولفت انتباه الجميع حتى قرر بعض من أصحاب الشاحنات القيام بمساعدته. جاء زمرة من السائقين وقالوا له اذهب إلى موقف أم درمان، ربما ستجد الشاحنة التي تترقبها الآن في ذاك الموقف، وحين سمع توتو كافي تلك المعلومة التي لم تخطر على باله.

استجمع قواه وغادر الموقف بسرعة وتسلق فوق أحد الباصات التي كانت مارةً من أمامه. كانت قادمةً من منطقة جبرة وهي في طريقها إلى السوق العربي. لم يقترب منه كمسري الباص، ولم يكن ذا جرأة للاقتراب منه لطلب أجرته. ظل يراقبه من بعيد حتى وصلوا إلى السوق العربي.

ترجل توتو كافي من فوق الباص، واتجه إلى الموقف الخاص بالسيارات المتجهة إلى أم درمان. ركب إحدى السيارات المتحركة من داخل الموقف، وجد جميع المقاعد مشغولةً بالركاب وقف على قدميه في الممر بين المقاعد، وحين طالبه الكمسري بأجرته اعتذر له، وأخبره بأنه لا يملك معه النقود.

كانت درجة الحرارة عاليةً تسيل من جسمه العرق ذا الرائحة الإبطية الكريهة من ملابسه المتسخة وجسمه التي مضى عليه أيام كثيرة دون أن تلامسه قطرة ماء. لم يغتسل منذ وقت طويل.

وسرعان ما غزت تلك الرائحة الصنانية النتنة أنوف من كانوا على مقربة منه، اخترقت أنوفهم كرهًا دون رغبتهم حتى انزعجوا منها كثيرًا، وتنافروا منه، وحملوا أجسامهم وابتعدوا عنه قليلًا، تجاهلهم توتو كافي طيلة الرحلة حتى توقفت السيارة داخل موقف السيارات الواقعة في الجانب الشرقي من السوق الشعبي أم درمان.

نزل بسرعة واتجه إلى موقف الشاحنات السفرية التي تعمل في بقاع غرب السودان وبدأ يسأل السائقين والكمسنجية والمساعدين بطريقة جنونية، يسألهم عن أبي جاكومة وعن وصوله. كان يتحرك كالدرويش ما بين فوج وآخر، لكن جميع تنقلاته وتحركاته تلك باءت بالفشل...

لم ينل ما جاء من أجله ذاك الخبر التي سيرفع له معنوياته، لكن أغلبهم ردوا عليه قائلين بأن المدعو أبو جاكومة لم يصل إلى الخرطوم بعد، ما زالوا

في حاضرة مدينة نيالا، لكن أجابه أحد السائقين كان مستلقيًا فوق سريره الصغير تحت ظل شاحنته الخاصة قائلًا:

- لا أظنهم سيأتون إلى الخرطوم قريبًا.

- ولم لا؟ وما الشيء الذي يمنعهم من المجيء إلى هنا في القريب العاجل؟

- لقد تزوج سائق تلك الشاحنة في الأسبوع الماضي، وهو الآن في شهر العسل.

ضحك سائق شاحنة أخرى كان واقفًا على بعد مسافة منهم وقال:

- الآن تجده ما زال يلوك ويلحس ذاك العسل الجميل بطعمه الحلو.

ما قاله السائقان وقع كالصاعقة في نفس توتو كافي، لم تحتمل روحه وجسده وعقله ذاك الخبر الذي سمعه توًّا، واستشاط غضبًا وجُنَّ جنونه، وبدأ يشتم بصوت عالٍ وهو يلعن السائق الذي تزوج من عشيقته التي أحبها حبًّا جمًّا، ولم يحب أحدًا غيرها في حياته، وصار يدعو عليه بموتة شنيعة، ولم يكتفِ بدعائه على سائق الذي تزوج من حبيبته ليزا فحسب، وإنما دعا على جميع السائقين متمنيًا لهم الزوال والانقراض من وجه الأرض...

وحين سمع السائقان تلك الدعوات الجبارة من قبل الفتى الكوشي اندهشوا كثيرًا، وقالوا: «يا إلهي ما هذا الغبن والكراهية اللتان تحملهما ضد السائقين؟»

لم يكلف نفسه الإجابة على سؤالهم، رمقهم بنظرة حاقدة، وغادر الموقع وهو يكرر الشتائم واللعنات نفسها لتلك الفئة، وتوجه سيرًا على الأقدام إلى حيث ميدان الخليفة الواقعة جنوب مستشفى حوادث أم درمان...

وحين وصل الميدان وجد مجموعةً كبيرةً من الأصدقاء المشردين بمختلف الفئات والأعمار شباب وأطفال، ثلث تلك المجموعة كانت من

الفتيات البالغات استقبلوه وأكرموه بكيس مليء ببقايا الأطعمة التي جاؤوا بها من الكافيتريات والمطاعم من سوق البوستة، إنها مصادر طعامهم وغذائهم...

أخبرهم الفتى المغلوب على أمره بقصته الحزينة تلك، فحزنوا جميعًا وتعاطفوا معه، وقالوا له:

- يجب عليك السفر إلى نيالا لاسترداد حبيبتك ليزا.

تحمس لتلك الفكرة، وقرر السفر إلى نيالا والمجيء بفتاته، لكن قراره هذا يحتاج إلى خطة محكمة للتمهيد، ولتحديد وسيلة السفر، سرعان ما أخبرهم أحد الشباب، بأنه يستطيع مساعدة توتو كافي حتى يصل إلى مدينة نيالا، سأله أحد الشباب قائلًا:

- كيف ستساعده في سفره وأنت لا تملك المال؟

- في الحقيقة إنني لا أملك المال لدعمه في سفره، لكني أعرف أحد السائقين قد حملوا شحنتهم في عصر هذا اليوم، وسوف يغادرون في الصباح الباكر إلى نيالا.

أوقفه توتو كافي وهو يلوح له بيده الاثنتين وقال له:

- أشكرك كثيرًا يا صديقي على هذه السانحة، لكنني أعتذر عن قبول هذه الخدمة المغرية، لأنني أكره تلك القبيلة التي تُسَمى السائقين. بالحق؛ إنهم سارقون. لقد أخذ أحدهم خطيبتي، والآن قد امتلأ قلبي بالحقد والكراهية تجاه تلك الفئة.

فجأةً تدخلت إحدى الفتيات تخبرهم بوسيلة سفرية أخرى إلى مدينة نيالا، سألها توتو كافي بلهفة:

- أخبريني؛ ما هي تلك الوسيلة الأخرى؟

- (ابتسمت) القطار!

فرح الجميع، وقالوا: نعم؛ هذا صحيح، بالحق إننا قد نسينا تمامًا أمر القطار، ولم يخطر على أذهاننا طيلة هذه الفترة.

قرر توتو كافي المغادرة سريعًا إلى مدينة بحري حيث القطار المتجه إلى نيالا، لكن أصدقاءه الجدد أرغموه على المبيت معهم وقالوا له ستغادر في الصباح الباكر، وقُبَيل غروب الشمس بقليل خرجوا جميعًا من ميدان الخليفة الشباب والفتيات والأطفال معًا، واتجهوا إلى حيث السينمتين اللتين تقعان على بعد مسافة قصيرة من موقعهم الخاص.

وبعد مضي دقائق قليلة وصلوا أمام السينما الوطنية أم درمان وجدوا طابورًا طويلًا من البشر أمام شبابيك التذاكر. جميع المرافق كانت مزدحمةً اللوج والبلكونة، أما الشعبي وهو قسمهم المفضل كان أكثرهم ازدحامًا عن بقية الأقسام الأخرى. اقترحت عليهم إحدى الفتيات الجميلات، وقالت لأصدقائها:

- اعطوني المال لكي أحضر التذاكر.

- (زعيم المجموعة) كيف ستصلين الشباك وتحصلين على التذاكر وأمامك هذا الطابور الهائل؟

- (غمزته بعينها اليسرى) قفوا هنا، وشاهدوا ما سأفعله بهذا الحشد.

أخذت منه المال واتجهت إلى حيث أمامية الصفوف، وقامت بحشر جسمها بعنوة داخل الطابور دون استئذان. احتج جميع من كانوا خلفها، وصرخوا بأصوات عالية وهم يطلبون منها الخروج من الطابور، والوقوف في دورها التي تستحقه. تجاهلتهم بمكر، وكأنها لم تسمع أصواتهم

الاحتجاجية تلك، فغضب بعضهم وخرجوا من الصف، وجاءوا إليها وهم يقولون لها:

- بالحق؛ إنك وقحة جدًّا، ألم تسمعي ما قلناه؟

- بلى... (وبنظرة التحدي) لكنني لا أرغب في الخروج من الطابور.

استشاطوا غضبًا وبدؤوا يسحبونها من الطابور بقوة، صرخت فيهم وبدأت تشتمهم وتضربهم وتخرشهم بأظافرها بشراسة مثلما تفعل القطط بأعدائها. جاء رجال الشرطة مهرولين وأمسكوا بتلك الفتاة، وحين حاولوا اقتيادها إلى قسم الشرطة احتجت، وقالت لرجال الشرطة:

- لن أذهب معكم ولن أتحرك شبرًا واحدًا من هنا.

وحين حاول رجال الشرطة استخدام القوة ضدها لاقتيادها إلى مركز الشرطة تجردت من ملابسها، وأصبحت عاريةً مثلما ولدتها أمها، وبدأت تصرخ بصوت عالٍ حتى تجمهرت من حولها الحشود، وسرعان ما هرب رجال الشرطة ونجو بجلدهم من تلك الفتاة المشاكسة التي ستسبب لهم الهلاك.

ارتدت ملابسها، واتجهت مرةً أخرى إلى شباك التذاكر مباشرةً. تراجع الجميع وتركوا لها مساحةً شاسعةً. أتاحوا لها طريقًا إلى شباك التذاكر مباشرةً، فتوغلت حتى وقفت أمام الشباك، وأخذت تذاكرها وعادت إلى مجموعتها وهي سعيدة.

أخذ كل منهم تذكرته، ودخلوا إلى الداخل وجلسوا في المقاعد الأمامية على مقربة من تلك الشاشة العملاقة. تسلق بعضهم فوق المسرح ورقصوا على إيقاع موسيقى الجاز الإفريقية التي كانت تُشَغل قبيل بث الفلم وبعدما

طربوا بغناء الفنان اليوغندي كوفي ألوميدي بدأ بث الفلم الهندي للممثل الشاب شاروخان.

كانت قصة الفلم أشبه بقصة الفتى الكوشي توتو كافي، فتأثر بها وأقسم على استرداد حبيبته مهما كلفه الأمر مثلما فعل البطل شاروخان.

وبعد انتهاء الفلم خرجوا جميعًا من السينما، وذهبوا إلى مسكنهم الشاسع وهو ميدان الخليفة، واستلقوا فوق فرشهم وبدؤوا يقصون فيما بينهم المشاهد المثيرة التي شاهدوها في الفلم. فجأةً سمعوا صوت صرخات عالية ومتقطعة تتردد على آذانهم، تلك الأصوات كانت صادرةً من أحد الأركان المظلمة التي كانت تحيط بهم، وهي كانت معقلًا لأحد المجموعات الأخرى.

هرولوا جميعًا إلى حيث مصدر الصوت وحين وصلوا وقع بصرهم على فتاة حبلى يحيط بها أصدقائها دون استثناء الفتيات والشباب معًا. ظلت الفتاة تصرخ وتدفع جنينها إلى الخارج، أمسكوا بها جميعًا وطلبوا منها بذل جهد أكبر لدفع الجنين، وبعد مرور وقت قصير ما بين بكاء وصريخ سمعوا صوت طفل صغير حديث الولادة... إنها صرخاته الأولى...

فرحوا جميعهم بقدوم هذا الوليد الصغير الذي جاء ضيفًا عليهم وعلى الحياة البشرية كافةً، تجمهروا حول الطفل ولاعبوه بحماس وداعبوه بأصابعهم بحنية، وبدا هو الآخر سعيدًا بتلك الدغدغات الجميلة التي تسري فوق جلده الحديث الذي خرج قبل ثوانٍ من رحم أمه...

لم تكتف تلك الجموع والحشود برؤية الطفل فحسب، ولم يكفوا عن مضايقة الطفل حتى بعدما عبثوا بجلده الحديث بأناملهم، وإنما بدأ الجميع يبدي رغبته في حمل الطفل.

رفضت إحدى الفتيات ومنعتهم من حمل الطفل وهي تطلب من الشباب جميعًا الانصراف باستثناء الفتيات، لكي يقمن بإتمام بعض الأعمال الضرورية التي تحتاجها الفتاة التي وضعت جنينها توًّا. قدمن لها المساعدة التقليدية دون العناية الطبية. قامت صديقاتها المشردات بنظافتها كما يجب ما بين غسل بالماء وتفويطها بقطع من الأقمشة الممزقة، وبعد تداول وتشاور اختاروا اسمًا للمولود وأطلقوا عليه اسم واني.

❁❁❁

17

في صباح اليوم الثاني غادر توتو كافي ميدان الخليفة بعد توديع أصدقائه، واتجه إلى حيث مدينة بحري التي تُعْتَبر غريبةً عليه لم يزرها قط في حياته، لكنه يملك بعض المعلومات التي سمعها من رفقائه المشردين الذين لم تستقر بهم الأحوال في مدينة واحدة، وإنما كانت تأخذهم الأقدار والأغراض إلى جميع أحياء الخرطوم: الحارات البرجوازية والعشوائية معًا.

وحين وصل الفتى الكوشي إلى مدينة بحري كان الوقت مبكرًا ولم يمض على شروق الشمس الكثير من الوقت. ما زالت الكشافات العملاقة والصغيرة مضاءةً في الشوارع المسفلتة والشوارع ما زالت بطيئة الحركة يتحرك فيها عدد قليل من البشر.

تلك الفئة من الغلاباء والغبش التعابا أغلبهم من النساء الأرامل اللائي ترملن بسبب الحرب التي استمرت ربع قرن من الزمان، لكن ما يدفع المرء للاستغراب والتعجب أن تلك الملايين من الشباب ضحوا بأرواحهم هباءً منثورًا، ودافعوا بحياتهم عن نظام غاشم ودكتاتوري يحكم بالعصا السحرية والكرباج.

كانت النساء تسير في الشوارع بسرعة، وبدأت نظرات توتو كافي تذهب هنا وهناك حتى التقت عيناه ببعض المحلات الصغيرة الملتصقة ببعضها البعض، وهي عبارة عن مساحات صغيرة، وعليها كراس لم تتجاوز عدد أصابع اليد، يتوسطها صندوق صغير وعلى سطحه بعض أكواب الشاي وبرطمانات عصير الأورانج الفارغة؛ تستخدمها النساء في وضع بعض مستلزماتهن مثل الشاي والقهوة والسكر، وأشياء أخرى عديدة تخص عملهن.

كانت جميع صاحبات تلك المحلات مشغولات بعملهن ما بين تجهيز وترتيب وتنظيف أماكنهن، ورائحة شاي اللبن واللقيمات تتناثر هنا وهناك بطريقة فوضوية، وهي تغري بسحرها المارة. سرعان ما بدأ الناس يتوافدون على المحلات بكثرة، وتجمهروا حول صينية اللقيمات رويدًا رويدًا.

امتلأت الكراسي، ولم يحتمل توتو كافي الجوع. ما زالت معدته فارغةً لم تستقبل طعامًا منذ ليلة البارحة. حين وصل إلى ميدان الخليفة واستقبله رفقاؤه المشردون، وأكرموه بكيس مليء ببقايا الأطعمة قادته قدماه نحو رائحة اللقيمات المغرية، تابع خطواته حتى وقف أمام صينية اللقيمات كانت بجوارها امرأة يبدو على ملامحها التعب والشقاء والسهر المستدام.

كانت تأخذ قطعةً صغيرةً من العجين بيدها، وتلقي بها على صاج ساخن مليء بالزيت تفوح منه تلك الرائحة الشهية، أعطى صاحبة المحل ثلاثة جنيهات وطلب منها اللقيمات، أو كما تُطْلَق عليها في السودان الزلابية. لقد ملأت له وعاءً متوسط الحجم جلس في أحد الكراسي ثلاثية الأرجل، وبدأ يلتهم الزلابية حتى قضى عليها تمامًا.

نظر إلى حيث صينية اللقيمات برغبة شديدة أملًا في الحصول على لقيمات إضافية. اقترب من صاحبة المحل وسألها عن الطريق المؤدي إلى محطة القطارات، فأشارت بأصبعها وقالت له:

- اسلك هذا الطريق، وهو سيوصلك إلى محطة القطارات.

شكرها وغادر بسرعة وحين وصل بدأت نظراته تتجول في المنطقة، وسرعان ما وقعت عيناه على زمرة من الشباب. ذهب إليهم وقام بإلقاء التحية، فردوا عليه بمثلها. عرفوه من النظرة الأولى كما عرفهم هو الآخر

من الوهلة الأولى حين وقعت عيناه عليهم وهم جالسون تحت إحدى المقطورات القديمة والمهجورة.

كان البعض منهم يقامرون فيما بينهم، والبقية كانوا يشاهدون الذين يلعبون تلك اللعبة المهلكة والمكلفة أيضًا. يؤمن بعضهم بأن تلك اللعبة يجيدها المحترفون والمتلاعبون والمراوغون فقط. أما آخرون يؤمنون بأن تلك اللعبة فقط يحتاج النجاح فيها إلى الحظ الوافر.

عمومًا؛ توقفوا عن لعبتهم وألقوا ما بيدهم، وأجلسوه على صندوق بلاستيكي قديم ومكسور جراء سوء الاستخدام، وأكرموه ببعض الخبز البائت من الليلة الماضية. التهمه دون اكتراث بمبيته.

تقدم نحوه أحد الشباب وهو زعيم تلك المجموعة، وتأسف له قائلًا:

– قد سمعنا ما حدث لك من غدر من قبل السائق الذي هرب بحبيبتك ليزا.

– يا إلهي؛ إنكم تعرفون ما حدث لي؟!

– في الحقيقة؛ نحن على علم بكل الأحداث التي تحدث داخل أزقة الخرطوم وأم درمان وبحري، تصلنا الأخبار أينما كنا، سواء داخل السوق العربي أو أم درمان أو بحري أو غيرها من بقاع الخرطوم.

مثلما أسلفت لكم من قبل في إحدى الصفحات السابقة بأن هناك مجموعةً غير مستقرة مدمنة التجوال من مدينة إلى أخرى؛ ينقلون عبر تجوالهم كل شيء يُحْمَل باليد أو يُسْمَع بالآذان، المقتنيات والأخبار معًا. أخبره توتو كافي قائلًا:

– هذا الأمر هو الذي جاء بي إلى هنا كي أسافر إلى نيالا عبر القطار، وأرجوا منكم المساعدة.

- (زعيم المجموعة) لا تشغل بالك بهذا الأمر، جميعنا سنقدم لك المساعدة التي تحتاجها للوصول إلى مدينة نيالا حتى تسترد خطيبتك ليزا... سينطلق أحد القطارات المتجهة إلى نيالا بعد يومين.

استدعى الزعيم أحد الشباب وطلب منه أن يكون الرفيق الدائم لتوتو كافي، ولا يفارقه حتى يتسلق توتو كافي سطح القطار، وأن يكون دليله الخاص يخبره أي شيء يتعلق بالسفر عبر القطار، ويوفر مأكله ومشربه لرحلته إلى نيالا وهو على سطح القطار، أخبره قائلًا:

- السفر عبر القطارات مختلف تمامًا عن الحياة العامة داخل الأسواق. له أسلوبه الخاص لتوفير الاحتياجات الضرورية التي يحتاجها المسافر للبقاء حيًّا، فلا بد للمسافر أن يكون خفيف الظل، ومن الضروري جدًّا الابتعاد عن الأنظار في ساعات النهار، وأن تكون مختفيًا.

تتحرك في ساعات الليل تحت الظلام الدامس، وتخطف ما يبقيك حيًّا من داخل مقطورات الركاب على غفلة منهم وهم في نوم عميق. لا بد أن تكون كالشبح تمامًا.

اندهش الفتى توتو كافي كثيرًا من تلك النصائح الغريبة التي أخبره بها دليله الشاب، وأغرب ما في الأمر أن جميع تلك النصائح تتنافى مع مبادئه، لكنه الآن أصبح مجبرًا عليها وأنه في وضع حساس لا تفيده مبادئه بشيء، لا بد له فعل كل شيء للوصول إلى غايته، وهي استرداد خطيبته ليزا من حاضرة مدينة نيالا.

عزم على المضي قدمًا، وقرر على نفسه فعل ما يتوجب فعله لبلوغ مقصده.

- ما الضير أن أتلصص على مقتنيات الركاب لكي أخطف ما أسد به رمقي فقط، وما تحتاجه بطني من مأكل ومشرب... تبًّا لمبادئي التي لا

تفيدني في مجتمع لا يؤمن بمثلي، ولا يكترث بأبسط حقوقه الآدمية. أقسم بالله إن استدعى الأمر سأسطو على جميع مقتنياتهم دون استثناء نقودًا كانت، أو طعامًا.

كان قضى توتو كافي النهار بكامله مع دليله الشاب الذي ظل طيلة النهار يشرح له أسلوب السفر عبر القطار. أخبره كل ما يحتاجه في رحلته، ولم يترك له كبيرةً ولا صغيرةً عن حياة القطارات. يبدو أن دليله الشاب خبير بالقطارات، يُقَال أنه أكثر الشباب الذين تجولوا عبر القطارات.

لقد حكي لتوتو كافي تجاربه الشخصية التي حدثت له أثناء تجواله في جميع بقاع السودان. بالحق؛ اندهش توتو كافي حين سمع ذاك الشاب يقول له:

– لقد بدأت التجوال والسفر عبر القطارات منذ صباي، أذكر أنني لم أبلغ وقتها سن الثامنة بعد، والآن كما تراني قد تجاوزت الاثنين وعشرين عامًا.

حسبها توتو كافي سرًّا وجدها خمسة عشرة عامًا وهو يتنقل عبر القطارات، بالحق إنها سنين عديدة، وحتمًا تراكمت لديه الخبرة الكافية عن القطارات والسفر عبرها. ابتسم توتو كافي وبدأ يسأل الشاب قائلًا:

– يبدو أنك تعرف كل القطارات؟

– (ضحك الشاب) نعم؛ هذا صحيح، أعرف جميع القطارات لدرجة أنني أصبحت أعرف القطارات الخاصة بنقل البضائع والخاصة بالركاب على حد سواء، وأيضًا أعرف جميع سائقيها وعمالها خصوصًا عمال البوفيهات، إنهم أصدقائي، وتعاملت معهم جميعًا.

وحين انتبه الشاب وتوتو كافي إلى الوقت كانت الشمس على وشك الغروب طلب منه الشاب وقال له:

– دعنا نذهب إلى السوق لنلتقي برفقائنا. إنها ساعة التجمع... دعنا نسرع قليلًا لكي لا نتأخر عنهم أكثر من هذا. يبدو أننا قد انشغلنا، وتأخرنا كثيرًا.

خرجا من محطة القطارات وتوجها إلى سوق بحري للالتحاق بمجموعتهما التي غادرت مبكرًا في ساعات الصباح. سأل توتو كافي الشاب قائلًا:

– كنت أجهل أنكم تلجؤون إلى الأسواق مثلنا. كنت أعتقد أنكم تزاولون عملكم فقط داخل محطة القطارات دون مغادرتها.

– (ابتسم الشاب) في الحقيقة إنكم تعتقدون بأننا متخصصون في حياة القطارات فقط، ولا نجيد حياة الأسواق مثلكم، وفي الحقيقة إننا نعمل في محطة القطارات في أيام الذروة لأن المحطة تكون شبه مهجورة في أغلب أيام الأسبوع ما عدى يومي السبت والخميس؛ اليومان اللذان تتحرك فيها جميع الرحلات.

تتحرك القطارات المغادرة من العاصمة بعد وصول القادمة من المدن الأخرى، لذلك اعتدنا الدخول إلى الأسواق في أيام الفراغ. (نبه الشاب توتو كافي) انظر ها هم أصدقائي.

وحين اقتربوا منهم كان جميع أفراد المجموعة سعداء والابتسامات واضحة على وجوه الجميع. اطمأن بعضهم على ضيفهم توتو كافي، وهم يقولون له:

– نرجو أنك قد قضيت نهارك بخير.

– في الحقيقة إنني اليوم أكثر سعادةً من الأيام الماضية. كنت تائهًا أجوب شوارع الخرطوم ليل نهار كالدرويش الذي فقد سبحته. قد مضت علي أيام دون أن تغمض عيني. لقد أصيب جسمي بالتعب والإرهاق جراء السهر والتجوال، وقلة الطعام...

- بما أنك قد ذكرت الطعام، فهيا معنا إلى الطعام.

جلسوا جميعًا بطريقة دائرية حول أكياس بيضاء وصفراء اللون مليئة ببقايا الأطعمة، وهي شفافة تبدي جميع أنواع الأطعمة التي بداخلها واضحةً للعين...

وحين نظر إليها الفتى توتو كافي وقعت عيناه على مزيج من الأطعمة المتنوعة: الأرز والخبز وبقايا من اللحوم السمينة المشحمة بلونها الأبيض، وبعض العظام المخلفة ببقايا من اللحوم؛ التي تركها من تناولوا تلك الأطعمة داخل صالات المطاعم جراء الشبع أو الخجل من القيام بنهش تلك العظام أمام الأنظار، أو ربما لضعف أسنانهم أو بسبب امتناعهم عن تناول تلك الشحوم السمينة خوفًا على صحتهم...

التهموا جميع تلك الأطعمة الممزوجة ببعضها البعض دون اكتراث على ضررها أو فوائدها على صحتهم وسلامتهم. بالحق؛ ما الشيء الجديد الذي طرأ على حياتهم حتى يعافون تلك الأطعمة أو يغوصون في ضررها وفوائدها على صحتهم؟

إنهم معتادون على تناول هذه الأطعمة طيلة حياتهم؛ منذ أن وجدوا أنفسهم مشردين في الشوارع بلا مأوى، أو رعاية، وداخل تلك الأزقة الضيقة والمهجورة في أغلب الأحوال.

نزفوا تلك الأكياس بطريقة جنونية الشباب والفتيات دون خجل فيما بينهم حتى فرغت جميع الأطعمة، وبعد انتهاءهم طلب الزعيم من طفلين بأخذ بقية الأكياس المليئة بالأطعمة التي تركوها على جانب من أجل وجبة العشاء بعد عودتهم من السينما. أخبرهم قائلًا:

- خـذوا هذه الأكياس إلى المحطة، وضعوها جيدًا على سطح المقطورات الخاصة بنا.

حمل الطفلان تلك الأكياس، واتجها صوب المحطة، أما بقية المجموعة انقسمت إلى مجموعتين إحداهما ترغب في مشاهدة الفلم الذي سيُبَث في سينما حلفايا بحري، وآخرون على عكسهم تمامًا كانت رغبتهم مشاهدة الفلم التي ستعرضه السينما الأخرى وهي الشعبية بحري.

انشقت المجموعة وذهب كل منهم إلى حيث مشاهدة فلمه. لقد اختار توتو كافي الذهاب برفقة دليله الشاب، وبعض من الفتيات والشباب. لا يهمه نوع الفلم بل كان يهمه دليله الشاب، وهو الأقرب إليه.

سلكوا طرقات عديدة أغلبها أزقة حتى وصلوا السينما، وقفوا جميعًا داخل الصف دون أن يخلفوا وراءهم أحد الشباب والفتيات معًا، وبعد مرور وقت قصير وصلوا إلى شباك التذاكر وأخذوا تذاكرهم، وعبروا من تلك البوابة المؤدية إلى صالة الشعبي.

يبدو أنهم قد تأخروا بعض الشيء. قد امتلأت المقاعد الأمامية المفضلة لديهم، وجلسوا في المقاعد الخلفية دون رغبتهم باستثناء توتو كافي، وإحدى الفتيات من ضمن المجموعة. إنها عشيقة دليله الشاب.

كانت سعيدةً بجلوسهم في المقاعد الخلفية دون عادتها حتى بدأ خطيبها الشاب يشك في أمر سعادتها المفاجئة تلك. فيما مضى كانت تتذمر كثيرًا حين يجدون المقاعد الأمامية ممتلئةً بالبشر باستثناء اليوم، لم تتذمر، وإنما أصبحت في غاية السعادة، وحين بدأ الجميع أخذ مواقعهم اختارت الجلوس بجوار الفتى توتو كافي.

جلست على مقربة منه والتصقت به، وبدأت تداعبه وتحتضنه بين الحين والآخر. بدأ إحساس الغيرة ينهش قلب خطيبها إلا أنه كان عاجزًا عن إيقاف

أو إطفاء اللهيب الناري الذي بدأ يزداد اشتعالًا بين الفتى توتو كافي وعشيقته التي عُرِفت بجرأتها تلك.

يُقَال إنها اشترطت عليه من قبل بألا يحتج على أفعالها وأخبرته، أنها إنسانة مزاجية تفعل ما يحلو لها ومع من تحب في أي زمان وأي مكان، لا يحق لأي كائن كان التدخل في حياتها. يبدو أن خطيبها الشاب التزم بشروطها التي اشترطتها عليه عشيقته، لكن قلبه بدأ يمتلئ بالكراهية نحو توتو كافي.

ظل يراقبهما باستمرار حتى بدأت غرفة الكنترول ببث الفلم بعد إطفاء جميع الإنارة، وساد الظلام داخل السينما. ذاك الظلام الذي يحجب بصرك من التقاط الشخص الجالس بجوارك، وبعد مرور لحظات على بث الفلم طلبت تلك الفتاة من توتو كافي مرافقتها إلى حيث دورات المياه.

أمسكته من يده بقوة وسحبته وراءها بلطف، فتبعها توتو كافي بعفوية لأنه ما زال لم يكتشف بعد بأن هذه الفتاة التي كانت تراقبه بنظراتها منذ الساعة الأولى التي وصل فيها إلى المحطة، وحين التقى بها مرةً أخرى بعد غروب الشمس ظلت لصيقةً به باستمرار، ولم تبتعد عنه بعد، وها هي الآن تحاول الانفراد به إلى مخبأ سري، لكي تمارس معه الجنس الجامح.

يبدو أنها قد وقعت أسيرةً لسحره الذي لا يُقَاوم. اشتهته من اللحظة الأولى بجنون، وهو كان غافلًا؛ لم يلاحظ رغبتها وشهوتها الجنونية تلك، وما زال يسير معها إلى حيث دورات المياه الواقعة داخل ممر سري في الجانب الخلفي من صالة الجلوس.

فجأةً أوقفهم أحد العاملين في السينما في الممر المؤدي إلى حيث دورات المياه، رمقته الفتاة بنظرة، وقالت له:

– نريد استخدام الغرفة الخاصة لو سمحت.

أشار لها الشاب بيده إلى إحدى الزوايا المظلمة، وقال لهما:

– اذهبا إلى هناك إنها ما زالت شاغرًا؛ لم يشغلها أحد.

سحبت توتو كافي من يده التي ما زالت تحت قبضتها الحديدية، رغم ما كان يحدث له من شد وسحب لم يستوعب بعد، وحين وصلا تلك الحجرة الصغيرة، وهي تبدو أنها كانت إحدى الحمامات الخاصة بالعاملين في السينما، إلا أنه تم إلغاؤها مؤخرًا بقصد الاستثمار...

وتم تجهيزها لتلك العمليات الخاصة؛ يستأجرها الراغبون في ممارسة الجنس السريع، وأصبحت مأوًى لمن لا مكان له، وبعد غروب الشمس بقليل تجيء إليه الناس من أماكن مختلفة حتى الذين لا غرض لهم بالأفلام، أغلب مترددي تلك السينما كانوا على علم بذلك خصوصًا الفتاة التي أخذت توتو كافي إلى حيث تلك الغرفة الخاصة.

إنهم الآن قد أوشكوا على البلوغ داخل تلك الغرفة. سحبته إلى داخل الغرفة، وأغلقت الباب بقوة. احتضنته بسرعة، وبدأت تقبله بشغف. لم يستطع الفتى توتو كافي مقاومة مفاتنها الغنية، وحرارتها الملتهبة تلك.

صار يعزف معها تلك المقطوعة الموسيقية الجسدية الغريبة ذات الإيقاع الجميل. إنها لحظة حساسة. مهرجان الأحاسيس والمتعة المتواصلة. بدأت الفتاة تفجر رغبتها المكبوتة عبر آهات صوتها المتقطع. إنها وصلت الآن في عالم التلذذ إلى كوكب لا يشعر فيه المرء بإحساس غيره.

ها هي الآن تعيش تلك اللحظة مع توتو كافي وهي غير آسفة على عشيقها الذي تركته وراءها تحت رحمة العذاب، وفي اللحظة التي بلغت فيه الفتاة

نشوتها الأخيرة متزامنةً مع الفتى توتو كافي اسودت روح عشيقها هنا، وامتلأ قلبه بالحقد والكراهية للفتى توتو كافي، وعزم على الانتقام منه في يوم ما، وظل يراقب ذاك الممر أملًا في خروجهما بسرعة...

إلا أن عشيقته وتوتو كافي لم يكتفيا بعد، ولم تُطْفَأ حرارتهما بعد. ما زالت لديهما رغبة في تكرار عملية الطوفان مرةً أخرى، وحين استعدا لتكرارها للمرة الثانية سمعا صوت طرق الباب مرافقةً بصوت شخص يطلب منهما الخروج بسرعة قائلًا:

- اخرجا أيها المجنونان، لقد انتهى وقتكما، ألم تنتهيا بعد؟ هناك من ينتظر للحصول على هذه الغرفة. ارتديا ملابسهما بسرعة واخرجا من الغرفة، وسواعدهما مشبوكة ببعضها البعض.

إلا أن الفتاة قد نسيت وراءها ملبسها الصغير ذا اللون الأحمر كلون الكركدي الخاصة بمنطقتها الوسطى. تركتها على سطح أرضية الغرفة. وقبل مغادرتهما الممر سمعا صوت منادٍ يطلب منهما التمهل قليلًا، سرعان ما وصلت إليهما إحدى الفتيات الجميلات، وقالت لرفيقة توتو كافي:

- هل هذا يخصك؟

- نعم.

ومدت يدها وأخذته من الفتاة، وأعطته لتوتو كافي، وهي تقول له:

- خذه واحتفظ به، إنه هدية اعتبارية مني... أنت الرجل الوحيد الذي يستحق هذه الهدية دون الآخرين.

عاد الاثنان وجلسا على مقعديهما الخاصين وراحا يتابعان الفلم وهما على التصاق ببعضهما البعض. كان جميع أفراد المجموعة مشغولين بأحداث الفلم باستثناء الشاب دليل توتو كافي.

ظل الشاب يراقبهما باستمرار دون أن ترمش عيناه ولم يحول بصره عنهما. بالحق؛ كان في قمة غضبه. ما زالت عشيقته لم تعره أي نوع من الاهتمام، وتجاهلته وتجاهلت مشاعره، والأخطر من ذلك ما زالت فتاته في وضع مثير، فأثارت غضبه وهو يراها في أحضان الفتى توتو كافي...

كانت واضعةً رأسها على صدره، وتداعبه بيدها تارةً في صدره وتارةً أخرى على خديه حتى خرجا بعد انتهاء الفلم وتوجها إلى حيث معقلهم الخاص الواقع داخل محطة سكة الحديد، وهي عبارة عن قطار مهجور منذ قديم الزمان.

قطعوا تلك المسافة الواقعة بين السينما ومعقلهم في دقائق معدودة، لأنهم ساروا بخطوات سريعة خوفًا من أن تستوقفهم إحدى سيارات الشرطة الدورية، أو تلك الفئة المغضوبة عليها من أفراد الشرطة التي يُطْلَق عليهم الخيالة؛ الذين يتجولون في شوارع العاصمة على ظهور الخيل...

يلقبهم البعض بعفاريت وقرود الليل وملوك شوارع الخرطوم في ساعات الظلام، وحين يعثرون على شخص أثناء الليل يفعلون فيه العجائب الكبرى والصغرى...

وبعد وصولهم تسلقوا فوق قطارهم المهجور، وتسللوا إلى داخل مقطورتين ملتصقتين، وانشقت المجموعة إلى شطرين ودخل كل منهما إلى مقطورته الخاصة إلى مكان نومه، لكن تلك الفتاة اللعوب لم تترك توتو كافي بعد رافقته إلى المقطورة التي أتاحوا له فيها مكانًا خاصًّا به، لكي ينام فيها...

إنها ما زالت على عزيمة وهي الآن تحاول النوم برفقته تاركةً خطيبها في المقطورة الأخرى لا أحد تجرأ، وتحدث معها أو حاول منعها. يهابها جميع أفراد تلك المجموعة بما فيهم زعيمهم وخطيبها، وحتى توتو كافي عجز عن منعها ومقاطعتها، ربما أصبح متيمًا بمفاتنها المغرية...

تركها نامت بجواره، لكنه لم يستطع التواصل معها جسديًّا بالرغم من أنه كان معتادًا على فعل ذلك وهو محاط بزمرة من الأصدقاء، لكن اليوم قد أصابه العجز ربما بسبب إحساسه بغربتهم عليه، وما زال غريبًا عليهم وضيفًا عندهم.

وقف على قدميه وخرج من داخل المقطورة، وجلس على مدرج إحدى المقطورات. أخرج سيجارةً من العلبة وقام بإشعالها، وبدأ يسحب منها أنفاسًا على مهل؛ يراقب الدخان الذي كان ينبعث من أنفه، وآخر من فمه يتأمله دون موضوعية.

جاءته تلك الفتاة، واقتربت منه ببطء، وجلست على المدرج بجواره، وقامت بإلقاء جزء من جسدها فوق فخذي توتو كافي تحديدًا الجانب الأعلى حيث نهداها، نظرت إليه بعينيها المليئة بالشهوة، وقالت له وهي تمسح خده الأيمن:

- ما الذي أصابك يا حبيبي؟ ألا ترغب في ممارسة الجنس معي مرةً أخرى؟

نظر إليها توتو كافي وهو يأخذ أنفاسًا متكررةً من سيجارته التي ما زالت مشتعلةً لم تنتهي بعد، لم تمهله الفتاة الفرصة حتى يجيبها، وقفت على قدميها، أمسكته من يده، وتسلقت به المدرج، ودخلت به داخل تلك المقطورة الخالية من البشر، يعمها الهدوء والظلام الداكن، وكأنه تم تجهيزها خصيصًا لهما ليقضيا فيها تلك الليلة السعيدة.

تكيف معها وفعل فيها كما يحلو لهما، وقضيا الكثير من الوقت. لا نعلم كم عدد المرات التي طافوا فيها على ظهر تلك الساقية الجنسية المثيرة، فقط ما نعرفه ونعلمه أنهم خرجوا في الثلث الأخير من الليل قبل بزوغ الشمس بقليل، اقتادته تلك الفتاة إلى حيث المكان التي توجد فيها حنفية المياه، كانت تقع في الجانب الآخر من المحطة.

استحم الاثنان بملابسهما في العراء الطلق دون اكتراث بأحد، وغادرا بعد ذلك المحطة، وذهبا إلى السوق دون أصدقائهما الذين ما زالوا يغطون في نوم عميق، وبعد وصولهما السوق ذهبت به الفتاة إلى أحد المحلات المزدحمة الخاصة ببيع الشاي واللقيمات، كان تخص إحدى النسوة المشهورات في السوق، كما أن تلك الفتاة تعمل لديها منذ عامين في المراسيل وتنظيف الأكواب وغيرها...

وبعد غياب جاءته عائدةً وهي تحمل في يدها كوبين مليئين بالحليب ومعهما وعاء مليء باللقيمات، جلسا معًا وقاما بتناولها، وبعد فروغهما استأذنته كي تباشر عملها، وهي تقول له سألتقي بك عند المساء.

بقيت الفتاة وباشرت عملها مع تلك المرأة، وعاد توتو كافي إلى المحطة، وحين وصل إلى داخل المحطة لمح بعينيه الشاب خطيب تلك الفتاة. لقد نهض من فرشته بعد مغادرتهم مباشرةً، وجلس فوق أحد محولات خطوط القطارات يفكر في حسرته وخيبته تلك. في الحقيقة لم تغمض عيناه، ظل ساهرًا طيلة ساعات الليل.

اقترب منه توتو كافي وصابحه:

- صباح الخير يا صديقي.

- صباح النور.

يبدو أن دليله الشاب قد أخفى غضبه وقرر أن يلعب مع توتو كافي تلك اللعبة القذرة، كانت ملامحه وطريقة تعامله مع توتو كافي تدل على أنها طبيعية، ربما أخفى رغبته الانتقامية إلى وقت آخر، لينفذها حين يجيء زمانها.

قضيا نهارهما داخل المحطة وقبيل غروب الشمس اقتاد الزعيم توتو كافي بعيدًا عن بقية المجموعة، وأمره قائلًا:

- كفاك تواصلًا مع الفتاة حبيبة.

يا إلهي؛ إنها تُدْعَى حبيبة، ونعم الاسم، إن اسمها يليق بأفعالها لدرجة أنها أصبحت حبيبة الجميع. تحايل توتو كافي على الزعيم لكي يشرح له الأسباب التي دعته ليقول له كف عن التواصل مع تلك الفتاة اللعوب؛ التي تُسَمى حبيبة، فرفض الزعيم البوح بالأسباب، لكنه اكتفى ببعض التلميحات، وهو يقول له:

- هناك شخص ما غير سعيد بعلاقتك بحبيبة.

ظل توتو كافي معزولًا لبعض الوقت حتى سمع صوت الزعيم يستدعيه، ويطلب منه الذهاب معهم إلى السوق قد حانت ساعة اللقاء، إنه وقت تجمعهم، خرج معهم وهو يخطو خطوات بطيئة حتى تخلف عن بقية المجموعة...

وصل موقع الملتقى التي يلتقي فيه الجميع، وحين وصل وجد تلك الفتاة كانت في انتظاره، وهي تراقب الطريق بنظراتها الدقيقة التي تسلطت على جميع وجوه القادمين مثلما تفعل كمبيوترات الأمن حين تقوم بفحص وجوه المجرمين العتاة والسفاحين، والسراق واللصوص والمعتدين، ومغتصبي الأطفال الصبيات والصبيان، والسياسيين الغير ملتحين الذين تتهمهم هذه الحكومة الملتحية لغيرها بمرتكبي جنحتين إحداهما الخروج عن القانون والثانية التشيع والخروج عن الملة...

إنهم دراميون من الدرجة الأولى بعضهم قد التحوا مؤخرًا كي ينضموا إلى التيم السلطوي المرتدي العباءات المستوردة ذات القامات الناعمة، وحين يقع بصرك بالصدفة على أحدهم بين حاشيته لن تستطيع رفع بصرك عنه بسبب سيارته الجميلة والحديثة، وأصالة مركوبه الذي يرتديه على قدميه، أغلبها مصنوعة بجلود النمر وجلود ثعبان الأصلة...

سخر منهم أحد الرجال وهو ليس من محبي القادة السلطويين وإنه ألد أعداءهم يُقَال دخل إلى أحد المساجد التي تتردد عليها مجموعة كبيرة من المتكوزين لقضاء صلاة الظهر، وحين وصل أمام مدخل باب المسجد وقعت عيناه على عدد هائل من تلك الأحذية الجلدية بعضها مصنوع بجلود النمر وأخرى بجلد الثعبان وغيره من جلود الحيوانات الأخرى؛ ابتسم بخبث وبدأ يسخر منهم قائلًا: «يا إلهي؛ لماذا أشعر وأحس وكأنني في وسط حظيرة أو غابة مليئة بالحيوانات المفترسة»...

عمومًا؛ راحت الفتاة تمارس معه لعبتها المفضلة، بينما هو صار يتجنبها باستمرار يبتعد عنها كلما التصقت به قرر الابتعاد عنها لتلبية رغبة الزعيم، واحترامًا لمشاعر الشخص الذي يغار من علاقته بتلك الفتاة المدعوة حبيبة، رغم أنه لم يكتشف بعد من هو الشخص الذي تصيبه الغيرة حين يتواصل جسديًّا مع الفتاة حبيبة.

ظل بعيدًا عنها طيلة الساعات الأولى من الليل، وحين غادروا جميعًا إلى معقلهم الخاص حاولت مشاركته الفراش مرةً أخرى كي تبيت معه مثلما فعلت في الليلة الماضية، لكنه منعها قائلًا:

- لا أستطيع اليوم فعل ذلك لأني مرهق كثيرًا، ولا تنسي أنني سوف أغادر في الصباح الباكر، لذلك يلزمني بعض الراحة لتلك الرحلة الشاقة...

تقبلت أعذاره وهي تصارع رغبتها الجنونية التي ما زالت تشتهي جسد الفتى توتو كافي، إلا أنها هُزِمت في آخر الأمر، وتركته بقناعة وغادرت إلى حيث فرشتها الخاصة بعد أن تركها، واستلقى بجسمه فوق فرشته.

لم تستطع إغماض عينيها، وظلت ساهرةً إلى بزوغ الشمس قبيل شروق الشمس بقليل بدأت المحطة تعج بحركة المسافرين، استيقظ الفتى توتو

كافي من نومه بسرعة، وقف على قدميه على مخرج المقطورة، وقعت عيناه على مجموعة كبيرة من البشر جميعهم يتحركون بسرعة للركوب على متن قطاراتهم، كما كان الجميع يجرون من خلفهم أمتعتهم الخاصة ما بين طرد وحقائب بأحجام مختلفة وبألوان شتى...

وصار يبحث عن دليله الشاب حتى وجده فوق رصيف القطارات وهو مشغول برفع وتحميل أمتعة المسافرين إلى داخل مقطورات القطار. طلب منه أن يدله على القطار المتجه إلى حيث مدينة نيالا، أخذه الشاب من يده وذهب به إلى منصة القطارات، وقال له:

- اركب على سطح هذا القطار، إنه القطار المتجه إلى نيالا.

تسلق توتو كافي إلى سطح القطار بحذر خوفًا أن يراه أحد العاملين في القطار كي لا يمنعه من التسلق أو يعيده مرةً أخرى من سطح القطار إلى سطح الأرض.

عاد دليله الشاب وقلبه مليء بالفرحة على المقلب التي نفذه في توتو كافي، يبدو أنه أخيرًا قد نجح في القيام بمخططه الجنوني للانتقام من توتو كافي الذي استلطفته حبيبته حبيبة حتى تواصل معها جسديًّا ليلةً كاملةً.

يا إلهي إنه ضلل الفتى توتو كافي، وجعله يركب القطار المتجه إلى أقصى الشمال تحديدًا إلى مدينة حلفا، وتوتو كافي كان غافلًا عن مصيره، لم يكتشف بعد بأن دليله الشاب كان على نية للانتقام منه بهذه الطريقة الخبيثة. ها هو الآن أركبه فوق سطح القطار المتجه إلى أقصى الشمال بدلًا من مقصده القطار المتجه إلى مدينة نيالا، حيث ذهبت خطيبته ليزا.

لم ينقذه أحد من تلك المصيبة التي هو عليها الآن. كان جميع أفراد تلك المجموعة مشغولين بتحميل عفش المسافرين لجمع حفنة من المال لتوفير ما

يبقيهم على قيد الحياة. لا بد لهم الاغتنام من هذه الفرصة التي تُتَاح لهم يومين فقط في الأسبوع خصوصًا زعيم تلك المجموعة، كان أكثرهم انشغالًا لدرجة أنه لم يلاحظ الفتى توتو كافي فوق سطح القطار المتجه إلى شمال السودان.

تحركت عجلات القطار ببطء وهي تطلق تلك الصفارة الغليظة على آذان البشر باستمرار، وبدأ القطار يقذف كتلًا سوداء من الدخان إلى السماء بكثافة عبر عادمها العملاق، يبدو أن السائق قد بدأ يضيف الفحم الحجري إلى ماكينة القطار حتى بدأ القطار يزحف فوق خط سكة الحديد بسرعة شديدة.

وفي لمح البصر ابتعد القطار عن المحطة حتى اختفى عن نظرات من كانوا في المحطة، وحين تجاوز القطار منطقة مصفاة الجيلي وأصبح في أرض تخلو من القرى السكنية بدأ سطح القطار يعج بالحركة. خرج الجميع من مخابئهم السرية من ضمنهم الفتى توتو كافي كانت أعدادهم كثيرةً، ومتنوعةً وأعمارهم أيضًا مختلفة، الإناث والذكور معًا، منهم من بلغ ومنهم من ما زال طفلًا لم يبلغ بعد...

تجمعوا جميعهم على سطح إحدى المقطورات المحملة بالبضائع، وتعرفوا على بعضهم البعض، منهم من كان مألوفًا على أغلبهم ومنهم من كان غريبًا عليهم وعلى القطار على حد سواء، خصوصًا الفتى توتو كافي كان ضيفًا عليهم وعلى القطار أيضًا.

استقبلوه في وسطهم بعدما تعرفوا عليه، وبعد مرور وقت قصير أخرجت إحدى الفتيات البالغات بعض الأكياس المليئة بالأطعمة، وقامت بوضعها في وسط المجموعة، وقالت لهم: «هيا إلى الطعام أيها الرفاق»... وبدأت تلك الفتاة تطعم القاصرين باهتمام مثلما تطعم الأم صغارها.

تبدو كأنها ملكة هذه المجموعة، وهذا ما لاحظه توتو كافي وتأكد من ملحوظته مؤخرًا من خلال توجيهاتها المستمرة لأفراد المجموعة،

وهم يطيعون أوامرها ورغبتها بهدوء واحترام دون احتجاج. جلسوا إلى مجموعات متفرقة وقضوا نهارهم في تبادل بعض الحكايات المضحكة حتى اشتد عليهم الحر.

حين وصلت الشمس كبد السماء تسللوا إلى داخل المساحات الواقعة بين مقطورات القطار هربًا من حرارة شمس الصحراء الحارقة، قضوا ساعات النهار في الظلال الصغيرة الواقعة بين مقطورات القطار، وبعد أن رحلت ساعة الظهيرة وأصبح الطقس لطيفًا عادوا مرةً أخرى إلى سطح القطار إلى مخبئهم السري الذي يبقيهم على خفاء من الأنظار خصوصًا العاملين في القطار والمراقبين المتجولين باستمرار...

وصل القطار إلى مدينة عطبرة وبدأ السائق يبطئ سرعة القطار تدريجيًّا حتى توقف القطار في المحطة. نبه المراقبون الركاب وقالوا لهم: «أمامكم ساعة من الاستراحة، افعلوا فيها ما شئتم». توجه أغلب الركاب إلى السوق التي كانت على مقربة من حيث محطة القطارات لشراء بعض المأكولات والمشروبات التي تسد بها حاجتهم.

ونزل بعض من مجموعة الشفتة من فوق سطح القطار بهدوء دون عن يراهم أحد، وانتشروا داخل السوق، وغابوا فيها بعض الوقت وعادوا جميعهم حاملين معهم تلك الأكياس المليئة بخليط من بقايا الأطعمة التي جاؤوا بها من المطاعم والكفتيريات، وتسلقوا مرةً أخرى إلى سطح القطار حيث ينتظرهم البقية.

التهموا نصف تلك الأطعمة التي جاؤوا بها بعد خروج القطار خارج مدينة عطبرة بعدما اطمأن المراقبون بوصول جميع الركاب، وتركوا النصف الآخر على جانب لتناولها فيما بعد حين تفرغ بطونهم.

فجأةً؛ توقف القطار في منطقة مهجورة أشبه بالصحراء تحديدًا في المنطقة الوسطى بين مدينة العبيدية وأبي حمد. نزل جميع من كانوا على متن القطار، وانتشروا في تلك البقعة من الأرض ذات التلال الرملية الشاسعة كالنمل حين تسرح على سطح الأرض.

نزلوا جميعًا دون استثناء حتى مجموعة الشفتة نزلوا واختاروا موقعًا معزولًا أشبه بالجبل، لكنه كان جبلًا من الرمال المتحركة؛ استلقوا فيها، وبدأوا يلعبون بعض اللعب المسلية لملأ الفراغ إلى حين يتم تصليح القطار، لكن انتظارهم قد طال كثيرًا، واستفرغ تصليح العطل الفني في القطار الكثير من الوقت.

الجميع نام حين تجاوزت الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. شعر بعض من مجموعة الشفتة بالجوع رغم أنهم قد تناولوا ما تبقى من أكياس الطعام في الساعات الأولى من الليل تحديدًا بعد توقف القطار بقليل، وها هم الآن قد فرغت بطونهم ولديهم شهوة طعامية ضرورية لا تحتمل الانتظار خصوصًا الأطفال الصغار الذين لم يبلغوا أشدهم بعد.

بدؤوا يشكون من الجوع وهم يطلبون ملكتهم للقيام بتوفير بعض الطعام لهم. لم يحتمل توتو كافي جوع الأطفال، فغادر المجموعة بسرعة واتجه إلى القطار، وتسلل إلى داخل المقطورات الخاصة بالركاب، كان البعض منهم داخل المقطورات وآخرون كانوا خارج المقطورات نائمين على الرمال كأصحاب الكهف، فسطا على جميع المقتنيات الخاصة بالركاب...

وانتقل من مقطورة إلى أخرى حتى استطاع جمع الأكياس المليئة بالأطعمة بجميع أنواعها من داخل مقطورات الركاب الذين غفلوا عن تأمين مخزونهم الاستراتيجي الذي يبقيهم على قيد الحياة ليومين آخرين...

ها هو توتو كافي أخذها جميعًا دون أن يخلف وراءه كيسًا واحدًا، والأسوأ من ذلك أنه قد عثر على جميع أموال الركاب، فأخذها معه داخل قطعة من القماش تبدو أنها كانت من جلابيب نسائية، ثم عاد إلى مجموعته الموجودة في التل الرملي وهو يجر خلفه سجادًا كبيرًا تطفو فوقه جميع مقتنيات الركاب ما بين مأكول ومشروب، أما النقود كان يحملها فوق كتفه.

انقضوا جميعًا على تلك الوليمة المتنوعة بالعديد من الأطعمة الشهية: أكياس من الخبز الآلي والكثير من المعلبات مثل المربى والطحينة والألبان، وبعض الكيك والبسكويت وأشياء أخرى مغرية. تدخلت ملكتهم، وقامت بأخذ نصف تلك الأطعمة بعيدًا، وطلبت من الفتى توتو كافي مساعدتها في نقل نصف الأطعمة إلى مخبئهم الخاص الواقع على سطح القطار...

تسلقوا إلى السطح وأخفوا زادهم، ولأن تلك الفتاة يعتبرها أفراد المجموعة ملكتهم؛ توتو كافي هو الآخر بدأ يؤمن بملوكتها وقيادتها من خلال توجيهاتها وتدخلها بحكمة في اللحظات الحاسمة، لذلك أخبرها بصراحة قائلًا:

– لقد سرقت جميع نقود الركاب الموجودين داخل القطار.

وأعطاها تلك الرزمة الكبيرة من النقود، وقال لها:

– ضعيها في مكان سري لا يمكن الوصول إليه أبدًا مهما بحث أحدهم بدقة.

فأخذته، وذهبت به إلى أحد المقطورات المحملة بالبضائع، وقامت بدس تلك النقود داخل البضائع، وعادت إليه وقالت له:

– لقد خبأتها في مكان سري لا يمكن الوصول والعثور على تلك النقود حتى لو جاؤوا بسيدنا الباحث نفسه، وليس المباحث فحسب...

نزلوا بسرعة وعادوا إلى حيث بقية المجموعة وقاموا بالتخلص من جميع الآثار التي ستجلب لهم الشبهة والهلاك من بعدها دفنوا بقايا الأطعمة والأكياس الفارغة في أعماق الرمال، واستلقوا فوق ذاك التل إلى قبيل بزوغ الفجر ونهوض الركاب، فتسللوا إلى داخل مخابئهم السرية.

وحين استيقظ بعض الركاب لأداء صلاة الفجر وجدوا أن القطار قد تم سرقته في ساعات الليلة الماضية وهم في نوم عميق، ولم يترك لهم اللص ما يُؤْكَل أو ما يوصلهم إلى أهاليهم، فأصبحوا في وضع لا يُحْسَدون عليه. لقد فقدوا طعامهم وأموالهم في تلك البقعة الصحراوية الملعونة، وما زالوا يجهلون كم ستستفرغ من الوقت لإصلاح عطل القطار.

صرخوا بأعلى أصواتهم حتى استيقظ جميع الركاب من نومهم، وصاروا جميعًا يصرخون على تلك المصيبة التي وقعت عليهم كالصاعقة، بكوا جميعًا خصوصًا النساء، ورموا أجسامهم الرقيقة على الأرض، وقاموا بحمل الرمال بيدهم وقذفوها فوق رؤوسهم حتى تغيرت ألوان شعورهم ذات السواد الداكن إلى رمادي أغبر...

أما الرجال وبعض من شعبة شرطة القطارات بحثوا داخل القطار، ولم يعثروا على شيء واحد من تلك المسروقات طعامًا كان أو نقودًا، لقد فشلوا فشلًا ذريعًا في العثور على دليل يدلهم إلى السارق أو يقودهم إلى حيث المسروقات، فقط كل ما نجحوا في تحقيقه إصلاح القطار الذي تعطل منذ الساعات الأولى ليلة البارحة.

قد قضى بعض المهندسين ثلث الليل في إصلاح القطار. ها هم الآن تمكنوا من إعادة تشغيله، وأطلقوا من بعدها سلسلة من الصفارات تنبيهًا لصعود الركاب. تسلق الجميع إلى داخل مقطوراتهم بسرعة خوفًا من أن

يفوتهم القطار، وتحرك القطار وانطلق بسرعة البرق لكي يعوض فارق الزمن الذي أضاعه جراء تعطله لساعات طويلة منذ بداية الليلة الماضية...

وبعد غروب الشمس بقليل توقف القطار داخل محطة سكة الحديد بمدينة حلفا تلك المنطقة الواقعة في أقصى الشمال، وتوجه جميع ركاب القطار إلى مركز الشرطة للتبليغ عن مفقوداتهم لكن جميع جهود رجال الشرطة فشلت في العثور على هوية السارق، فطلب رجال الشرطة من الركاب الذهاب إلى ذويهم، وهي ستباشر عملها وستخطرهم الشرطة حين تتوفر لديها معلومات بخصوص السارق أو المسروقات...

غادر الركاب إلى بيوتهم وهم تحت أسًى على فقدانهم جميع مقتنياتهم الخاصة، أما توتو كافي ورفقاؤه تسللوا من داخل مخابئهم إلى حيث الأمان إلى بقعة مهجورة واقعة على ضفاف السوق؛ تُعَد مخبأهم الخاص الذي يختبئون فيه إلى حين يطلق القطار الصفارة النهائية للعودة إلى الخرطوم.

الآن لديهم كل ما يحتاجونه للبقاء بعيدًا عن الأنظار، وما يلزمهم من مأكل ومشرب لمدة أسبوع كحد أدنى، وفي صبيحة اليوم الثالث سمعوا صوت صفارات القطار وهي تعتدي على آذانهم بقسوة. توجهوا إلى المحطة بسرعة وتسللوا إلى داخل مخابئهم دون أن تلتفتهم أنظار الركاب والشرطة على حد سواء.

تحرك القطار من المحطة بعد ساعة متجهًا إلى العاصمة الخرطوم جميع المجموعة كانت سعيدةً وهم داخل مخبئهم السري وبحيازتهم تلك الغنيمة الضخمة التي تحصلوا عليها قبيل أربعة أيام، ها هم الآن عائدون إلى الخرطوم...

لكن الفتى الكوشي توتو كافي كان أكثرهم سعادةً بعودته إلى الخرطوم مرةً أخرى، ومنها سيصحح مساره إلى نيالا إلى حيث تلك المدينة التي

أُخِذَت إليها خطيبته ليزا، لكنه كان غاضبًا من دليله الشاب الذي ضلله، وجعله يتسلق على سطح القطار المتجه إلى الشمال بدلًا من القطار المتجه غربًا إلى حيث المدينة التي سيعثر فيها على توأم روحه ليزا...

أخيرًا فطن بأن دليله الشاب هو ذاك الشخص الذي أشار إليه زعيم مجموعة الشفتة بانزعاجه من العلاقة الجسدية التي كانت تتم بينه وبين تلك الفتاة حبيبة، وقال في سره: «يا إلهي؛ كم كنت قاسيًا علي حين جعلتني أستقل هذا القطار، ودفعتني إلى هذه الرحلة القاسية»...

واستمر القطار يمضي نحو الخرطوم ليل نهار، وظلت تلك المجموعة داخل مخابئها حتى توقف القطار في محطة الخرطوم بحري. نزل توتو كافي ورفقاؤه لينضموا إلى مجموعة الشفتة، وسرعان ما التقت عيناه مع عيني الشاب دليله الذي دله إلى القطار الخاطئ...

اقترب منه ببطء والجميع كانوا خائفين من الذي سيحدث بين توتو كافي ودليله الشاب حين يقتربان ببعضهما البعض، لكنهم تفاجؤوا كثيرًا حين قام توتو كافي بسحب الشاب إلى حضنه، وراح يقول له:

– كان بإمكانك مصارحتي بأن حبيبة هي عشيقتك... إنني آسف كثيرًا على ما فعلته مع فتاتك.

– (بابتسامة) لا تشغل بالك، وإني قد سامحتك، وأقسم لك؛ سوف تغادر في صبيحة الغد إلى مدينة نيالا.

– (بابتسامة صلح) هل صحيح أنني سأغادر في صباح الغد؟

– نعم؛ لذلك دعنا نحتفل جميعًا ما تبقى لنا من هذا اليوم.

اقتربت منه الفتاة حبيبة حتى التصقت به، وهي تنظر إليه بعينيها اللتين ما زالتا مشحونتين بالرغبات والشهوات، وما زالت تشتهي جسد الفتى توتو

كافي بجنون، ولم تشبع منه بعد، لكنه أخبرها بصراحة بأنه ما عاد يرغب في تكرار ما فعله معها في المرة السابقة، ولا يرغب في خيانة صديقه الشاب مرةً أخرى، ولا يريد أن تُوَجه إليه تهمة الخيانة...

ثم قام باستدعاء الفتاة التي كانت برفقته فوق سطح القطار، وظلت ترعى المجموعة كأم لهم وهم أبناؤها لدرجة أن توتو كافي أيضًا أحبها، واستلطفها على خفاء، وها هو الآن بدأ يغازلها هربًا من تلك الفتاة اللعوب حبيبة، ويبدو أن الفتاة هي الأخرى كانت تبادله الشعور نفسه، لكنها انطوت على نفسها وقررت كبت مشاعرها دون البوح بها حتى سمعت توتو كافي يطلب منها الاقتراب، وأخذها على صدره وقال لحبيبة:

- هذه هي الفتاة التي أرغب في قضاء سهرة هذا اليوم معها...

وقام باستدعاء الجميع وطلب منهم الاقتراب، وأخرج رزمةً من المال فئة الخمسين جنيهًا، وقام بإعطائها لزعيم المجموعة، وقال له:

- خذ هذا المال وأحضر به الطعام والشراب وكل ما تشتهيه النفس، لكي نحتفل جميعًا...

غادر الزعيم ومعه المال وبرفقته بعض الشباب، وبعد ساعة عادوا حاملين معهم الكثير والكثير من الأطعمة التي تكفي أضعاف مجموعتهم؛ التي لم يتجاوز عددها العشرين شخصًا وأيضًا أحضروا، معهم بعض المواد اللطيفة واللعيبة بالخلق التي تنعش العقول، وتلطف مزاجهم...

التهموا بعضًا من تلك الأطعمة بشهية عالية حتى شبعوا جميعًا، وتناولوا من بعدها تلك المواد المسكرة حتى غابوا عن الوعي، وأصبحوا سكارى، وركن كل منهم على ركن برفقة فتاة، وأخذ توتو كافي فتاته وذهب إلى إحدى المقطورات المهجورة وبقيا داخلها ما تبقى من ساعات النهار...

وبعد غروب الشمس خرجا لأخذ بعض الأطعمة والمشروبات وعادا إلى داخل مقطورتهما مرةً أخرى قضيا الليل بكامله حتى سمع صوت منادٍ يطلب منه التحرك والخروج بسرعة لكي لا يفوته القطار المتجه إلى نيالا.

نهض من نومه مذعورًا وارتدى بنطلونه دون ترتيب وخرج مسرعًا وهو يحمل بيده اليمني المال الذي سرقه من ركاب القطار، وبيده الأخرى قميصه، ولم يودع فتاته التي قضت معه الليل بنهاره، فقط ترك لها نصف تلك الأموال، لكي تصرفه تلك الملكة الجميلة على مجموعتها بالتساوي دون انحياز أو تمييز البعض على الآخر.

«إن العدالة شيمة من شيم تلك الفتاة. بالحق؛ إنها أكثر عدالةً من حكامنا الظلمة أما ضميرها فهو أيضًا أكثر نقاءً». هذا ما قاله الفتى توتو كافي كما أضاف قائلًا: «إذا سألني الشعب أيهما سأختار رئيسًا للجمهورية؟ هل تليق تلك الفتاة المشردة لحكم البلاد؟ أقسم بالله أنني سأختار الفتاة المشردة لأسباب عديدة، أولًا إنها نقية القلب، وثانيًا لديها النزاهة الوطنية، وثالثًا صادقة فيما تفعله، ورابعًا تراعي الضعيف الذي يحتاج للرعاية...

عمومًا؛ حين نزل من مقطورته بدأ القطار المتجه إلى نيالا بالزحف فوق خط سكة الحديد، وبدأ دليله الشاب يطلب منه الركض بسرعة. ركض توتو كافي بأقصى سرعته وتسلق فوق سطح القطار.

وقف على قدميه وبدأ يودع بقية المجموعة عبر التلويح بيده حتى اجتاز القطار جسر بحري القديم، وشق طريقه مرورًا بمدينة الخرطوم وبعض الحارات السكنية الأخرى الواقعة على ضفاف سكة الحديد، وبعد ساعة تقريبًا وصل القطار خارج مدينة الخرطوم، وأصبح في الخلاء الطلق الخالي من ازدحام السيارات.

انطلق القطار بسرعة وهو يغيم الفضاء بدخانه المتصاعد، وظل يمضي قدمًا فوق خط سكة الحديد التي تعتبره سبيله الخاص دون شريك، والويل لمن يعترض طريقه أو يقترب من سكة الحديد، حتمًا سيُصَاب بإصابات بالغة لن يُشْفَى منها طيلة حياته إن نجته الأقدار من الموت لحظتها.

واصل القطار رحلته وهو يجتاز بعض القرى النائية الصغيرة دون توقف، وبعد شروق الشمس توقف القطار في حاضرة مدينة كوستي. كانت رائحة الطين الطمي منتشرةً في الهواء بطريقة عشوائية دون ترتيب، وبدأت تلك الرائحة تخترق أنوف البشر بقوتها وطيبتها.

يبدو المزيج من الروائح الطبيعية جراء هطول الأمطار بغزارة والأرض تغطيها طبقة خضراء من الحشائش الطبيعية التي نبتت من رحم الأرض الطيبة، وحين وقعت عينا توتو كافي على تلك الطبيعة الخضراء لم يستطع رفع بصره، وظل يشاهد الرياح تراقص الحشائش لتجعلها تميل إلى الأسفل، وتعود إلى الأعلى مرةً أخرى وكأنها تصلي وأغصانها ترفرف، وتصدر صوتًا كالإيقاع الموسيقي.

قال توتو كافي: «يا إلهي؛ إننا في موسم الخريف». وسأل أحد الشباب الذين كانوا معه على متن القطار الذي مضى بهم إلى أقصى الشمال قائلًا:

- ألم تلاحظ شيئًا غريبًا يا صديقي؟

- لا يا أخي؛ إنني لم أفطن بعد إلى ما ترمي إليه.

- (بابتسامة) ألم تلاحظ بعد أن هذه الأرض الطيبة قد اخضرت تمامًا على عكس تلك الأرض الملعونة في الشمال، والتي ما زالت جرباء وغبشاء، تموت فيها الطيور والناس عطشًا جراء انعدام الماء.

راح الشاب يخبره بالاختلافات البيئية والتغيرات المناخية والزخف الصحراوي وغيرها من علوم الطبيعة، إلا أن توتو كافي لم يقتنع بتلك المحاضرة العلمية التي ألقاها عليه رفيق سفره. يبدو من ملامح ذاك الشاب وتصرفاته أنه من الذين نالوا نصيبهم من العلم الوافر، لكن لم تُتَح له فرصة عمل في ظل هذه الحكومة التافهة والمغيبة لطموحات الشباب.

إنهم شرذمة من المقتلين عقليًّا؛ أصابتهم الشزوفرينيا، إنها الشيخوخة المبكرة؛ المرض الذي يجعل المُصَاب به يتخبط في تصرفاته كالبعير والحمير حين يصيبه الهلع؛ لا يعي نتيجة أفعاله إن كانت صحيحةً أو خاطئةً.

لقد أصابوا الشعب بهذا الداء، وجعلوه يفكر بأذنه لا بعقله، ينجرف وراءهم بآذان طائع وعقل ضائع. هل هم سحرة أو أولياء؟ لا وألف لا، إنهم ليسوا هذا ولا ذاك، إنهم فقط قاتلو العقل، ويحتاجون لجلسات مكثفة مع طبيب ماهر، لكي يؤكد لهم أنهم بالفعل يعانون من شيء غير طبيعي في عقولهم، وإذا لم نفعل معهم ذلك لن نرى منهم خيرًا، وستسوء أحوال البلاد والعباد...

وإذا لم تنجح معهم التجربة الأولى دعونا نأخذهم إلى شيخ درويش يضربهم بالكرباج، وإذا لم يفلح ذلك اصعقوهم بالكهرباء حتى يستعيدوا رشدهم، كي يكفوا عن سياستهم القذرة تلك، وحين يتم ذلك نقول لهم توقفوا عن زرع الفتن وتأجيج النعرات العنصرية، وادعوا للديمقراطية لا للجهويات والقبليات والتبعيات... نحلم بدستور تتساوى فيه حقوق الجميع...

❁❁❁

18

عذرًا؛ دعونا نعود مرةً أخرى لمواصلة قصة الفتى الكوشي توتو كافي...

قال لرفيقه الشاب:

– أعتقد أن تلك البقعة من الأرض قد أصابتها اللعنة الكبرى بسبب سوء أفعال قاطنيها... يُقَال إنهم يسبون الطبيعة حين تهديهم الأمطار، ويصرخون بأعلى أصواتهم ويقولون كفى من الأمطار التي أفسدت رطبنا...

صمت توتو كافي على صوت العصافير التي بدأت تغرد بأصوات جميلة، وتحلق في الفضاء، وتعود مرةً أخرى فوق الأشجار، وتقفز بين أغصانها العديدة، يبدو أنها تعبر عن فرحتها بقدوم هذا الضيف؛ الذي سيسهل عليها سبل الحياة، وستزيد من نمو الأشجار، لتخضر أوراقها مرةً أخرى، وتأتي لها بثمار تعد مصدر غذائها...

استمر القطار في مسيرته نحو الغرب وهو يشق طرقًا تحيط من جانبيها مساحات خضراء شاسعة. كان جميع ركاب القطار يستمتعون بتلك الرحلة، وهم يشاهدون تلك المناظر الطبيعية الخلابة عبر نوافذ المقطورات...

أما توتو كافي ورفقاؤه على عكس ذلك كانوا يتابعون، ويشاهدون كل شيء من فوق سطح القطار؛ منها الجبال الواقعة على بعد أميال من حيث خط سكة الحديد والمزارعون وعمال الجنقو المنتشرون بكثافة يحرثون الأراضي؛ بعضهم عمالة تخدم بالأجر، وآخرون ملاك تلك الأراضي...

كانت الرياح تمضي في الفضاء حاملةً معها النسيم البارد. توقف القطار العديد من المرات في بعض المحطات الصغيرة في القرى النائية، منها محطة السميح، وأم روابة والرهد والأبيض والخويل والنهود، لم يرى فيها توتو كافي غير البساط الأخضر على سطح الأرض، والأشجار العملاقة المتنوعة والخيران والوديان إلى حين توقف القطار في محطة الضعين.

نزل من القطار لتناول وجبة من الطعام، ولشراء بعض الأطعمة لتكون له زادًا في رحلته. سار أمام صف من الأماكن الخاصة لبيع المأكولات والمشروبات الساخنة بمختلف أنواعها تديرها فتيات جميلات؛ لم يشهد جمالًا يفوق جمالهن، أحبهم توتو كافي من النظرة الأولى، وفتنه جمالهن لدرجة أنه قضى معهم ساعتين كاملتين، ولم يستطع تحديد أي من الفتيات الأكثر جمالا...

لكن لسوء حظه بدأ القطار يطلق تلك الصفارات الغليظة إخطارًا لجميع المسافرين بضرورة الصعود للقطار. تسلق الركاب بسرعة ومن ضمنهم توتو كافي ورفقاؤه المسافرون معه فوق سطح القطار، وبعد عدة أيام وصل القطار إلى حاضرة مدينة نيالا...

غادر جميع الركاب القطار، وذهبوا إلى أهاليهم وذويهم، أما توتو كافي ورفقاؤه ذهبوا إلى السوق الكبير بمدينة نيالا، وانضموا إلى أصدقائهم المشردين الذين أحسنوا ضيافتهم. لقد وفروا لهم المأوى والمأكل والمشرب، وجميع ما يحتاجونه لدرجة أنهم أحضروا فتاةً لمن لا فتاة له لكي تسليه وتمتعه، إلا أن توتو كافي رفض القبول بالفتاة التي أحضروها له كهدية ضيافة...

وحين سألوه لماذا رفض الفتاة أخبرهم قصته التي جاءت به إلى نيالا، فحزن جميع من سمعوا قصته، وترجل أحد الصبية وقال لتوتو كافي:

- إنني أعرف المساعد الذي ذكرته قبل قليل المدعو أبو جاكومة.

فرح توتو كافي كثيرًا حين سمع الصبي يقول له أنه يعرف أبا جاكومة، احتضن الصبي وشكره شكرًا ليس من بعده شكر، وطلب من الصبي أن يأخذه إلى مكان أبي جاكومة، فاعتذر منه وقال:

- آسف؛ إنهم قد سافروا إلى الخرطوم في صباح الأمس.

فطلب من الصبي قائلًا:

- إذًا؛ خذني إلى منزلهم.

- (هز الصبي رأسه) أنا لا أعرف أين منزلهم، إنني فقط أعرفه في السوق... (وبعد مضي ثوانٍ) لكنني أرى في بعض الأحيان مكان مبيت شاحنتهم.

- إذًا؛ خذني إلى ذلك المكان.

تحرك الصبي، وقال له:

- هيا بنا...

شقا طرقات السوق بسرعة ودخلا أحد الأحياء السكنية المجاورة للسوق، لم يمضيا كثيرًا حتى توقف الصبي أمام منزل ضخم ذا حوائط عالية مشيدة حديثًا بالطوب الأحمر، لم يمض على بنائها الكثير من الوقت، ما زال طلاء الباب الرئيسي لامعًا ورطبًا.

كان ذاك الباب الضخم موصودًا بقوة. لقد تنفس توتو كافي الصعداء، فيبدو أخيرًا قد ارتاح واطمأن بعدما عرف مكان خطيبته ليزا. وطلب من الصبي العودة إلى السوق إلى حيث موقعهم الخاص قائلًا:

- دعنا نعود إلى معقلنا، وإنني سوف أقتحم هذا المنزل في صباح الغد.

وحين وصلا إلى معقلهم وجدا مأكولات كثيرة كانت في انتظارهما قد أحضرتها بقية المجموعة من مطاعم السوق. التفوا جميعًا حول مائدة الطعام، وبدؤوا في التهام تلك المأكولات الشعبية: العصائد بمختلف أنواعها، منها ما صُنِعت من دقيق الذرة الأبيض، وأخرى صُنِعت من دقيق الدخن الأصفر...

تلك الذرة الغنية بالفيتامينات والبروتينات؛ التي تُعَد من أهم المأكولات في تلك الأرجاء، وتُعْتَبر الوجبة الغذائية الرئيسية لدى سكان تلك المنطقة الغربية، وحتى الطبائخ التي تُطْلَق عليها الملاح كانت جميعها شعبيةً، جاءت من رحم الطبيعة، منها الملوخية التي يُطْلَق عليها في السودان الخضرة...

والتقلية التي تُصْنَع بالبامية التي يتم عرضها لحرارة الشمس حتى تصبح عيدان يابسةً، ويتم طحنها حتى تصير دقيقًا ناعمًا يستخدمون منها القليل لصنع ملاح التقلية المضافة عليها بعض من قطع اللحم اليابس؛ التي يُطْلَق عليها اسم الشرموط، في أغلب الحالات يُضَاف إليها مسحوق ذا سواد داكن يُطْلَق عليه اسم الكاوال.

بالحق؛ إنها لذيذة وشهية وصحية أيضًا، فيما مضى كانت تُعْرَف هذه الأكلة من الأطعمة الخاصة بالزنوج، إلا إنها سرعان ما انتشرت في جميع بقاع السودان؛ يتناولها ثلث سكان السودان الزنوج والأعراب والمستعربون معًا...

يُقَال إن الكاوال له فوائد كثيرة منها النمو وتقوية جهاز المناعة لدى الإنسان، وحماية المعدة من الإصابة بالأمراض الخاصة بالباطنية، ومكافحة الشيخوخة المبكرة، يُقَال أن الأشخاص الذين تربوا عليها جميعهم معمرون؛ تجاوزوا المائة عام دون أن تنحني ظهورهم أو تبطأ حركتهم، والأغرب في ذلك أنهم يتزوجون بفتيات في العشرين من العمر وهم في سن ما بعد السبعين...

تُصْنَع الكاوال من أوراق إحدى الأشجار التي تنمو بكثافة في الأراضي المطرية الواسعة؛ يبلغ طولها ما بين ستين سنتيمترًا إلى مائة وخمسين سنتيمترًا، يقومون بأخذ أوراقها المستديرة ذات اللون المائل إلى اللون الأغبش والأخضر، تُجْمَع أوراقها ويتم دقها حتى تصير طحينًا، ويتم تخميرها من بعد حتى تفوح منها رائحة لا تُطَاق...

يقومون بأخذ القليل منها على راحة اليد، ويقومون بضغطها بقوة حتى تصبح يابسةً وخاليةً من المواد السائلة، تُصْنَع منها كور مستديرة كحجم البيضة، وتُعَرض لحرارة الشمس لأيام كثيرة حتى تصير يابسةً تمامًا، ويتم استخدامها على حسب حاجتهم الضرورية لتناولها.

جميع المجموعة كانت تتناول تلك الأطعمة باستمرار استثناء الفتى الكوشي توتو كافي لم يتناول مثل تلك الأطعمة طيلة الأعوام التي قضاها في الخرطوم منذ اليوم الذي هرب فيه من قريته (كيقا جرو) مخلفًا وراءه والديه وحيدين دون أحد يرعاهما، إلا أنهما كانا تحت عناية الخالق بالرغم من أنهما قد عانيا كثيرًا بعد هروب ابنهما الوحيد توتو كافي...

انضم والده بعد عام تقريبًا من مغادرته إلى الحركة الثورية التي كانت قائمةً في المنطقة ضد تلك الفئة المدعية بالإصلاح، لكنهم أولياء الكذبة، ورسل الفساد والمنافقون بالفطرة الذين أصابتهم الشزوفرينيا...

تُوُفِّي والده في إحدى المعارك التي شنتها الذئاب الضالة للسيطرة على المنطقة، وسقط شهيدًا، وهو يدافع عن عرضه وأرضه التي ورثها من الخالق عبر آبائه وأجداده وأسلافه، والتحقت به زوجته بعد ستين يومًا من وفاته... ما زال ابنهما توتو كافي لا يعلم بوفاة والديه... ها هو الآن يجوب المدن بحثًا عن خطيبته ليزا، وهو الآن في حاضرة مدينة نيالا...

استلقى فوق الفراش ونام باطمئنان كما ينام الطفل في حضن أمه. لقد مرت عليه أيام كثيرة، ولم يهنأ بمثل تلك النومة العميقة. لقد عادت إليه آماله وروحه مرةً أخرى، فقط تفصله عن لقاء خطيبته ليزا بضعة ساعات، وفي صبيحة اليوم الثاني استيقظ من نومه مبكرًا بعد صياح الديك؛ ذاك المخلوق الذي وهبه الخالق القدرة لتحمل مهمة إيقاظ الخلق كي يرعوا مصالحهم...

وصل أمام المنزل في تلك الساعة المبكرة، وجلس على صخرة كبيرة كانت موجودةً في أحد الأركان المواجهة للمنزل الذي يتربص به للعثور على خطيبته ليزا. بدأ الناس بالخروج من منازلهم متجهين نحو السوق لمباشرة ومزاولة أعمالهم مبكرًا، وبعد مضي ساعات وهو يترقب مدخل الباب العملاق.

فجأةً؛ وقعت عيناه على خطيبته ليزا خارجةً عبر ذاك الباب الذي كان موصودًا بقوة، ركض إليها بطريقة لا شعورية وأخذها في حضنه، وبدأت عيناهما تذرفان الدموع بغزارة. سألها:

- لماذا هربت مني وتركتني وحيدًا؟

- لقد أثر علي بجماله وأخلاقه، كما أنني كنت غاضبةً منك.

- (سحبها من يدها) دعينا نعود إلى الخرطوم.

- (أوقفته) لا يمكنني فعل ذلك بعد الآن لأنني أصبحت زوجته، (وأشارت بيدها إلى بطنها)... ألم ترى أنني حامل بجنينه الآن، وفي شهري السادس؟

أخذته إلى داخل المنزل وقدمت له بعض الأطعمة الصحية وبعض النصائح أيضًا، طالبةً منه الاستقرار والاهتمام بموهبته في الرسم وأخبرته أنها ما زالت محافظةً على لوحتها الخاصة التي رسمها. ذهبت إلى أحد الغرف،

وجاءت بصورتين كبيرتين إحداهما صورتها الخاصة التي قام برسمها بيده، وأخرى صورتها التي التقطتها مع زوجها في ليلة زفافهما.

ألقى توتو كافي نظرةً على اللوحتين اللتين تحملان جميعها وجه حبيبته ليزا. جلس الاثنان بجوار بعضهما البعض، وظل توتو كافي يشاهد صورتها الثانية وهي بفستان الزفاف، أما ليزا كانت تحكي له تلك اللحظات السعيدة التي قضوها معًا خصوصًا الذكريات الأليمة والمأساوية، وفي تلك اللحظة سمعا صوت رنين هاتف المحمول يرن بصوته العالي...

رفعت ليزا الهاتف بسرعة، وضغطت على الزر الأخضر، وبدأت تجري الحديث بصوت عذب مع الشخص الذي يحادثها عبر الهاتف. بالحق؛ إن الاتصال كان واردًا من زوجها الشاب للاطمئنان عليها، وراحت تخبره بقدوم الفتى الكوشي توتو كافي، وأخبرت زوجها قائلةً إنه معها داخل المنزل.

فرح زوجها وطلب منها إعطاء الهاتف لتوتو كافي لكي يتعرف عليه، وضع توتو كافي الهاتف على مقربة من أذنه اليمنى، أخيرًا إنه الآن على وشك الغوص معه في الحديث عبر الهاتف، سمع صوت الشاب يقول له:

- كيف أخبارك يا صديقي توتو؟

وحين سمع زوج حبيبته ليزا يصفه بالصديق ذابت كراهيته التي شبت في قلبه اتجاه هذا الشاب حين علم أنه قد هرب بحبيبته ليزا، وبدأ يضعف ويذوب حين سمع الشاب يقول له:

- في الحقيقة إنني سعيد جدًّا بوصولك إلى منزلي.

وطلب منه المكوث في منزله كما يشاء، وقد أمنه الشاب على زوجته التي كانت عشيقته فيما مضى. ها هو الآن يطلب منه البقاء في منزله مع

زوجته بثقة دون أن تساوره الشكوك في تكرار ما كانا يفعلانه سابقًا... ثقته تلك لم تضع سدًى، وحين أتى الليل ذهب كل منهما إلى غرفته الخاصة، وافترقا عن بعضهما البعض...

قرر توتو كافي ليلتها المغادرة في صباح اليوم الثاني، وبالفعل غادر في صباح اليوم الثاني، وهو يصارع ما بين رغبته الأنانية التي تغلي بداخله للحصول على عشيقته ليزا، وقلبه الذي بدأ يستشعر بإنسانيته. بالحق؛ إنه وقع في معضلة أخلاقية يتحرك بخطوات بطيئة وذهنه مثقل بتلك المصيبة التي هو فيها الآن...

أخيرًا اختار ترك حبيبته ليزا والابتعاد عن حياتها الجميلة تلك، ولا يريد أن يكون سببًا في تعاستها... توجه نحو محطة القطار المتجه إلى الخرطوم الذي ما زال وقتها في المحطة، وسأل بعض الركاب عن ميعاد انطلاق القطار، فأخبروه بأنه سينطلق في تمام الساعة العاشرة...

وبعد مضي ساعتين تحرك القطار من محطة نيالا متجهًا إلى الخرطوم، وبدأ القطار في التوغل إلى الشرق وهو يشق الغابات الكثيفة ذات الأشجار المتنوعة. اجتاز تلك المسافات الطويلة تحت الظلام الدامس حتى وصل إلى مشارف منطقة الضعين تلك المنطقة ذات التلال الرملية...

وسرعان ما تسلق توتو كافي إلى سطح القطار الذي أدمن التواجد فيه طيلة فترات سفره رغم أنه قد استبدل أسلوبه السابق في السفر، وقرر السفر هذه المرة بطريقة شرعية، فابتاع تذكرةً من الدرجة الأولى بحر ماله من داخل المكتب القائم بمحطة القطار بمدينة نيالا، لكنه لم يكن مرتاحًا في النوم على سريره الخاص به داخل إحدى تلك المقطورات التي تم تجهيزها وتزيينها

بعناية فائقة خصيصًا للمسافرين الذين يدفعون الأموال الطائلة من أجل راحته أثناء الرحلة...

ها هو الآن لجأ إلى مكانه المفضل؛ الذي سيجد عنده المتعة التي اعتاد عليها أثناء رحلاته تلك وهو سطح القطار، جلس براحته وبدأ يراقب سيارتين كانتا تسيران في الطريق المجاور لخط سكة الحديد؛ كانتا محملتين بالركاب، وهما في طريقهما إلى مدينة الأبيض تسيران بسرعة جانب القطار، وكأنهما في سباق تحدٍ مع القطار حاملين داخل صندوقيهما ركابًا مرهقين جراء السهر...

لقد قضوا الليل بطوله داخل صندوقي السيارتين اللتين كانتا تتسلقان التلال الرملية، وتهبطان بهم مرةً أخرى، فجأةً وقعت عيناه على أحد الركاب وقد سقط من السيارة التي كانت متقدمةً في الأمام...

كان الراكب تحت غفوته لأنه لم يصرخ، ولم يفزع بعد سقوطه من فوق السيارة على الأرض، وإنما سحب حقيبته التي سقطت معه، وضعها تحت رأسه وبدأ يشخر، وكأنه فوق سريره... ضحك جميع الركاب على ذلك الشاب وأعادوه مرةً أخرى فوق السيارة، وهو ما زال في نومته العميقة تلك...

واستمر القطار في رحلته يومًا تلوى الآخر حتى وصل إلى الخرطوم...

غادر توتو كافي القطار بسرعة واتجه إلى الإسطبلات إلى حيث قلعته وأصدقاؤه الذين مضى على فراقهم الكثير من الوقت، كان على جمر من النار لأجل لقائهم ورؤيتهم جميعًا، لكنه لم يكن يعلم أن مجموعته التي تركها لم تعد موجودةً، فقد تفككت تلك الكتلة البشرية بعد أيام قليلة من مغادرته بسبب نشوب حرب شرسة بين الشباب من أجل الزعامة، وفي آخر الأمر ذهب كل منهم في سبيله...

لم يبق أحد منهم هذا ما اكتشفه توتو كافي بعد وصوله تلك القلعة التي وجدها غابرةً وهادئةً تخلو من البشر. خرج وذهب إلى السوق الشعبي لتناول وجبة الإفطار، ومن بعدها قام متوجهًا إلى محلاته الخاصة بمسح الأحذية...

وحين خرج من المطعم بعد تناول وجبته المفضلة -التي أدمن على تناولها مؤخرًا؛ تلك الوجبة التي يُطْلَق عليها الكمونية، وهي عبارة عن أحشاء الخراف أو البقر في أغلب الحالات- سرعان ما أحاطت به مجموعة من العسكر الذين يعتمرون فوق رؤوسهم الكابات الحمراء، واقتادوه إلى أحد الناقلات وحشروه داخلها بقوة مع بقية الشباب...

كانت الناقلة مليئةً بالشباب الزنوج ذوي البنيات الجسدية القوية. ما زال توتو كافي لم يع بعد بأن إرادته قد سُلِبت منه توًّا، وسيصير عبدًا مخلصًا لعصابة مدمنة سفك الدماء، وهو الذي سيكون سيفهم الجلاد الذي سيسفك لهم دماء من لا يريدونهم على قيد الحياة.

فجأةً سمع أحد الشباب يخبر ذويه عبر الهاتف وهو يقول لهم إنه تم القبض عليه للتجنيد الإجباري الذي يُطْلَق عليه الإلزامية، وسرعان ما بدأت تخرج أصوات البكاء من قبل الشباب.

بكوا جميعهم بأصوات عالية طالبين النجدة أو الخلاص، لكن لا شيء يستطيع إنجادهم، أو تخليصهم من قبضة ذاك النظام المتعطش للحرب والقتل والتشريد.

استمرت حملتهم لساعات وقبضوا فيها ما قبضوا من الشباب وأخذوهم إلى معسكر القطينة، وطلبوا من الجميع الترجل من الناقلة بهدوء ونظام. كانت في انتظارهم مجموعة من العسكر ذوي الوجوه المخيفة، تلك الفئة التي يُطْلَق عليهم التعلمجية، إنهم المكلفون بتدريب المجندين بالإكراه.

قاموا بحلق رؤوس الشباب بطريقة وحشية وتقليدية، تركوهم كاليمامات التي نهشتها الذئاب، كانت رؤوسهم مليئةً بالبقع والدموم، بعض المناطق تعج بالشعر وأخرى تخر منها الدماء، ثم أخضعوهم لسلسلة من التدريبات القاسية، وأطلقوا عليهم أسماء فتيات مثل نسيبة وعزة، أما أكثرهم خشونةً أطلقوا عليهم أسماء كلثوم وفاطمة وخديجة...

وكانوا يحذرونهم من التمرد على قوانين المعسكر، وقالوا لهم الويل لمن يُقْبَض عليه وهو يحاول الهرب من المعسكر، ستكون عقوبته قاسيةً، لذلك كان جميع المجندين مرعوبون من تلك العقوبة القاسية التي سيتعرض لها حين يتم القبض عليه أثناء الهروب...

لكن رغم الحذر والحيطة من قبل حراس المعسكر يبدو أن هناك أحد ما كان يتسلل من داخل المعسكر في الليل، ويذهب إلى القرية المجاورة ويقضي فيها ساعات داخل أوكار البغاء، ويعود قبيل شروق الشمس بقليل.

كان الجميع غافلًا عن ذلك باستثناء توتو كافي. كان يراقبه ويتربص به باستمرار حتى قبض عليه في أحد الأيام بالجرم المشهود. في الحقيقة لم يستطع القبض عليه، ولم يكن ندًّا لذاك الشخص المتسلل من المعسكر، إنه كان الرقيب التعلمجي الذي يشرف على تدريبهم...

لكنه قرر الانتقام منه بإحدى الطرق وهو التبليغ عنه، والوشاية به لدى قائد المعسكر، وبالفعل ذهب إلى قائد المعسكر، وأخبره قصة الرقيب التعلمجي الذي كان يتسلل من داخل المعسكر أثناء الليل...

غضب القائد حين سمع التمرد الذي كان يدور في معسكره وأكثر ما أثار غضبه أن الرقيب هو الذي ينتهك قوانين المعسكر، وضع له كمينًا أثناء الليل، وقبيل شروق الشمس جاء الرقيب عائدًا، وأزاح بعض السلك الشائك

من السور وبدأ يزحف ببطنه من تحت تلك الخطوط من الأسلاك الغليظة، وفجأةً سمع صوتًا يقول له:

– انتباه أيها الرقيب... إذا عبرت السياج ستُجَرد من رتبتك، وإذا عُدْت إلى الوراء ستُعْزل من الخدمة نهائيًا. يا إلهي؛ لقد أصبح الرقيب في وضع يُشْفَق عليه، ولا يُحْسَد عليه، أمامه خياران لا ثالث لهما إما أن يعود جنديًا مرةً أخرى بعد تجريده من رتبته أو أن يعود مواطنًا بعد عزله من الخدمة...

ظل الرقيب الكثير من الساعات وهو يفكر في اختيار أحد الخيارين، وأيهما أخف قدرًا له حتى وصلت الشمس كبد السماء، وأخيرًا اختار التجرد بدلًا من العزل، فأخذوه إلى مكتب القائد، وتم تجريده من رتبته ومهامه التدريبية، وتم نقله إلى المطبخ، وكلفوه بخدمة الضباط، فأصبح طباخ الضباط...

وبعد مرور أيام على تلك الحادثة انتشرت الأخبار وتناقلت داخل المعسكر بأن الفضل يعود إلى المجند توتو كافي، فهو الذي أبلغ عن الرقيب...

جميع رفقائه المجندين فرحوا كثيرًا وشكروه على ما فعله بالرقيب التعلمجي؛ الذي كان يخضعهم للتدريب القاسي طيلة ساعات النهار والليل، لكن زملاء الرقيب التعلمجي بدؤوا يخططون للانتقام من الفتى توتو كافي، فعاقبوه كثيرًا ما بين جزي، وهو الوقوف ساعات طويلة تحت حرارة الشمس دون حركة، ومنها الأعمال الشاقة مثل نقل الصخور الثقيلة من مكان إلى آخر طيلة النهار...

وفي بعض الأحيان يتم حبسه حبسًا انفراديًا لعدة أيام حتى أصبح متمردًا من الدرجة الأولى وأكثرهم عصيانًا، وأصبح منتهكًا جميع القوانين

العسكرية باستمرار، منها السطو على مطبخ الضباط، والمجيء بتلك الأطعمة إلى رفقائه المجندين، وأكثرهم سوءًا استحمامه في هرم المعسكر أمام أنظار الجميع دون خجل أو خوف من العقوبة...

يتجرد من جميع ملابسه حتى يصبح عاريًا كما ولدته أمه، ويأخذ خرطوم المياه، ويبدأ بالاستحمام في ساحة المعسكر على مرأى الجميع، لم يكف يومًا رغم جميع المحاولات التي تمت من قبل الضباط الإداريين لتوقيفه عن القيام بمثل تلك الأفعال، لكنه تحجج قائلًا:

- إنني أكره الاستحمام في تلك الحمامات الجماعية، وحين سألوه عن سبب كرهه أخبرهم أنها مليئة بالقذارات والنجاسة جراء عمليات اللواط التي تُمَارس بداخلها. رفض الاستحمام داخل تلك الحمامات الجماعية إلى حين انتهت فترة تدريبهم...

وفي عصر اليوم التاسع والتسعين شحنوهم في عربات عسكرية ضخمة وأخذوهم إلى مطار الخرطوم، ثم شحنوهم على متن طائرتين عملاقتين سرعان ما حلقت بهم في الفضاء وهبطتا بهم في مطار مدينة جوبا بعد ساعات من التحليق، واقتادوهم كالنعاج إلى ساحات المعارك، إلى حيث حتفهم...

كان جميع أفراد الكتيبة دخلوا في موجة بكاء مستمر باستثناء توتو كافي ومجند اسمه شروم وشاب لديه لحية أشبه بلحية جحا لم تذرف عيونهم بالدموع...

❁❁❁

19

عذرًا؛ أريد أن أعرفكم على شخصين آخرين: شروم والشيخ جحا، هذان الشابان كانا مختلفين عن بقية أفراد الكتيبة، لكل منهما صفة خاصة، وهما شخصيتان على طريقتهما...

فالشاب شروم لا أحد يعرف عنه شيئًا الضباط والمجندون معًا كان، يقضي كل أوقات فراغه في قراءة الصحف القديمة التي يعثر عليها داخل المعسكر، وفي الآونة الأخيرة بدأ الضباط يرسلون له الصحف اليومية التي اطلعوا عليها في ساعات النهار...

أما المجندون حاولوا الاقتراب منه عدة مرات لسؤاله عن اسمه الحقيقي معتبرين اسم شروم هو لقبه بسبب خلو فمه من الأسنان الأمامية، وحين جاؤوا بهم إلى المعسكر في اليوم الأول وسأله الضباط عن اسمه لحصره في الكشف لم يصدق الضباط حين أخبرهم بأنه يُدْعَى شروم...

أما الشيخ أبو لحية كان مشهورًا في المعسكر بسبب سبحته الطويلة المصنوعة من الهجليج، وكان يقضي وقت فراغه في مسجد المعسكر ما بين ركوع وسجود، أو تلاوة آيات من القرآن...

وبعد وصولهم إلى الأدغال دخلوا في معارك متواصلة، وحاربوا فيها بشراسة، لكن يبدو أن دافعهم للقتال ليس بسبب حماية النظام، وأيضًا لم تكن نابعةً بقناعة بمصداقية النظام وشرعيته، وإنما بسبب خوفهم الدائم من فقدان حياتهم في حرب لا شأن لهم فيها...

وبعد مرور عام من دخولهم تلك الأدغال أعادوهم إلى حيث مدينة جوبا لإراحتهم بعض الوقت، فقرر توتو كافي ورفيقه شروم المقرب إليه في الآونة الأخيرة الاستمتاع بتلك الفترة القصيرة؛ التي أُتِيحَت لهما، فتسللا من داخل القيادة وذهبا إلى أحد الأحياء الواقعة في أطراف مدينة جوبا.

سرعان ما اخترقا تلك البيوت وابتغيا بنسائها، وبدآ يتعاطيان ما هو مسكر ومغيب للعقل حتى وقع الظلام... فجأةً؛ حصل إطلاق نار في أحد البيوت المجاورة، ركض الجميع إلى حيث مصدر الصوت، وقعت عيونهم على جثة كانت ساقطةً في فناء المنزل مغطى بالدماء...

وبعد الفحص اتضح أن الشاب المقتول هو أحد أفراد سريتهم، ينتمي إلى كتيبتهم، فحملوه على ظهر حمار وجاءوا به إلى حيث معسكرهم، وسرعان ما وصل الخبر إلى قائد الكتيبة الذي جاء مهرولًا ووقف أمام تلك المصيبة. لم يصدق القصة التي أخبره بها توتو كافي وصديقه شروم مؤكدين له أنهما بريئان من وفاة زميلهما، وقالا له:

- سمعنا صوت إطلاق نار مفاجئة وحين ذهبنا لاكتشاف ما حصل وجدنا زميلنا مُلقى على الأرض...

لكن القائد اتهمهما بالضلوع في مقتل زميلهما، وأمرهما بدفن جثته. يا إلهي ما هذا؟ إنهما لا يعرفان طقوس الدفن، وكيفية القيام به، والأسوأ من ذلك أن توتو كافي وشروم كانا مخمورين في تلك اللحظة لا يعيان ما يفعلانه لكن سلطة القائد كانت أعلى وأقوى عليهم؛ تُطَاع ولا تُرْفَض.

حمل توتو كافي وصديقه شروم الجثمان كما هو إلى حيث ركن المدافن، وضعوه على جانبه في الأرض، وقاما بحفر قبر عشوائي وقاما بإلقاء الجثمان

بداخله، وبعد استقرار جثمان الشاب داخل القبر قذفاه بكميات كبيرة من التراب حتى امتلأ القبر تمامًا، وبعد ذلك الحادث بدأت الفوضى تعم داخل المعسكر.

أصبح الجميع يتهربون من القيام بمهماتهم، ويتسللون من داخل المعسكر في ساعات المناوبة الحراسية التي كانت تُقَام حرصًا على تأمين المعسكر من الهجمات المفاجئة، وسرعان ما أدمن جميع الجنود الهروب من المعسكر في ساعات الليل بحثًا عن النساء، وحتى الشيخ جحا صاحب السبحة انحرف وانجرف مع البقية، وأصبح أكثرهم هروبًا...

تم نقل توتو كافي وصديقه شروم إلى شعبة الاستخبارات التي يديرها أحد الضباط؛ يُلَقب باسم كلب سعران قوامه فارع وجسمه مليء وعضلات يده ضخمة أقرب لعضلات فخديه، يهابه الجميع بسبب وجهه المخيف وأفعاله التي كانت تُعَد من أفظع الأفعال...

وحين يقوم أحد الجنود بالشغب يأخذونه إلى مكتب كلب سعران، يُقَال إنه أشرس الجنود والأكثر بسالةً قد انهاروا وشب في قلوبهم الخوف حين أدخلوهم إلى المكتب التابع لشعبة الاستخبارات؛ التي كان يرأسها المدعو كلب سعران...

كان مكتبه مخيفًا وهو أشبه بكهف الرعب أو مدينة الأشباح وهو مليئ بالجماجم البشرية، لدرجة أن طفايات السجائر الخاص به كانت جمجمتان بشريتان...

وبعد مرور شهرين على التحاقهم بشعبة الاستخبارات تم نقلهم إلى منطقة وعرة مليئة بالجبال ذات الكهوف المرعبة، وهي منطقة حدودية مع دولة إثيوبيا، جميع أفراد الشعبة كانوا سعداء بنقلهم إلى تلك المنطقة التي يتوفر فيها كل ما يحتاجونه من متعة...

لقد سمعوا من قبل عن جمال تلك المنطقة ذات التلال الخضراء، وفتياتها الجميلات اللائي يمكنك الحصول على إحداهن بسهولة وقت ما شئت وأينما شئت...

همس أحد الأفراد بصوت منخفض على أذن صديقه وبدأ يخبره بعض الأسرار الخاصة التي تحدث داخل الموقع الذي يتم نقلهم إليه الآن... إنهم على وشك الوصول عندها الآن. ها هم سمعوا بالصدفة الآن خبرًا يعزز رغبتهم بالارتباط بتلك المنطقة، وقضاء فترة طويلة فيها دون احتجاج طالما هناك وفرة في الفتيات الجميلات، وبعد غروب الشمس بقليل وصلوا إلى موقعهم الجديد...

كان موقعًا عسكريًّا يقع على بعد كيلو من الحدود الإثيوبية السودانية، مجموعة من القطاطي تحيطها من جميع الاتجاهات، سور مشيد من فروع الأشجار اليابس؛ التي جاؤوا بها من داخل الغابات الاستوائية، وضعوها فوق بعضها البعض حتى أصبحت سورًا ضخمًا لا يمكن لأي شيء اجتيازه...

ووضعوا من فوقه بعض أسلاك السياج التي تستطيع تمزيق جسد من يحاول الاقتراب منه، كما كانت توجد لافتات حمراء اللون مكتوب عليها جملة تحذيرية (منطقة عسكرية - ممنوع الاقتراب والتصوير) وأخرى (احترس؛ هناك حقل ألغام)...

نزلوا من فوق الشاحنة وانتشروا داخل تلك القطاطي، وأخذ كل منهم قطيته الخاصة. رفض توتو كافي وصديقه شروم الافتراق عن بعضهما البعض، وأصرا على البقاء تحت سقف واحد، وبالفعل أعطوهما أحد القطاطي الواقعة في أطراف المعسكر...

نام الجميع مبكرًا جراء الإرهاق الذي أصابهم أثناء رحلتهم الطويلة والشاقة معًا، واستيقظوا مبكرًا في صباح اليوم التالي، واجتمعوا سريعًا

في طابور التمام، وقدم لهم القائد بعض التعليمات والتوجيهات، وأمرهم بالانتشار حول المعسكر والقيام بحفر مجموعة من الخنادق التي تُعَد صمام الأمان لتأمين المعسكر...

فجأةً؛ وقعت عيونهم على مجموعة من الفتيات الجميلات قادمات نحوهم. ترك الجميع ما بأيديهم، وانشغلوا بتلك الصبيات، وسرعان ما اختلطت الفتيات مع الجنود الذين استجابوا لتلك المداخلة التي تمت من قبل الفتيات، وبدؤوا يتحرشون بهن، وفي لمح البصر بدأت الفتيات يبدين رغبتهن في ممارسة الجنس مع الجنود...

ربما حصل ذلك بالصدفة أو بترتيب مسبق. كانت مجموعة الفتيات متساويةً مع عدد الجنود. افترق الجنود وذهب كل منهم برفقة فتاته ومارس معها الجنس. طلب منهم قائدهم الحضور في ساحة المعسكر، وصل الجميع إلى ساحة المعسكر بسرعة وهم مشغولو البال في العقاب الذي سيتعرضون له بسبب ما فعلوه داخل المعسكر دون اكتراث بقوانين المعسكرات...

إنها تعد انتهاكًا لقانون الضبط والربط، لكن جميع مخاوفهم قد أُزِيلت حين سمعوا قائدهم يعبر عن مدى سعادته جراء العلاقات الجسدية التي تمت من قبل جنوده مع تلك الفتيات داخل المعسكر، وأخبرهم بصراحة قائلًا:

- إننا بشر ولسنا آلات قاتلة، لدينا رغباتنا الخاصة، ولا بد لنا أن نأخذ نصيبنا من الحياة دون قيود شكلية وُضِعت من قبل شخص ما... لا نعرف من هو هذا الشخص، ولا نرغب في معرفته... نحن الجيش صناع الفوضى...

أخيرًا قد وجد توتو كافي وصديقه شروم قائدًا يستحق العمل تحت إشرافه، هو نسخة منهما، وهناك تطابق بين أفعالهما وسلوكهما مع قائدهما

الجديد، وسرعان ما اقتربا من القائد، وهو الآخر بدأ يفضلهما على بقية أفراد المجموعة لدرجة أنه منحهما ترقيةً، وأصبح توتو كافي وشروم برتبة الملازمين، وكلفهما بإدارة مخزن الذخيرة، لكنهما لم يوفيا بتلك الأمانة...

كانا يسربان الذخيرة من المخزن، ويبيعانها إلى مواطني المنطقة في أغلب الأحوال يستبدلانها بماعز؛ ينحرانها ويأكلان لحمها بعد شوائها. قد أخبرني توتو كافي قائلًا:

– إننا كنا نفعل ذلك، ونحن على يقين تام بأن الذخيرة التي استبدلناها في ساعات النهار بماعز تُطْلَق علينا في الليل، وأيضًا كنا نعلم أن المواطنين الذين يشترون منا الذخيرة مقابل الماعز ليسوا مواطنين عاديين، وإنما كانوا خلايا تابعة للمتمردين، رغم معرفتنا بحقيقتهم كنا نتجاهل ذلك دون أسف على مهامنا...

استمرت الأيام يومًا تلوى الآخر، ومر على بقائنا في تلك المنطقة ستة أعوام دون انتقال، وحين اشتدت بنا الأحوال أخبرني صديقي شروم بخطة جهنمية؛ يمكن أن تأتي لنا بفوائد وهو الادعاء بالجنون، حتى يتم نقلنا، وبالفعل قمنا بالادعاء بالجنون لدرجة أننا بدأنا نطلق الأعيرة النارية بطريقة عشوائية داخل المعسكر في الساعات المتأخرة من الليل...

سرعان ما أمر القائد بنقلنا إلى مدينة الدمازين حيث يوجد فيها القيادة العامة، وبعد يومين من وصولنا إلى القيادة العامة، تم نقلنا إلى السلاح الطبي بالخرطوم...

خرجنا في صباح اليوم الثالث من القيادة وتوجهنا إلى أحد الأحياء لنلقى أحد أصدقائنا القدماء، وطلبنا منه أن يدلنا على أحد تجار البنجو، وبالفعل أخذنا إلى أحد الشباب يُعَد من أكبر مروجي البنجو في المنطقة...

قمنا بشراء خمسين رأسًا من البنجو، ووضعناها في إحدى حقائبنا العسكرية، وتوجهنا إلى السوق الشعبي، وركبنا أحد باصاتها المتجه إلى الخرطوم، وبعد مضي ستة ساعات وصلنا إلى مشارف الخرطوم، فجأةً توقف بنا الباص على جانب الطريق امتثالًا لأوامر رجال الأمن، طلب سائق الباص من جميع الركاب حمل حقائبهم الخاصة، والنزول بجانب الباص...

توافد الجميع نحو الأرض حاملين معهم حقائبهم، استقبلتهم مجموعة من رجال الأمن في مدخل الباص وطلبوا منهم الاصطفاف صفًّا واحدًا، وبدأ رجال الأمن بنبش وتفتيش حقائب الركاب فردًا بعد فرد، واثنان منهم تسلقوا على متن الباص...

فجأةً وقعت عيونهم على توتو كافي وصديقه شروم اللذين كانا جالسين في المقاعد الخلفية مرتديين زيهما العسكري، وعلى رأسيهما الكابات الحمراء، وأخطر ما في الأمر كانا مدججين بأسلحتهما الخاصة، وكانت ملامحهما تدل على أنهما قادمان من الأدغال، خصوصًا نظراتهما المخيفة تلك التي لم يتحملها رجال الأمن، بما يُعْرَف بمكافحة المخدرات...

أُصِيب أحدهما بالرعشة أما الآخر استجمع شجاعته، وسألهما قائلًا:

- ماذا يُوجَد في حقائبكما؟

- (رد عليه توتو كافي بنبرة غاضبة) البنجو يا شباب. هل ترغبون في القليل منه؟

ارتبك الشابان حين سمعا ذاك الاعتراف الجريء من قبل توتو كافي، وأخبرهما دون تردد على حيازته البنجو، فتجاهل الشابان ما قاله توتو كافي ونزلا من الباص بسرعة ولم يتجرء أحدهما على إخطار بقية زملائهما خوفًا

من الاصطدام الذي سيقع لا محالة إذا حاولوا اعتقال المدعو توتو كافي وصديقه شروم.

بالحق؛ إنهما كانا على استعداد لفعل أي شيء حتى الاشتباك بالسلاح لو فُرِض عليهما ذلك، لكن الشابين التابعين لشعبة مكافحة المخدرات كانا أكثر تعقلًا لتجنب الأضرار التي ستلحق بهم إذا حاولوا الوقوف في وجه توتو كافي وصديقه شروم المختلين عقليًّا، والمدججين بالكلاشات والقنابل اليدوية.

طلبوا من الركاب العودة إلى مقاعدهم، وتحرك الباص...

وفي السوق الشعبي نزل الجميع وذهب كل منهم إلى وجهته، أما توتو كافي وصديقه شروم حملا حقائبهما العسكرية المليئة برؤوس من البنجو على ظهريهما، واتجها إلى حي العشش الواقع شمال السوق الشعبي...

شقا طرقات عشوائية أغلبها أزقة حتى وصلا لأحد محلات صناعة الموبيليات تخص شخصًا يُدْعَى كابوكي، وهو من مروجي البنجو في ذاك الحي، دخلا إليه بعدما ألقيا تحية السلام، وعرضا عليه بضاعتهما وهو الآخر وافق على شراء تلك الكمية؛ التي كانت بحيازتهما، وطلب منهما العودة بعد غروب الشمس لأخذ أموالهما...

عادا إلى السوق الشعبي مرةً أخرى، قضيا ساعتين داخل أحد المحلات الخاصة ببيع القهوة، وعادا مرةً أخرى إلى المدعو كابوكي لاستلام المال وحين وصلا إلى محله وقعت عيونهما على ثلاثة ضباط بزيهم العسكري جالسين مع المدعو كابوكي؛ وتنبعث من المحل رائحة البنجو بكثافة...

دخل توتو كافي وصديقه شروم المحل وجلسا بجوار الضباط وطلبا من كابوكي أن يسلمهما أموالهما، ابتسم كابوكي وقال لهما:

- لم أحصل على المبلغ بعد.

استشاط توتو كافي غضبًا، وقال له:

- لا يهمنا عذرك، فقط ما يهمنا هو استلام المال في الموعد الذي حددته بنفسك... (بنبرة صراخ) هيا أعطنا المال ودعنا نغادر.

تدخل أحد الضباط وبدأ يسألهم قائلًا:

- عن أي مال تتحدثان؟

يبدو أن المدعو كابوكي قد استعان بأصدقائه الضباط لكي يخيف توتو كافي وصديقه شروم حتى يفران بجلديهما تاركين وراءهما أموال بضاعتهما، لكن مثل هذا التخطيط لم ينجح مع توتو كافي ورفيقه شروم، فسرعان ما شدا أجزاء أسلحتهما، وقالا للضباط:

- مال البنجو الذي شربتموه الآن، وإذا لم تدفعوا المال سوف نمطركم بوابل من النار، ونقسم بالله إننا لفاعلون ذلك...

ارتعش الضباط خوفًا من الفتى توتو كافي ورفيقه شروم، وقالوا لكابوكي اعط هذين المجنونين مالهما ودعهما يذهبان بعيدًا... بالفعل إنهما مختلان عقليًّا...

أخذا مالهما وغادرا المحل واتجها إلى مدينة بحري للمبيت في عنابر سلاح النقل، وفي صباح اليوم الثاني قرر الاثنان قضاء بعض الأيام في مدينة بحري قبيل ذهابهما إلى السلاح الطبي لتلقي العلاج والرعاية الصحية، وإنهما فقط مدعيان الجنون هربًا من خيوط الخدمة العسكرية الكئيبة...

قضيا سبعة أيام في مدينة بحري يغادران عنبرهما في الصباح الباكر، ويعودان بعد منتصف الليل... كانا يقضيان نهارهما داخل المقاهي والخمارات، وبعد غروب الشمس يذهبان إلى السينما لمشاهدة ما يُبَث على شاشاتها...

وفي يوم من الأيام خرجا من عنبرهما، وذهبا إلى السوق لتناول وجبة الإفطار، وبعد فروغهما قررا التسكع والتجوال في شوارع مدينة بحري وفي طريقهما دخلا إلى أحد الأحياء القديمة العريقة بمدينة بحري؛ تقع في الجانب الشمالي من السوق، وهي من الأحياء التي عُرِفت بحي الأقباط؛ تلك الفئة التي يُطْلَق عليهم الخواجات بسبب بشرتهم البيضاء...

دخلا في أحد شوارعها الهادئة، وفجأةً تعرضا لهجوم شرس من قبل أحد الكلاب الضخمة، وحين واجهه توتو كافي عضه ذاك الكلب في ساقه اليمنى، وسرعان ما اشتد الصراع ودخلا في معركة قتالية مع جميع سكان الحي...

جاء إليهما صاحب الكلب، وقال لهما إنني سأتحمل جميع تكاليف العلاج، وأخذ توتو كافي إلى مستشفى بحري، وأجروا له بعض الفحوصات، وحقنوه بالحقن المضادة للسعر، وأخذهما صاحب الكلب إلى منزله لتلقي الرعاية التي سيحتاجها توتو كافي...

أنزلهما في غرفة الضيوف، وطلب منهما المكوث فيها إلى حين تُشْفَى جراح توتو كافي، ويبلغ صحته، فرح توتو كافي وصديقه شروم كثيرًا، ونام كل منهما في سرير خاص به، وأكثر ما أسعدهما الوجبات الفخمة التي كانت تُقَدم لهما بين الحين والآخر الفاكهة بأنواعها إضافةً إلى العصائر المشكلة والمشروبات الساخنة والباردة ما بين الشاي والقهوة وغيرها...

وتعمدا البقاء في ذاك المنزل الخاص بصاحب الكلب العديد من الأيام حتى بعدما شُفِيت جراحه. وبعد مرور عشرين يومًا على بقائهما في بيت الضيافة الخاصة بخواجة صاحب الكلب غادرا المنزل بعد حصولهما على مبلغ محترم من الخواجة...

غادرا في صباح اليوم الثاني سلاح النقل وذهبا إلى أم درمان، تحديدًا إلى مستشفى السلاح الطبي، وتم تحويلهما إلى القسم الخاص بالأمراض العقلية، فاستقبلوهما في أحد عنابرها، وبعد وصولهما تعرفا على أحد النزلاء الذين قضوا فترةً طويلةً في عنبر المجانين...

وسرعان ما أخبرهما بعض الأسرار التي تحدث داخل العنبر، وبالأحرى ما يتعرض له النزلاء حديثي الوصول، وطلب منهما التخلص من الأقراص التي تعطيهما الممرضة... قال لهما: «إنها أقراص منومة وتتركهما هادئين»، وبالفعل أخذ توتو كافي ورفيقه شروم بتلك النصيحة التي أخبرهما بها جارهما في العنبر مقابل ستة سيجارات مارليبورو، وصارا يتخلصان من تلك الأقراص بحذر بعد أخذها من الممرضة، ويرمونها داخل دورة المياه...

أتاحت لهما الطبيبة المشرفة على علاجهما بعض الحرية مثل التحرك والخروج من السلاح الطبي، والقيام بجولة في أحياء أم درمان...

استغل توتو كافي وصديقه تلك الفرصة، يخرجان من السلاح الطبي، ويذهبان إلى أوكار الخمور وبيوت الدعارة، وغيرها من بيوت الأشباح، يقضيان فيها ساعات النهار ويعودان في الساعات المتأخرة من الليل إلى حيث عنبرهما حاملين معهما جميع مكيفاتهما الخاصة، مثل علب السجائر المارليبورو الفاخر، وبعض من سجائر البنجو وورق البرينسيس، ويقومان ببيع بعضها داخل العنبر للنزلاء أثناء الليل...

بدأت الممرضة تشك في أمر جنونهما، وبدأت تزعجهما عبر سلسلة من الحوارات الطويلة، لكي تكتشف إن كانا على جنون مثل ما ذكرت نتائج الفحوصات الطبية، أم أنهما مدعيان الجنون، بدأت الممرضة تكرر

محاولاتها حتى أجبرت توتو كافي وصديقه شروم بتجنبها، والهروب منها بعيدًا كلما حاولت الاقتراب منهما...

ولذلك اتفق الاثنان على ادعاء النوم حين تمضي نحوهما، رغم ذلك كانت الممرضة تقف فوق رأسيهما بعض الوقت وهي تردد جملةً واحدةً تثبت قناعتها الراسخة بصحة عقليهما، فتقول: «يا للعجب لعمري لم أرى مجنونًا يأخذ معه علبة سجائره ويقوم بترتيب محله»...

ومع مرور الوقت وقع توتو كافي في فخ جمال الطبيبة المشرفة على حالتهما، وصار يتودد لها كل يوم من أجل الزواج بها، اعتبرته في بادئ الأمر أنه فقط مختل عقليًّا، ويعبر عن نزواته ورغباته في الحياة، لكن مؤخرًا اكتشفت بأنهما مدعيان الجنون...

وهذا ما أكدته في تقريرها النهائي؛ الذي كتبت فيه إفادتها بثقة مؤكدة أن الفتى الكوشي توتو كافي وصديقه شروم ليسا مختلين عقليًّا، وإنما مدعيان الجنون تهربًا من الالتزام بالخدمة العسكرية، فأعادوهما إلى جوبا، ومنها إلى منطقة ملكان، فخاضا فيها معارك شرسة...

وفي يوم من الأيام تمكنت قوات العدو من حصارهم في إحدى المناطق الوعرة، وألحقت بهم أضرارًا جسيمةً، فسقط منهم العديد من المقاتلين من ضمنهم توتو كافي؛ انفجر عليه أحد الألغام الأرضية، وأفقده ساقه اليمنى، وبُتِرَت من مؤخرته وأُصِيبت عينه اليسرى بالرايش أو كما يُطْلَق عليها بالشظايا السامة، وأصبح من بعدها أعرج السير وأهوج البصر، فتم تلجينه وإعفاؤه من الخدمة العسكرية بعد إعطائه مبلغ نهاية خدمته...

لكن سرعان ما استنزف المبلغ في وقت وجيز، وعاد مرةً أخرى إلى حياته السابقة، وهو التسكع والتشمس في شوارع الخرطوم، لكن الأوضاع

كانت مغايرةً عن ذي قبل، وطرأت عليها بعض التغيرات. لم تعد شوارع الخرطوم الحضن الآمن لمن جاءت بهم أقدارهم السيئة إلى تلك المدينة المهلكة، فسكانها أصبحوا مدمنين على اضطهاد أمثاله...

ولم يعد وجود لرفقائه القدماء. لقد هجروها منذ زمان بعيد، وذهب كل منهم إلى حال سبيله، وتم زج بعضهم داخل السجون بأحكام طويلة، وبعض القاصرين منهم أدخلوهم سجن الإصلاحية...

أصبح يقضي جل أوقاته وحيدًا، حتى انضم إليه أحد الرفقاء الجدد الملقب بحضرة الصول وهو في الأربعين من عمره، قضى عشرين عامًا في سلك الشرطة، وتزوج من فتاة تنحدر جورها إلى أحد القبائل التي ادعت نسبهم إلى الأنبياء والرسل، ويقولون أنهم جاؤوا إلى أرض الكوش لكي يحكموا ويستعبدوا شعوبها ويغتنموا ثرواتها ويفسدوا ثقافاتها...

بالحق؛ إنهم وحوش تفتقر جميع المبادئ الأخلاقية والدينية. هذا ما قاله حضرة الصول، وبدأ يحكي لتوتو كافي تجربته الشخصية مع تلك الفتاة...

أخذ أنفاسًا طويلةً وقال لتوتو كافي: «لقد التقيت بها في أحد الأيام، وصارحتها بحبي ورغبتي منذ اللحظة الأولى التي التقيت بها، وهي الأخرى أبدت رغبتها في تطوير تلك العلاقة، فتقدمت إلى أسرتها، وقمت بطلب يدها للزواج، فوافقت أسرتها على طلبي، وتزوجنا بعد مرور ثلاثة شهور على تلك العلاقة، وعشنا معًا أجمل اللحظات؛ حتى سمعتها بالصدفة مع أحد صديقاتها وهي تنعتني، بالعبد ومنذ تلك اللحظة غادرت المنزل... قد مضى على مغاردتي المنزل عامان متتاليان...

❁❁❁

20

عمل توتو كافي وصديقه المدعو جيلاني الملقب بحضرة الصول في المحلية؛ يعملون في الشاحنات التي تقوم بجمع النفايات التي يقذفها اللصوص أمام قصورهم العملاقة تلك، يتجولون بشاحناتهم الضخمة التي تنبعث من داخلها تلك الرائحة النتنة الكريهة؛ يجوبون شوارع الأحياء ويقومون بتحميل تلك الأكياس التي تحوي بداخلها خليطًا من بقايا الأطعمة، التي يلقيها الأغنياء بإسراف، ويقومون بنقلها خارج المدينة حيث مقلب النفايات...

بالحق؛ حين تشاهد مخلفاتهم تدرك أنهم مسرفون بالفطرة، ولم لا؟ إنه لا يهمهم شيء. لم يأتوا بها بحر مالهم. اشتروها بأموال تحرم عليهم...

قطن توتو كافي ورفيقه حضرة الصول وبعض الشباب في موقع النفايات الواقعة على بعد مسافة من الأحياء السكنية، وشيد كل منهم كوخه الخاص، وهي عبارة عن عشش صغيرة متناثرة حول مقلب النفايات. إنه أشبه بكوكب آخر لا ينتمي إلى الأرض، إنها عبارة عن منتجع مليء بالغبش والغلاباء ذوي البشرة السوداء؛ يعتمدون على بقايا النفايات كمصدر لطعامهم، ويعيشون بطريقتهم الخاصة...

أقاموا وطنًا خاصًّا بهم بعيدًا عن مضايقات البرجوازيين والمحتلين عنوةً، يعيشون بحريتهم خصوصًا حنان عفش التي ارتحلت من منزلها المستأجر الواقع داخل الأحياء السكنية بعد تعرضها لمضايقات مستمرة من

قبل سكان الحي، وفي بعض الأحيان من صاحب المنزل الذي طلب منها إخلاء المنزل...

وبالفعل تركت المنزل وانضمت إلى تلك المستوطنة التي يقطنها أبناء جلدتها هربًا من المضايقات، والمداهمات المتكررة التي تتعرض لها جراء خمارتها الصغيرة؛ التي تُعَد مصدر رزقها الوحيد، والتي تلبي لها جميع احتياجاتها من مأكل ومشرب لها ولطفليها اليتيمين؛ اللذين ليس لديهما من يعولهما بعد وفاة والدهما في حرب باطلة، لم يجيء منها إلا الخراب...

هذا ما قالته حنان بصوت مرتفع وهي تملأ الزجاجات البلاستيكية بالعرقي تجهيزًا لبيعها فيما بعد لسكان المقلب توتو كافي ورفقائه، وتابعت حديثها وهي تعبر عن إحساسها أنها لم تنعم بالسكينة إلا بعدما انتقلت إلى تلك المستوطنة الحديثة...

وقالت إنها لم تحس بالأمان فيما مضى حين كانت تعيش وسط أناس مخادعين؛ تبين ملامحهم الخارجية الأناقة والنظافة والنزاهة لكن عقولهم بتراء وعقيمة، ومليئة بالفوضى البربرية التي ترتبط بهم جينيًّا، أما قلوبهم أصابتها الغيرة والحقد الدفين بسبب ما يحمله الآخر من صفات وأرض وحضارة...

أشارت حنان إلى مقلب النفايات، وقالت أما أرواحهم فهي أكثر قذارةً من هذا المقلب. نعم؛ يا أختي حنان لقد صدقت تمامًا بوصفك هذا، وإنني أتفق معك في هذا الوصف الذي يليق بهم، إنهم يحسبون أنفسهم أخيارًا، والباقون حثالة وأطياف، وفي بعض الحالات يرون أنهم ملائكة الله...

توقفت حنان عفش برهةً من الوقت، وهي تتابع بنظراتها رفقاء توتو كافي المنتشرين داخل جبال من أكوام النفايات بحثًا عن بقايا الأطعمة، وأشياء أخرى يمكن أن تأتي لهم بدراهم بخسة، كانوا ينبشون بجهد حتى وصلت الشمس كبد السماء...

قاموا بوضع تلك العظام وبقايا من الأطعمة التي عثروا عليها داخل أكياس النفايات على برمة كبيرة، أو كما يُطْلَق عليها الحلة، وأضافوا إليها بعض الماء، بعدما وضعوها فوق ثلاثة حجارة على شكل مثلث ومن ثم أوقدوا تحتها النار، وتركوها لبعض الوقت حتى طابت قليلًا، أنزلوها من النار والتهموها حتى امتلأت بطونهم، وتركوا ما تبقى من الطعام داخل الحلة وانتشروا داخل عششهم الخاصة من أجل نيل قسط من الراحة، لمتابعة عملهم مرةً أخرى...

وسرعان ما انقضت كلابهم على بقية الطعام. نعم؛ إنهم يتشاركون كل شيء مع كلابهم الطعام والشراب لدرجة أنهم يتشاركون أماكن النوم.

فجأةً جاء إليهم كلب جائع، يبدو أنه دخيل، وهارب من أحد المنازل خوفًا على حياته حين حاول صاحبه القضاء عليه بسب اعتدائه على أحد أبناء الجيران؛ الذي كان يزعجه باستمرار ما بين ضرب بالعصا وقذف بالحجارة.

لقد مضى على هروبه يومان، قضاهما دون طعام ها هو وقد جاءت به تلك الرائحة القوية التي انتشرت بطريقة عشوائية في الخلاء الذي يخلو من المساكن السكنية، لكن كلاب المقلب رفضوا استقباله، ومنعوه من الاقتراب من طعامهم؛ ينبحون فيه كلما حاول الانضمام لمشاركتهم الطعام، وتارةً أخرى ينقضون عليه جميعًا حتى يفر منهم بعيدًا، منعوه حتى شبعوا جميعًا، وتركوا له بقايا الطعام التي تركها الشباب وكلابهم.

وسرعان ما انقض ذاك الكلب المدلل على الطعام، والتهمه بسرعة حتى شبع، لكن المفاجأة الكبرى أن معدته لم تحتمل ذاك الطعام الغريب، وسقط على الأرض ميتًا... يا إلهي؛ لقد مات الكلب المدلل جراء تناوله الطعام الذي تركه شباب المقلب وكلابهم. لقد قتلته بقايا الطعام الذي تركه توتو كافي ورفقاؤه بعدما شبعوا منها...

يا إلهي لقد تحملت معدتهم طعامًا أودى بحياة كلب. بالحق؛ إنهم أناس مصفحون تتحمل أجسامهم كل شيء: درجة الحرارة العالية في ساعات الصيف، والبرد الجاف في فترة الشتاء، ويمكنهم البقاء في الحياة حتى لو تناولوا السم المميت...

عمومًا؛ في يوم من الأيام نهض توتو كافي ورفيقه الملقب بحضرة الصول وبعض الشباب مبكرًا كعادتهم وذهبوا إلى الموقع التي تنتظرهم فيه الشاحنات الخاصة بنقل النفايات، وتسلق كل منهم شاحنته، وانتشروا داخل الأحياء السكنية لجمع النفايات الملقاة على جوانب الشوارع، وظل بعضهم في مقلب النفايات لمتابعة عمليات النبش...

أما توتو كافي الأعرج بقدمه الصناعية وبعينه الواحدة ورفيقه حضرة الصول تسلقا إحدى عربات النفايات التي كانت تعمل في المنطقة الصناعية أم درمان وبدؤوا يجمعون أكياس النفايات من الطرقات، ويلقونها في صندوق العربة، فجأةً قدم إليهم رجل في الأربعين من عمره، وأخبرهم أنه يبحث عن عامل ينجز له بعض الأعمال الضرورية...

سأله توتو كافي عن نوعية العمل فأجابه الرجل قائلًا أن لديه خمسين برميلًا تحتاج لنظافة، واتفق معه توتو كافي على إنجاز عمله بمبلغ مائة وخمسين جنيهًا سودانيًّا...

أخذه الرجل إلى مكان البراميل وغادر لقضاء عمل آخر، وبدأ توتو كافي عملية تنظيف البراميل الخاصة بمواد كيماوية سرعان ما انتشرت رائحة تلك المادة الكيماوية في سماء المنطقة...

وبعد مرور ساعة تقريبًا أصبح الهواء ملوثًا، وأُصِيب جميع سكان المنطقة بالإغماء بسبب ضيق التنفس، وامتلأت جميع العيادات الخاصة

والمستشفيات القريبة بالمرضى؛ طوابير من أجل حاجتهم الماسة للتنفس الصناعي داخل عنابر المستشفيات.

لقد ساءت الأوضاع داخل المستشفيات وأصبح الواقع تعمه الفوضى، وبدأت الأخبار تتناقل هنا وهناك لتحديد أسباب تلوث الهواء، وقال بعضهم إنها ناتجة بسبب المخلفات التي تقذفها المصانع والمسابك وغيرها، أما آخرون قالوا إن بعض الخلايا الداخلية التابعة للحركات الدارفورية أطلقت إحدى الأسلحة الخاصة بتلويث الهواء؛ التي جاءت بها من الدولة الصهيونية...

وسرعان ما تناقلت هذه المعلومة الأخيرة حتى وصلت داخل مباني جهاز الأمن والمخابرات، وسرعان ما تحركت مجموعة من الكروزرات المظللة، وعلى متنها أفراد مرتدون تلك النظارات السوداء ومدججزن بالأسلحة الخفيفة والفعالة...

وانتشروا بحثًا عن مصدر الشيء الذي أدى إلى تلوث الهواء أو ذاك السلاح الفتاك كما جاءتهم الأخبار، وظلوا يشقون الطرقات بسرعة حتى وصلوا إلى موقع البراميل، وفجأةً وقعت عيونهم السليطة على توتو كافي؛ يقف في وسط البراميل، وهو يباشر عمله، فحاصروه بسياراتهم بسرعة، وقاموا بإطلاق أعيرة نارية في الهواء، وطلبوا منه بصوت عالٍ، وهم يقولون له: «ارفع يديك إلى الأعلى، واخرج ببطء»...

امتثل لأوامرهم، وفعل ما طلبوه منه لكنه كان يشتمهم، وهو يصفهم بالكلاب الضالة، وتارةً أخرى بمرملي النساء وميتمي الأطفال؛ يقصد أنهم قابضو الأرواح ومكلفون بالقتل بغير حق... بالحق؛ هذا ما تدربوا على القيام به من داخل بيوت الأشباح السرية...

عمومًا؛ اقتادوه إلى أوكارهم السرية تلك، وهو معصوم العينين ومكبل اليدين بتلك الكلبشة التي لا يستطيع الإفلات منها، وقاموا بإلقائه داخل غرفة معتمة، ولم يشفقوا عليه رغم إعاقته التي أُصِيب بها جراء حربه من أجل نظام لا يوجد في قاموسه ما يُسَمى عرفان الجميل، يسحقون كل من يقف في طريقهم كما تسحق الأقدام النملة...

جردوه من ملابسه وبدؤوا يمارسون عليه سلسلةً من التعذيب، فتارةً يقومون برشه بالماء البارد، وتارةً أخرى يمارسون عليه وسائل متعددة من أنواع التعذيب رغم هذا، ومع ذلك ظل الفتى الكوشي توتو كافي يواصل شتائمه تلك، وأيضًا يعتدي ضربًا على كل من يقترب منه حتى بدؤوا يخافون الاقتراب منه...

ارتجفت قلوبهم جميعًا وأهابوا شجاعته وقوته الجبارة؛ التي أسقط بها نفرًا منهم، وأصبح خطرًا عليهم جميعًا، وفشلوا في تأديبه وإرهابه حتى يرتجف خوفًا منهم كما يفعل الآخرون الذين جاء بهم سوء حظهم حتى سقطوا تحت رحمة تلك الأجهزة التي لا تعرف الرحمة، لأنها ليست من شيمتهم...

وبعد مرور أسبوع لم يعثروا على شيء يدين الفتى توتو كافي أو ما يجعله مجرمًا في نظرهم فقط عثروا على استمارة طبية تؤكد أنه من المحاربين القدماء، وأحد الضحايا الذين أصابتهم بعض الحالات الجنونية جراء المعارك الشرسة؛ التي قادها، وهذه الحالات قد أُصِيب بها أغلب العسكر والجنود الذين اقتادوهم كرهًا إلى معارك حربية لا شأن لهم بها، وفوق هذا وذاك فقدوا فيها أطرافهم أثناء المعارك التي قادوها بالأعيرة النارية والقنابل اليدوية والألغام الأرضية...

وفي صباح اليوم الثامن من اعتقاله أخلوا سبيله، وأطلقوا سراحه. ذهب إلى أصدقائه ورفقائه الذين ما زالوا يجهلون سبب اختفاء زعيمهم توتو

كافي. قضوا تلك الأيام السبعة التي غاب فيها توتو كافي بالأسى، ونفوسهم حزينة، أما عقولهم فتساءلت حتى أصابها الإرهاق جراء كثرة الإبحار في محيط غامض ليس له مرسى...

فجأةً سمعوا صوت زعيمهم توتو كافي وهو داخل عشة حنان عفش، كانوا في اجتماع هام جمعتهم حنان جميعًا من أجل الاتفاق على خطة بحث تمكنهم من الوصول إلى توتو كافي، أو على أسوء الحالات يسمعون خبرًا عنه ميتًا أو حيًّا...

كان قد وصل إلى آذانهم ذاك الصوت الجهوري بخشونته البراقة. صمتوا جميعًا، وقالوا: «هذا صوت توتو كافي»... عرفوه بصوته الفريد الذي لا شبيه له، خرجوا جميعهم بسرعة وأخذوه في أحضانهم فردًا فردًا بطريقة أشبه بمهرجان الأحضان، حتى كلابهم كانت تتقافز للتشبث به.

أخذوه إلى داخل عشة حنان عفش، وأجلسوه فوق أحد الفرش، وجاءت له حنان بالطعام والخمر معًا، أمهلوه بعض الوقت حتى تناول الطعام، وارتشف كؤوسًا من الخمر. سألوه عن غيابه، فأخبرهم قصته، وما حدث له من اعتقال من قبل جهاز الأمن والمخابرات...

سأله صديقه حضرة الصول:

- هل أنت الذي كنت السبب في إغماء سكان المنطقة الصناعية؟

- نعم... لكن كيف عرفت موضوع إغماء سكان المنطقة الصناعية؟

- جميعنا؛ سمعنا تلك الحادثة من خلال الإعلام المرئي والسمعي، وأخرج له رزمةً من صحيفة الدار؛ التي تناولت وتداولت لمدة أيام حالة الإغماء التي أصابت سكان المنطقة الصناعية، وبدأ صديقه يقرأ له تلك

العناوين الكاذبة التي صدرت على صفحات صحيفة الدار؛ التي اشتهرت بلقب صحيفة الشمارات، بإضافة البهارات فهي مصدر الأخبار الكاذبة لدرجة المبالغة...

بالحق؛ قد اندهش توتو كافي كثيرًا حين سمع العناوين التي جاءت بها الصحف كانت كالآتي:

١- هجوم غاشم على مدينة أم درمان من قبل إحدى الخلايا المنتسبة للحركات الدارفورية.

٢- محاولة إطلاق أخطر الأسلحة الكيماوية فوق سماء أم درمان.

٣- جهاز الأمن والمخابرات يحبط أخطر هجوم على الخرطوم عبر أم درمان.

٤- تم توقيف المهندس الذي حاول إطلاق إحدى الأسلحة النووية الفتاكة.

تجاهلوا جميعًا وقاحة الصحف التي تناولت الموضوع بمنطلق سياسي، واقترح عليهم أحد الشباب إقامة حفلة بعودة توتو كافي، وسرعان ما تقبل الجميع المقترح، وبالفعل أقاموا له فرحًا بمناسبة خروجه سالمًا من قبضة تلك المجموعة التي عُرْفِت بالقاسين والفاسقين معًا، ترقبوا مجيء الليل بفارغ الصبر حتى نزل الظلام، وجاؤوا بجهاز كاسيت ماركة باناسونيك رقصوا على إيقاعات موسيقى الجاز الإفريقية حتى انقشع الظلام...

ذهب الجميع إلى فراشه تاركين خلفهم توتو كافي وحنان عفش، وبعد مضي بعض الوقت تبادلا فيما بينهما أحاديث شتى بمختلف المواضيع المباح والمحظور أيضًا، وبعد مرور وقت قصير بدأت حنان تشير برغبتها من خلال الحديث؛ تتغزل به عبر الكلام...

يبدو أنها على وشك تفجير رغبتها المكبوتة، وسرعان ما بدأ توتو كافي الآخر يبادلها المشاعر والرغبة نفسها... رويدًا رويدًا أثارها من خلال المداعبات المتواصلة، وهو يتحسس بيده جسدها الذي أصبح غير قادر على تحمل تلك الإثارة الجنونية، وحين بدأت تنهار حملها بين يديه، وعرج بقدميه العرجاء حتى دخل بها غرفتها الخاصة، ومارس معها الجنس الجامح بحرية كما تشتهي نفساهما...

فرحت حنان كثيرًا جراء تلك اللحظات التي قضتها مع الفتى الكوشي توتو كافي... ربما كانت سبب سعادتها هي الطريقة التي أوصلها إليها توتو كافي بقوته الخفية تلك؛ أو ربما حرمانها من الجماع لفترات طويلة...

هذا ما أكدته مؤخرًا بقولها: «قد مضى علي ثلاثة أعوام دون ممارسة الجنس... تعني منذ وفاة زوجها إضافةً، وهي تصف ما حدث بينها وبين توتو كافي قائلةً إنها لحظات ذهبية لن تُنْسَى أبدًا أبدًا، وقالت إنها لأول مرة تحس فيها أنها امرأة وأن هناك معيارًا جنسيًّا بذاك المقدار من القوة...

أقسم بالله إنها وقعت في حبه عشقته كما لو لم تعشق أحدًا من قبل. أصبحت شهواتها ورغباتها أسيرة للمدعو توتو كافي دون غيره من الرجال...

وبعد مرور أيام من تلك الحادثة بدأت بعض السيارات تتردد إلى المستوطنة للحصول على بعض الخمور من حنان عفش، ولم يمض على مجيئهم الكثير من الوقت حتى اكتشفت الشرطة حقيقة ما يحدث في تلك المستوطنة المعزولة الواقعة على بعد مسافات من الأحياء السكنية؛ أشبه ببقعة منفية...

وبدأت حياة المستوطنة تزداد سوءًا يومًا بعد يوم جراء ما تتعرض له من حملات ومداهمات متكررة من رجال الشرطة على خمارة حنان وقاطنيها

على حد سواء... في أغلب الحالات يتم القبض على رفقاء توتو كافي جراء ضبطهم تحت تأثير الخمر الذي أدمنوه لدرجة أنهم أصبحوا لا يستطيعون متابعة حياتهم الطبيعية دونه...

أصبحت المستوطنة من أكثر المواقع شبهةً؛ يجيء إليه بعض رجال الشرطة الفاسدين من أجل الارتشاء من حنان بحفنة من المال كرشوة، استغلوها لأغراضهم الخاصة وصاروا يلجؤون إليها كلما ضاقت بهم الحالة المادية، استغلوها ماديًّا لدرجة إثارة غضب توتو كافي، وأصبح لا يطيق رؤيتهم...

وفي يوم ما جاء ثلاثة من رجال الشرطة ودخلوا إلى موقع حنان، وطلبوا منها مائتين وخمسين جنيهًا، فأخبرتهم أنها لا تملك المبلغ الذي طلبوه، وقالت لهم أنها لا تملك أكثر من مائة جنيه... أخذ أحدهم المبلغ أما آخر بدأ يتحرش بها أمام الشباب، وحين رفضت ضربها، وطلب منها الانحناء قليلًا بمؤخرتها...

لم يحتمل توتو كافي المشهد، واستشاط غضبًا، وانقض عليهم ضربًا بالعصا حتى أصاب أحدهم بجروح خطيرة أخذ الاثنان زميلهما وهربوا بسيارتهم بسرعة، وعقب نصف ساعة دخلت عليهم سيارتان مليئتان برجال الشرطة مدججين بالأسلحة والعصي الغليظة، وانقضوا على جميع من كانوا في المستوطنة ضربًا بالعصي والأيادي تحت تهديد السلاح...

وبعد معركة دامية اقتادوهم إلى أحد أقسام الشرطة، وقاموا بحبسهم جميعًا بعدما حرروا ضدهم بلاغ اعتداء على رجال الشرطة...

وبعد مرور ثلاثة ليالٍ قضوها تحت التعذيب أخذوهم إلى المحكمة؛ التي استمعت إلى أقوال المجني عليه رجل الشرطة الذي اعتدى عليه توتو

كافي، وشهادة رجلي الشرطة الآخرين حكمت المحكمة على توتو كافي بعقوبة السجن عامين مع الأعمال الشاقة، أما رفقاؤه الشباب ومعهم حضرة الصول عاقبوهم بالجلد خمسين جلدةً وغرامةً بخمسين جنيهًا أو ثلاثة شهور سجنًا كما حكمت المحكمة على حنان عفش بالسجن ستة أشهر، وغرامةً بستمائة جنيه جراء متاجرتها بالخمور...

نقلوهم جميعًا إلى السجن العمومي أم درمان، ومنها تم عزلهم، وتم نقل توتو كافي إلى سجن مدني، أما رفقاؤه الشباب وحضرة الصول تم نقلهم إلى سجن القضارف، ومنها إلى القدمبلية التي يُطْلَق عليها جهنم، والقيامة قائمة جراء القهر والتعذيب الذي يتم فيه، إضافةً إلى الأعمال الزراعية القاسية التي يقوم بها نزلاء السجن... أما حنان بقيت محبوسةً بسجن النساء بأم درمان...

وبعد وصول توتو كافي إلى سجن مدني حدثت مفاجأة كبرى لم يتخيلها أحد حتى توتو كافي نفسه... لم يتخيل أبدًا العثور على صديقه العزيز المدعو شروم الذي قضى برفقته سنينًا داخل الأحراش والأدغال الاستوائية. كانا معًا ضحايا حرب لا شأن لهم فيها تلك الحرب الخبيثة التي صُنِعَت خصيصًا من أجل قتل وتشريد أمم أكثرية؛ يشهد التاريخ على أنهم ملاك هذه الأرض وملوكها وأبناء سلاطينها...

وحين وقعت عينا كل منهما على الآخر ركضا حتى تلاحم جسداهما، وذرفت عيونهما دموعًا تعبر عن أشواق متبادلة ومآسٍ وعذابات عانا منها في آخر المعارك الشرسة؛ التي واجهتهم بمنطقة ملكان والتي كلفتهم الكثير من الأرواح وفقد فيها الصديق صديقه، مثلما فقده شروم حين انفجر عليه أحد الألغام الأرضية التي كانت منتشرةً في الأرض بكثرة؛ أشبه بحقل من الألغام...

تم سحب المصابين من ساحة المعركة من ضمنهم توتو كافي، وتم نقل المصابين بإصابات خطيرة إلى السلاح الطبي بالخرطوم، ومنذ تلك اللحظة

انقطعت أخبارهما عن بعض. لم يسمع توتو كافي خبرًا عن صديقه شروم إن كان باقيًا في الحياة أو مات في تلك المعارك الضارية أو في المعارك التي تلتها...

جلسا تحت إحدى أشجار النيم التي كانت موجودةً بكثرة داخل ساحة السجن، وبدأ كل منهما يقص لصديقه عن حياته التي عاشها بعد افتراقهما في تلك المعركة المشؤومة...

لقد بادر توتو كافي وحكى لصديقه شروم عن تفاصيل حياته مؤخرًا الكبيرة منها والصغيرة دون نسيان أو إغفال أي تفاصيل، وقص له عن حبيبته الحديثة حنان...

أما صديقه شروم كانت قصته مأساويةً وحزينةً حين بدأ يقص لرفيقه توتو كافي قائلًا:

لقد استمرت تلك المعارك الدامية لأسبوع، أقسم بالله إنها كانت أيامًا من الجحيم جراء الضحايا الذين سقطوا من الجانبين، كانت خسائرنا أكثر من خسائر الطرف الآخر، كنا تحت الحصار لمدة أسبوع وفي مساء اليوم الثامن شنوا علينا هجومًا شرسًا بجميع الأسلحة الثقيلة والخفيفة، ولم نستطع الصمود أمام تلك النيران الكثيفة...

وسرعان ما سقطت المنطقة، وأصبحت تحت سيطرة الحركة، وهذا الأمر قد أثار جنون الحكومة المركزية حتى وجهوا إلى جميع الوحدات التي كانت مشاركةً في تلك المعركة تهمة الخيانة العظمى، وقاموا باغتيال ضباطها رميًا بالرصاص أما الآخرون أمثالي تعاملوا معنا على أننا متخاذلون ومتعاطفون ومتآمرون مع العدو، وساقونا إلى معارك أكثر شراسةً، ونحن مدججون بأسلحة مليئة بالذخيرة الفارغة المزيفة...

انهارت الروح المعنوية لدى الشباب داخل ساحات المعارك، والتغير المزاجي أدى إلى تمرد أغلب الجنود، لا أحد يمتثل لأوامر القادة، وسرعان

ما سادت أجواء التوتر في صفوف العسكر وضعفت صفوفنا، وأصبح كل منا معزولًا عن غيره...

ما زلت أذكر تلك الواقعة، ولم تغب عن ذاكرتي بعد. أذكر في يوم من الأيام تمكنت وحدة شعبة الاستطلاعات من أسر مقاتلين من جيش العدو؛ كان أحدهما طفلًا، أما الثاني في الثلاثين من عمره...

بدأت الشعبة تمارس عليهم التعذيب القاسي من أجل انتزاع المعلومات الدقيقة عن انتشار قوات العدو في المنطقة لكن الأسيرين أنكرا الأمر، ورفضا الاعتراف بأي معلومة خاصة بانتشار قوات الحركة رغم إخضاعهم لسلسلة من أنواع التعذيب القاسي؛ التي لا يتحملها الإنسان...

وحين استمر التعذيب طلب منهم الرجل الثلاثيني وهو أحد الأسيرين من القادة قتل زميله الطفل حتى يستطيع إخبارهم مخطط انتشار مقاتلي جيش الحركة، ففرح القادة كثيرًا، وقاموا بإعطاء الأوامر بإعدام الصبي مثلما طلب منهم الرجل الآخر حتى تخلو له الأجواء، ويمدهم بالمعلومات التي يحتاجونها، وبالفعل أخذوا الصبي إلى داخل الأحراش، وأطلقوا عليه النار حتى سقط جثةً هامدةً دون حراك أو صراخ...

ابتسم الرجل الثلاثيني وقال للقادة: «لقد وقعتم في الفخ وسوف تجدونها عند الغافل»... سأله القادة: ماذا تقصد بالتحديد؟» فأجابهم بعد ضحكة قائلًا: «أنتم بالفعل أغبياء من الدرجة الأولى، كنت أخاف من انهيار الصبي، والاعتراف في آخر الأمر، لذلك طلبت منكم التخلص منه كي لا يعترف، وأنتم فعلتم ذلك بغباء... الآن لن تحصلوا مني على أي معلومة تفيدكم أو تشفي غليلكم»...

غضب القادة وأمروا بتعذيب ذاك الرجل المراوغ دون توقف إلى حين انتزاع المعلومات منه، لكن الرجل ظل متماسكًا ومتمسكًا بسره حتى بعدما بتروا أصابع يده اليمنى. لم يحتمل ضميري ذاك التعذيب التي يتعرض له الأسير، وحاولت التدخل عدة مرات لكي أمنع ما يفعلوه بالرجل، لكني فشلت في جميع محاولاتي، حتى ضاقت بي الأحوال؛ فقمت بإطلاق النار على الرجل، وأرحته من العذاب الذي كان يعانيه...

التفوا من حولي وقاموا باعتقالي بناءً على أوامر القائد، وقاموا بحبسي في أحد كرفانات الذخيرة المتحركة، وفي صباح اليوم الثاني اجتمع جميع العسكر في ساحة المعسكر كان من ضمنهم القائد وبعض القادة الميدانيين أخرجوني، من داخل الكرفانة وأخذوني إلى حيث ساحة المعسكر...

وحين وقفت أمام القائد قال لي: «يا خائن؛ لقد قمت بقتل الأسير عمدًا، وحرمتنا من المعلومات الهامة التي نهزم بها العدو، ونسترد منهم منطقة ملكان. ما فعلته خطأ فادح، ويُعْتَبر خيانةً عظمى، وهذه الخيانة عقوبتها الإعدام رميًا بالرصاص».

جهز القائد أحد الجنود الذين سيقوم بإطلاق النار وهو أحد الجنود الذين اشتهروا بكفرهم بالحقيقة وبإيمانهم الأعمى بالنظام. كان أكثر الجنود إخلاصًا لتنفيذ أوامر القادة التي تُعَد أكثرها قذارةً لا أخلاقيةً. كان يقتل بدم بارد، ولا تهمه القيم والمبادئ الإنسانية، لكني كنت أؤمن بمصيري، وهو لا أحد من البشر يستطيع قتلي إذا لم يأذن ويقبل خالقي بموتي وحين أمره القائد بإطلاق النار بدأ الجندي يرتعش جسمه حين سمع ما كنت أردده بلساني وأقول:

طلب مني المدعوون بالأمراء عصم عيني لكي لا أرى ما يفعلونه بغيري. سألتهم: «ماذا أفعل بأذني اللتين تغتصبهما أصوات بكاء وصراخ أمة لا

تستحق مثل هذا المقدار من الاضطهاد والتعذيب والتشريد والتفريق والقتل المتعمد؟»؛ فقالوا لي: «أغلقها هي الأخرى أو ادع الصمم»...

سألتهم: «ماذا عن قلبي الذي يكفر بالظلم ويؤمن بالعدالة والمساواة؟»... ابتسموا بطريقة أكثر خبثًا، وقالوا لي: «دعك من هذه الخرافات الرجعية والأحاسيس الإنسانية التي لا تجزيك نفعًا. نريدك أن تصير أميرًا مثلنا»...

سألتهم: «من أنتم بالتحديد؟»... قالوا لي: «إننا كنا رعاة أغنام وصرنا من بعد أمراء وحكامًا. مهاجرون لا أوطان لنا. أنانيون بالفطرة. نحب أنفسنا أكثر مما ينبغي. لا نؤمن بغيرنا. أصحاب مذهب مبادئه الخبث والنفاق. لا يوجد في صفحاتها ما يُسَمى بمكارم الأخلاق. أرواحنا سكنها الغدر، وقلوبنا هي الأخرى أصبحت متعطشةً لسفك الدماء. نقتل غيرنا من أجل بقائنا ومستقبل أبنائنا»...

قلت لهم: «إذًا أنتم قتلة وسفاحون»... قالوا: «بلى»... قلت لهم: «لا أريد عن أكون أميرًا وقاتلًا مثلكم. أريد أن أحافظ على آدميتي وإنسانيتي، وأرفض أن أكون دميةً قاتلةً من أجل نجاح مشروعكم»...

اقتربوا مني ووضعوا في يدي السلاح وقالوا لي: «هيا اذهب واقتل أباك وأخاك وأبناء جلدتك، وكل من هم أقرب إليك؛ لكي تتحرر من آدميتك وتصبح أميرًا قاتلًا مثلنا»...

صرخت فيهم بصوت عالٍ وقلت لهم: «تبًّا لكم ولأمرائكم. اغربوا عن وجهي أيها القتلة. إنكم آل الظلمة، وإنكم محرومون من الجنة وموعودون بجهنم لا محالة»...

وبدأت الدموع تنهمر من عيني الجندي، ولم يستطع إطلاق النار مثلما طلب منه القائد حتى استشاط القائد غضبًا، وبدأ يصرخ في الجندي قائلًا: «هيا قم بإطلاق النار أيها الجندي».

رمى الجندي السلاح على الأرض، وتراجع خطوات إلى الخلف حتى وقف داخل الصفوف، وهو يقول: «لست دميةً قاتلةً»... انفجر القائد غضبًا، وبدأ يصرخ بصوت عالٍ ويطلب من أي جندي وقع عليه بصره وهو يأمره بحمل السلاح من الأرض وإطلاق النار على شروم، لكنهم رفضوا جميعًا تنفيذ الأوامر وبدؤوا يرددون مع المجند: «لسنا دمًى قاتلةً»...

وحين بدأت أصوات الجنود تعلو في الفضاء شعر القائد وبعض القادة الميدانيين بالخوف، فانسحبوا جميعًا إلى داخل حصنهم. يبدو أن رغبات الجنود تمضي نحو الأسوأ: الانقلاب والتمرد ضد قادتهم، وضد تلك الحرب الباطلة التي لا يؤمنون بشرعيتها أصبح وشيكًا...

اجتمع القادة بسرعة ووضعوا خطةً سريعةً من أجل السيطرة على الجنود، وقاموا بإجراء اتصال سريع بالقيادة، وطلبوا منها قوات الشرطة العسكرية. لقد استجابت القيادة، وقاموا بدعمهم بقوة ضاربة- سرعان ما وصلت تلك القوة، وقاموا بإحاطة المعسكر من كل الجهات، وطلبوا من الجنود الهدوء والامتثال لأوامر القائد...

امتثل الجنود واصطفوا في ساحة المعسكر، وخرج عليهم القائد وبرفقته القادة الميدانيون، وقرروا نفي شروم، وبالفعل جردوه من كل شيء، وتركوه بالبنطلون والقميص والبوت...

ابتسم القائد، وقال له: «أنت تستحق القتل البطيء، وأنا لا أستطيع أن أفعل بك ذلك، كل ما أستطيع فعله هو تركك في هذه الغابة، لكي تأسرك قوات العدو»...

تركوني داخل الأحراش كي يأسرني العدو، أو أُقْتَل على يدهم، لكن عزيمتي في البقاء كانت قويةً، وتوجهت نحو مدينة جوبا سيرًا على الأقدام...

قضيت عشرين يومًا أجاري تلك الغابات الاستوائية القاسية والمتوحشة معًا حتى وصلت إلى جوبا...

في صباح اليوم الحادي والعشرين ذهبت إلى أحد البيوت التي كنت أتردد عليها في أوقات الأجازات لقضاء بعض الأوقات الممتعة مع صاحبة المنزل، وبعد أسبوعين جئت إلى الخرطوم على متن أحد الطائرات الخاصة بشحن البضائع، وقمت بإبلاغ القيادة العامة، وعقب يومين وصل القائد إلى الخرطوم، أبلغ القيادة عن وصوله، وتم توقيفي وحبسي داخل إحدى الزنزانات...

قضيت أسبوعًا داخل زنزانة ضيقة مغلقة تمامًا أشبه بالجحيم لا رائحة فيها غير رائحة الدماء الملطخة على الجدران، وفي صبيحة اليوم الثامن أخذوني إلى حيث مواقع التحقيق. لم أكن أعلم بعد ما كان ينتظرني في دهاليز مكاتب التحقيق، أو كما يُطْلَق عليها بيوت الأشباح والشياطين...

وجهوا إلي تهمة الخيانة العظمى، والتآمر ضد النظام... لقد قضيت ستة أشهر داخل تلك الزنزانة وحين ساءت حالتي النفسية والجسمانية أخذوني إلى السلاح الطبي لغرض علاجي لكن إرادة الله كانت أقوى، وطغى على رغبتهم حين أخبرهم الطبيب عن سوء حالتي الصحية، لقد فزعوا حين أخبرهم الطبيب قائلًا: «إنه يعاني من مرض صدري خطير وهو من أكثر الأمراض فتكًا، ومعد من الدرجة الأولى، ينتقل إلى الآخر عبر الأكسجين»...

رفض الجميع الاقتراب مني خوفًا من انتقال الجرثومة إليهم، وسرعان ما انتشر الخبر وسط الأفراد الذين يعملون داخل الموقع، وبعد برهة من الوقت عرف القادة عن خطورة مرضي، وأسوأ ما في الأمر أنها عدوى قاتلة تنتقل إلى الآخر عبر الأكسجين، فطلب القادة من بقية الأفراد إطلاق سراحي فورًا...

وقالوا لي: «أنت حر الآن بإمكانك الذهاب. اذهب أينما تريد، ولا تعد إلى هنا أبدًا»... عرفت أنه ليس من طبعهم الإنسانية لكي يقوموا بإطلاق سراحي بهذه البساطة، وإنما خوفًا من أن يصيبهم المرض الذي توغل في صدري حتى تربع داخله، فصاروا يهربون مني كلما حاولت الاقتراب منهم...

خرجت من داخل الموقع ونجوت بأعجوبة من الموت المؤكد، وفي مقابل الحرية أصبحت مشردًا دون مأوى. نمت في الطرقات العامة، وداخل الأزقة المهجورة، وتحت الجسور والكباري، وداخل مجاري الصرف الصحي، وبقايا الأطعمة هي التي أبقتني في الحياة، وصدري كان يؤلمني بشدة.

لقد عانيت أشد أنواع العذاب، ولحسن حظي شفاني الله من ذاك المرض، والآن بحمد الله عادت إلي صحتي مرةً أخرى...

سأله توتو كافي:

- ما الجرم الذي ارتكبته حتى تمت إدانتك بالسجن خمسة أعوام؟

- لقد تم القبض علي داخل أحد القصور الفخمة متلبسًا بالجرم المشهود...

- دخلت إلى القصر بدافع سرقته، أليس كذلك؟

- نعم؛ هذا صحيح.

- منذ متى وأنت في هذا السجن؟

- منذ ثلاث سنين... لقد بقي لي عامان.

- يبدو أن القدر قد جمعنا مرةً أخرى، سنقضي العامين ونخرج سويًّا من هذا السجن، وسوف نكون أحرارًا، ونعيش حياتنا بحرية، وبالطريقة التي نختارها دون قيود مثلما كنا نفعل سابقًا...

فجأةً استدعاهم أحد الشباب المكلفين بتوزيع الوجبات للنزلاء، وطلب منهما الحضور، وأخذ وجبتهما تحرك شروم وفي رفقته توتو كافي نحو ساحة صرف الوجبات الواقعة بين عنابر النزلاء...

وهي عبارة عن ستة عنابر وهما العنبر الخاص بالمحكومين بالإعدام شنقًا حتى الموت وبعض السجناء المدانين بالتأبيدة؛ جميع نزلاء هذا العنبر كانوا معروفين بزيهم الأحمر وأرجلهم المقيدة...

وبجواره عنبر المحكومين ما بين سبعة وعشرة سنين، وبجوارهم عنبر اللصوص والمحتالين من الدرجة الأولى؛ تلك الفئة التي يتعامل معهم القانون وحاميها على أنهم ملائكة وأشراف يعاملونهم باحترام، لا باحتقار مثلما يتعاملون مع الآخرين أمثال توتو كافي وشروم وغيرهما؛ فيعاملونهم كالحثالة...

أما اللصوص فيوفرون لهم كل شيء من عنبر نظيف بأسرته الجميلة والنظيفة أيضًا، وقيام بعض من رجال الشرطة بخدمتهم لتوفير كل شيء حتى الأشياء التي تحظرها لوائح السجون، ها هي الآن تدخل المخدرات بأنواعها المختلفة إلى داخل أسوار السجون بمنتهى السهولة عبر بواباتها وهي داخل جيوب ذاك الزي الذي يُطْلَق عليه شرف الدولة.

يشتهي أنفك شم رائحةً أخرى غير رائحة البنجو المنتشرة داخل السجون. سأل توتو كافي صديقه شروم قائلًا:

– من أين تأتي رائحة سيجارة البنجو بهذه القوة؟ وإنني منذ وصولي لم أشم أي رائحة غيرها.

– (ابتسم) إنها آتية من داخل العنابر.

– (باستغراب) من أين جاؤوا بها؟ وكيف وصلت إلى داخل السجن؟

- لا تستغرب حين تكتشف حقيقة الواقع الذي نعيشه، إنه واقع مزيف الأفعال والأقوال؛ الذي تراه ما هو إلا كذبة... إن نسبة المخدرات الموجودة داخل السجن لا تقل عن النسبة المتداولة في الخارج لدرجة أن مروجيها والعاملين فيها يقولون أن الترويج داخل السجن أيسر وأسهل من الخارج، وحتى الأرباح تكون أفضل بكثير...

وقفا في الطابور الذي كان يتحرك بسرعة حتى وصلا إلى الشباك، وأخذا وجبتيهما التي كانت عبارةً عن طبق من الفول وقطعتين من الخبز؛ والتي تم إنتاجها من دقيق الذرة العادي. يطلق عليها السجناء بالجراية لأنها مصنوعة بطريقة لا تصلح لإطعام البشر، إنها يابسة وخالية من الطعم.

إنها عبارة عن حشو يملؤون بها بطون السجناء لكي لا يطالبوا بالطعام مرةً أخرى، لأنها تلتصق في الأمعاء كالجبس حين تُوضَع داخل الوعاء تلتصق بقوة وعناد بطريقة، وكأنها لا تريد الفكاك.

حملا وجبتيهما وابتعدا بضعة أمتار من الحشود، وجلسا تحت ظل حائط عملاق فاصل بين سجن النساء وسجن الرجال، كانت أصوات السجينات تتردد على مسمع توتو كافي وبطريقة تلقائية لا شعورية بدأت ذاكرته تعمل بنشاط وتذكر عشيقته حنان عفش، وكيف تعيش حياتها مع النزيلات في سجن أم درمان، لكنه تراجع عن تفكيره في حنان عفش، وعن حياتها مع النزيلات لأنه يعلم بصرامتها وخبرتها في الحياة، وأنها امرأة صلبة لا تُهْزَم أبدًا...

فجأةً سمعوا أصوات صراخ عالٍ ومشادات صادرة من مجمع حمامات السجن، وبدأ النزلاء التوافد إلى الموقع من أجل تقصي حقيقة ما يحدث.

سرعان ما تجمهر جميع السجناء في موقع الحدث لدرجة أصبح السجن خاليًا من الحركة. احتشدوا جميعًا في مجمع الحمامات من ضمنهم توتو كافي وصديقه شروم، وحين وصل أفراد الشرطة لفض المشكلة خرج إليهم أحد السجناء من داخل الحشود وطلب من رجال الشرطة استدعاء مدير السجن، وبالفعل امتثل رجال الشرطة لطلب السجين وقاموا باستدعاء مدير السجن.

سأل المدير السجين عن سبب استدعائه، أخبره السجين قائلًا: «لقد جئت إلى الحمامات لقضاء حاجتي، وحين وصلت وجدت هذين السجينين (وهو يشير بيده) وجدتهما في وضع مخل... كانا يمارسان اللواط...

أطلق السجناء الهتافات والأصوات العالية في سماء السجن، وصار بعضهم يسخر من السجينين اللذين ارتكبا ذاك الجرم الساقط، وآخرون طالبوا مدير السجن إنزال العقوبة الرادعة للسجينين، فأعطى مدير السجن الأوامر لعساكره بتقيد السجينين بالقيد وحبسهما داخل زنزانتين واستمرت الأيام يومًا تلوى الآخر حتى مضى على تلك الحادثة اثني عشر يومًا...

وفي صباح اليوم الثالث عشر أمر مدير السجن إخراج السجينين من داخل الزنزانات الانفرادية، وعاد السجينان إلى عنبريهما كي يواصلا حياتهما المعتادة إلا أن النزلاء لم يتركوهما في حال سبيلهم ظلوا يسخرون منهما أينما وجدوهما، وبعض النزلاء رفض الاختلاط بهما في ساعة صفا أو ساعة لهو، وهذا الأمر دفع السجينين للتخطيط للانتقام من السجين الذي بلغ عنهما بعد ضبطهما بالجرم المشهود، وهما يمارسان اللواط...

وبالفعل اتفق السجينان على ضرب السجين الذي ضبطهما ضربًا مبرحًا لن ينساه طيلة حياته، ويكف من بعدها عن التدخل فيما لا يعنيه. وضعا الخطة مع سبق الإصرار والترصد وذهبا إلى غرفة الإذاعة الخاصة بالسجن؛ والتي يتم من داخلها استدعاء النزلاء عبر صوت الميكرفون.

كان المذيع الصوتي الذي يقوم بهذه المهمة يُدْعَى عبد الله ومُلَقب بالكفيف في أوساط النزلاء، إنه من أبناء مدينة ود مدني وكان لديه مهنة محترمة، وهو صائغ ذهب يعمل شريكًا مع أحد التجار، لكنه لم يكتف بإمكانياته تلك وركب على ظهر إبليس حتى أضله وأسقطه من القمة إلى قاع الأرض.

لقد تم إيقافه بتهمة البيع والمتاجرة بعقار بأوراق مزورة، لم يحتل على غريب، وإنما احتال على والده، وتآمر مع إحدى العصابات المتخصصة في التصرف في ممتلكات الآخرين بأوراق مزيفة...

وحين سأله القاضي عن الدافع الذي جعله يبيع دارهم التي تُعَد ملجأً له ولوالديه وأشقائه الصغار أنكر الأمر، وقال لسيادة القاضي أنه ضحية مؤامرة قد قامت بها عصابة العقارات، لقد مضى وبصم على الأوراق دون علم بسبب ضعف بصره...

رغم تلك المبررات لم يرحمه القاضي، وأدانه بعامين أدبية، والتحفظ عليه إلى حين سداد المبلغ؛ الذي أخذه من المشتري ويبقى والداه وأشقاؤه في دارهم لذلك تم تلقيبه بالكفيف المتعمد في أوساط السجناء، والغريب في الأمر أنه كان يذيع جميع القرارات التي تأتي إليه إلى غرفة الإذاعة من

إدارة السجن مكتوبةً على ورق، كما يقوم بإذاعة أسماء السجناء التي تجيئه مدونةً على ورق من قسم الزيارات، وهذا الأمر فيه بعض التناقضات، إنه على عكس ما يدعيه من ضعف النظر...

عمومًا؛ دعونا نعود بكم مرةً أخرى كي نقص لكم ما تبقى من قصة السجينين والسجين الذي ضبطهما وقام بإبلاغ مدير السجن في حضور جميع النزلاء...

سار السجينان في أزقة السجن حتى وقفا أمام شباك الإذاعة، واستدعيا المذيع عبد الله وأعطوه ورقةً نقديةً من فئة عشرين جنيهًا، ومعها علبة سجائر ماركة البرنجي مرفوقةً بورقة صغيرة مدون عليها اسم السجين الذي بلغ عنهما وعن فعلتهما تلك، وطلبا منه استدعاءه عبر الميكروفون.

ابتسم المدعو عبد الله وأخرج سيجارة من تلك العلبة وقام بإشعالها، وسحب منها أنفاسًا متكررةً وأخذ المذياع بيده اليسرى ووضعها على بعد نصف شبر من شفتيه، وبدأ يردد اسم السجين، ويطلب منه الحضور لمقابلة ذويه...

خرج السجين من داخل عنبره بسرعة واتخذ أحد الأزقة الضيقة، وفجأةً ظهر له السجينان وانهالوا عليه ضربًا بالعصا التي جاؤوا بها من فروع الأشجار الضخمة، وظلا يضربانه بقوة حتى أُغْمِي عليه...

سمع بعض النزلاء صرخاته وجاءوا مهرولين لإنقاذه. أخذوه بسرعة إلى مبنى إدارة السجن، ومنها تم نقله إلى المستشفى لتلقي العلاج اللازم، وبعد مرور ساعتين أعادوا السجين المجني عليه إلى السجن. ما زالت حالته سيئةً

أغلب جسمه كان مغلفًا بالشاش الأبيض. كان أشبه بحلاوة القطن التي كنا مدمنين على تناولها في أوقات الصبا...

أخذوه إلى مكتب مدير السجن وبدأ المجني عليه يشكو من الاعتداء الجسيم التي تعرض له من قبل السجينين المصابين بلعنة اللواط. طلب مدير السجن من العسكر إحضار الجانيان أمامه، ولم تمر دقائق حتى جاء بهما العسكر وأوقفوهما أمام المدير. انهال عليهما المدير ضربًا بالخرطوش، وسألهما:

– ما السبب الذي دفعكما للاعتداء على المجني عليه بتلك الوحشية؟

– بسبب وشايته لك.

فضربهم ثلاثتهم حتى انهارت قواه، وقال للسجينين: «الويل لكم إن جاءني أحد يشكو من اعتداء»، ونظر إلى السجين المجني عليه وقال له بطريقة تحذيرية: «لا تتدخل بعد الآن فيما ليس لك فيه، لا يهمني ما يفعله السجناء بأجسامهم داخل الحمامات طالما يفعلونه برضا فيما بينهم، فقط ما يهمني إذا وجدت أحدهما يتم اغتصابه بقوة دون رضاه»...

ثم صرخ في وجه السجين وقال له: «إذا جئتني تشكو ما يدور داخل حمامات السجن من لواط وإلى آخره من الرذائل سوف أزج بك داخل زنزانة انفرادية، بعدما أقيد قدميك بالقيد... هل هذا واضح»...

ارتجف السجين وأجابه بنعم.

ظل توتو كافي ورفيقه شروم داخل السجن وحيدين بالرغم من أنهما كانا محاطين بآلاف السجناء، لكنهما كانا في عزلة يقضون النهار تحت ظل

إحدى الأشجار العملاقة، وحين يجيء الليل يجلسون فوق نمرهم التي كانت هي الأخرى لصيقةً...

وفي إحدى الليالي جلسا كعادتهما فوق فرشتهما، سأل شروم صديقه توتو كافي قائلًا:

- ألم تقم بزيارة قريتك لتفقد أحوال والديك؟

- لا...

وبدأت الدموع تسيل من عينيه حين تذكر والديه اللذين تركهما منذ واحد وعشرين عامًا، منذ هروبه من قريته وهو في العاشرة من عمره... ها هو الآن قد بلغ من العمر واحدًا وثلاثين عامًا...

لم يستفد توتو كافي وصديقه شروم من سنين شبابهما... إنهما من ضحايا الحرب، استغلوهما وصنعوا منهما دمًى قاتلةً، واقتادوهما إلى حرب مصطنعة عنوةً واستغلا شجاعة الفتى الكوشي توتو كافي وصديقه شروم، وملايين من الشباب أمثالهما حتى حصدا ثمار النصر والتمكين، وحين تأكدوا بأنهم قد بلغوا غايتهم ورفعوا رايتهم قذفوهم دون أسف...

يا ليت الأمر قد انتهى بتلك الطريقة، وإنما تركوهم كي يفعل بهم القدر ما يشاء...

ها هو توتو كافي نزيل داخل السجن وهو يعرج بقدم واحدة، ويرى الأشياء بعين واحدة جراء إصابته بإحدى الألغام الأرضية الفتاكة، وصديقه شروم مصاب بمرض الرهاب جراء تعرضه للتعذيب المميت من قبل الوحدة التي كان ينتمي لها في يوم ما...

أين الإنصاف يا أولي الألباب مثلما تدعون؟ وأين عدالتكم التي ترددونها أينما ظهرتم ناطقين بألسنتكم قائلين جاء الحق وزهق الباطل؟ يبدو أنكم لم تقتدوا بمعاني تلك الكلمات، لذلك نقول إنكم جئتم بالباطل وأزهقتم الحق وقتلتم من صرخ بلا، ونفيتم من ذكر حقيقتكم...

لقد طغت بكم الكبرياء وأصبح ظلمكم ظاهرًا ومشهودًا لكننا موعودون بالتحرر وأنتم موعودون بجهنم لا محالة...

❁❁❁